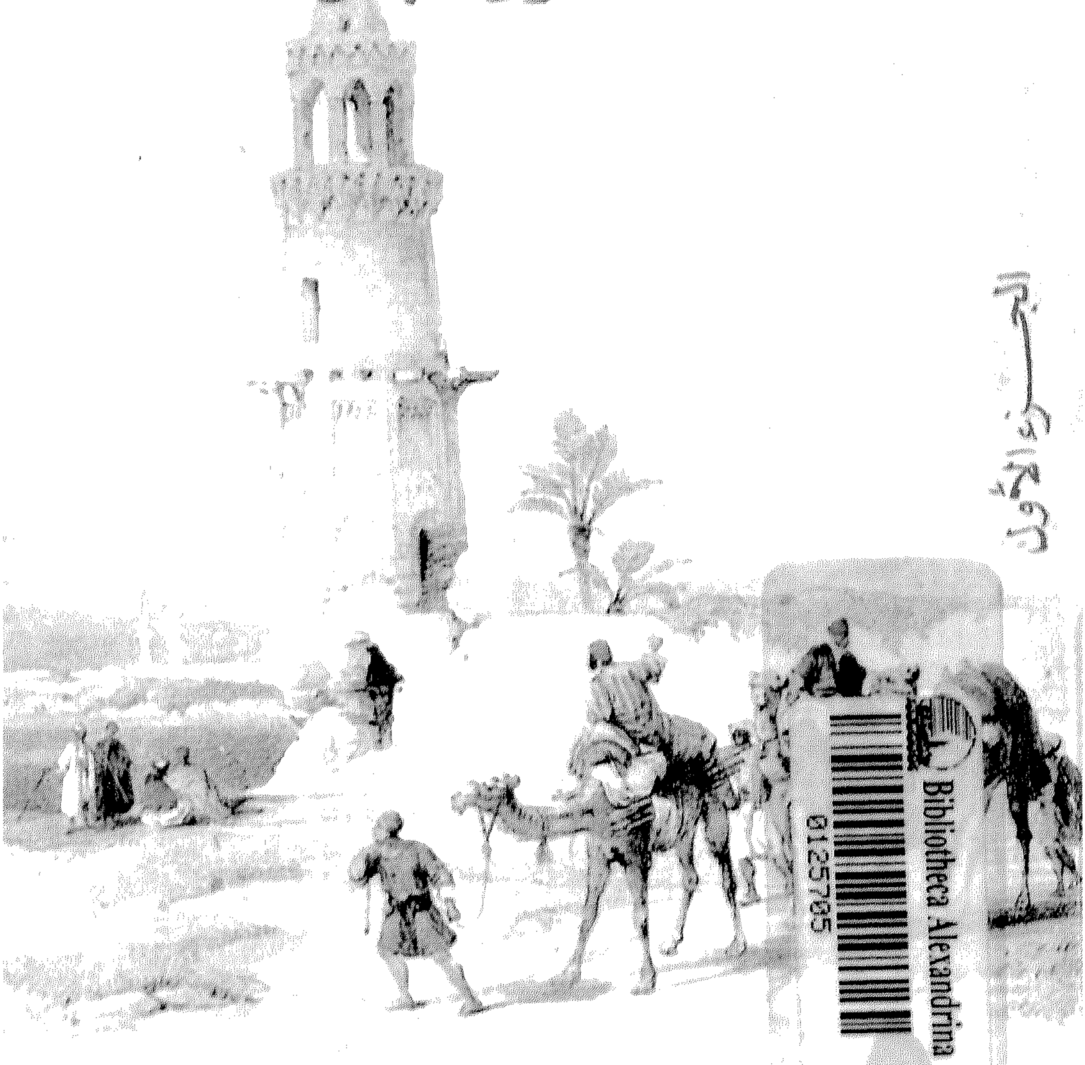
الألف كتاب
الثاني
١٦١

رحلة بيرتون

إلى مصر والحجاز

الجزء الأول



ترجمة : د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

رحلة بيرتون

إلى مصر والحجاز

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

محسنة عطية

رحلة بيرتون

إلى مصر والحجاز

الجـــزء الأول

تأليف

رتشـــارد ف . بيرتون

ترجمة وتعليق

د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب

PILGRIMAGE TO AL-MADINA AND MECCAH

by

RICHARD F. BURTON

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفصل التاسع	
السويس	١٣٥
الفصل العاشر	
سفينة الحج	١٥٣
الفصل الحادى عشر	
الى ينبع	١٦٦
الفصل الثانى عشر	
التوقف فى ينبع	١٨٥
الفصل الثالث عشر	
من ينبع الى بير عباس	١٩٦
الفصل الرابع عشر	
من بير عباس الى المدينة (المنورة)	٢١٥

مقدمة الطبعة العربية

هـذه صفحات مفعمة بالحيـاة لأحوال مصر الاجتمـاعية والثقـافية والاقتصـادية بل والسياسية فى منتصف القـرن التاسع عشر ،يزيد من قيمتهـا أن كاتبهـا ليس بشخص عادى ، وانما رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الأيرلندى رتشارد بيرتون ، وسنتناول جهوده بايجاز فى ثنايا هـذه المقـدمة ٠

لقد قام بيرتون برحلته لمصر فى غضون سنة ١٨٥٣ أى فى أواخر عهد عباس باشا الأول (١٨٤٨ ــ ١٨٥٤) ولا يخفى أن مصر كانت يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة فقد فرضت الدول الأوربية على محمد على (١٨٠٥ ــ ١٨٤٨) الغـاء سياسة الاحتكار ، وكان لهـذا أثـره على اقتصـاد مصر ، وسـائر مظـاهر الحياة الاجتمـاعية فيهـا ٠ وحتى يكون للمعلومات المبثوثة فى هـذه الرحلة مذاقهـا كان لا بد أن نقدم للقارىء جانبا منها فى سياقه التاريخى ٠

الاحتكار : وهـو ببسـاطة يعنى ــ من بين مـا يعنـى ــ التوجيـه الاقتصادى للدولة من حيث العمل على تقليل الواردات وزيادة الصادرات، وتوجيه الصناعة والزراعة بما يخدم هذه السياسة ، وقد تحالفت الدول

الأوربية ـ كما هو معروف ـ مع الدولة العثمانية لاحباط سياسة محمد على فى هذا المجال ، ورفع القيود عن الواردات الأوربية لمصر ، واضعاف جيش محمد على ، عدته فى التوسع ومحور سياساته التعليمية والاقتصادية ، فعقدت بريطانيا معاهدة (بلطة ليمان) (نسبة لمدينة بهذا الاسم فى تركيا) مع الدولة العثمانية سنة ١٨٣٨ لالغاء الاحتكار التجارى فى مصر ، وبدأ تنفيذ هذه المعاهدة ١٨٣٩ ، ولما رفضها محمد على فرضتها دول أوروبا فى تسوية لندن ١٨٤٠ ، وبدأت المنتجات الأوربية تغزو مصر . هذه حقائق تاريخية معروفة مطروقة ، ولكن بيرتون يذكر لنا أن المسئولين فى مصر كانوا فى بعض المجالات يتحايلون ضد سياسة الغاء الاحتكار هذه ومن ذلك ابتداع نظام (الدور) فى النقل البحرى مما يعطى صاحب السفينة حق فرض الأجرة التى يريدها على المسافرين أو البضائع المنقولة ، لأن هذا النظام يعطيه وحده الحق فى أن يكون فى الميناء ، ولا يجوز لأى سفينة أخرى أن تشحن بضائع أو تسمح للركاب بالركوب الا بعد أن يغادر هو الميناء ليأتى دور سفينة أخرى تتحكم هى الأخرى (أو تحتكر) عملية الشحن بالسعر الذى تحدده . وكان عدد كبير من أسرة محمد على وحاشيته من ملاك السفن . (معلومة جديدة تهم المهتمين بتاريخ الاحتكار) .

الفلاح : كان من النتائج الجانبية لالغاء سياسة الاحتكار التوسع فى ملكية الأرض الزراعية (ملكية رقبة لا ملكية انتفاع) ، فعرف الفلاح (حقه) فى زراعة ما يشاء ، و (حقه) فى الا يضرب . لكن بيرتون لاحظ أن الفلاح كان يعى حقوقه (بالكلام) ولكن « الخميرة القديمة » ـ على حد تعبير بيرتون ـ كانت لاتزال كامنة فى اللاشعور . وفى معرض حديثه عن الرق فى الشرق يقول لنا بيرتون ان الرقيق فى مصر والشرق يعيش حياة أفضل كثيرا من حياة الفلاح المصرى (الحر) .

الرقيق : أكثر محمد على من استقدام الرقيق واستعان بهم فى أمور شتى من بينها الجيش وفشل فى ذلك . ورغم أن الرقيق قد منع رسميا بعد ذلك الا أن بيرتون يحدثنا عن تجار رقيق فى القاهرة وعن صفقات بين جدة والاسكندرية وبين جدة والقاهرة . والطريف ان بيرتون يقول أن أوروبا تضخم هذا الموضوع فالرقيق فى الشرق يحظى بمعاملة كريمة ، لأن الشريعة الاسلامية تحث على ذلك ، ولأن مالك الرقيق اكثر ما يكون حرصا عليه لأنه يعتبره ملكا له ، ويقارن بين حال الرقيق وحال الفلاح المصرى بما ذكرناه آنفا .

التجنيد : يذكر بيرتون أنه « حيثما يتجمع الناس فى المساجد أو المقاهى سارعت الشرطة فغلقت الأبواب وقبضت عنوة على القادرين بدنيا » فقد عاصر بيرتون أثناء زيارته لمصر نشوب الحرب التركية الروسية (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦) ودخول مصر فيها الى جانب تركيا طبعا ، فكان اتساع حركة التجنيد ضروريا ٠

ولاحظ بيرتون أن الشعب المصرى تنادى بحركة « الجهاد » ضد روسيا وكان متحمسا تحمسا حقيقيا ٠

القضاء : يقول بيرتون انه فى مصر والشرق يفضل كثيرون استخدام « السكين والنبوت » للحصول على حقوقهم للبطء الشديد فى اجراءات التقاضى ٠ وكثرة حيله ومساربه ٠ ولابد من المامة تاريخية توضح لنا ما ذكره بيرتون فى رحلته عن القضاء فى مصر فى هذه الفترة ٠

ففى سنة ١٨٤٢ انشأ محمد على هيئة قضائية عرفت « بجمعية الحقانية » لمحاكمة كبار الموظفين ، كما انشأ « مجلس التجارة » وكان بمثابة محكمة تجارية لفض النزاع بين المصريين والأجانب ، وبين المصريين بعضهم وبعضهم الآخر ٠ وكان فى مجلس التجارة هذا أعضاء من الأجانب ٠ واستمرت المحاكم الشرعية تؤدى عملها فى مجال الأحوال الشخصية ، كما كانت هناك « مجالس الأقاليم » لفض المنازعات المدنية والتجارية ٠ وبعد الغاء سياسة الاحتكار تدفق الأجانب على مصر ، ولم يكن محمد على يسمح الا باستقدام الخبراء فى مجالات بعينها ٠ وقد استند هؤلاء الوافدون على الامتيازات الأجنبية التى كانت تعفيهم من الضرائب وتمنحهم الحق فى أن يحاكموا أمام قنصليات بلادهم ، واعتبر بيرتون هذا تجاوزا للحقوق الطبيعية للدولة المصرية ٠

ولما كان بيرتون فى مصر (بعد الغاء سياسة الاحتكار) كان عدد الدواوين (الوزارات) قد تقلص ليصبح أربعة فقط هى (الداخلية والحربية والمالية والخارجية) ٠

القفا Kafa : يقول بيرتون ان المصرى اذا تعامل مع « القواس » أى ضابط الشرطة ، أو دخل مركز الشرطة لأى أمر كان فلابد أن يعطيه المسئول « قفا Kafa » أى يضربه على قفاه حتى قبل أن تثبت عليه التهمة « انك تمر مع المتهمين الآخرين ليأخذ كل منهم « قفا » فاذا جاء دورك أخذت مثل الذى أخذوا » و « القفا » خاص بالمصرى دون سواه ، فاذا كنت أجنبيا تحرزوا فى اعطائك « القفا » وأحالوك الى قنصلية بلادك ٠

وربما كان ما ذكره بيرتون عن « القفا » فى أكثر من فصل من فصول رحلته هو السبب فى حساسية المصريين المعاصرين الشديدة من لمس (مجرد لمس) منطقة « القفا » هذه ، فلمس القفا فى السودان مثلا محبة ودعابة ، والضرب عليه مثل الضرب فى أى موضع آخـر ٠

ويحدثنا بيرتون باسـهاب عن الضرب بالفلكة أو (الفلقة) وكيف انها من الأمور المعتادة كأحد أساليب العقاب ، ويبدو أن ذلك قد استمر الى وقت متأخر فأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد يحدثنا فى « قصـة حياتى » التى صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة المواجهة) أنه حتى العمد كانوا يضربون بالفلقة اذا تأخر فلاحوهم عن الدفع ٠ واذا كان العمد يضربون بالفلكة فبأى شىء يضربون فلاحيهم !!

الحجـــاب :

كانت المصريات فى عهـــد محمـــد على محجبــات (نســاء المدن على الأقل) وفى أواخر عهد محمد على (بعد الغــاء سياسة الاحتــكار) تدفق الأجانب على مصر وزاد عددهم تدريجيا ، ومع هذا كانت كل النسوة محجبات حتى عهد عباس الأول بما فى ذلك غير المسلمات لدرجة أن بيرتون يذكر بامتنان كبير أن أحد السوريين المسيحيين فى مصر سمح له بالتطلع لوجه زوجته بغير خمار ، ومع كل هذا فان بيرتون يحدثنا ــ رغم الحجاب ــ عن مظاهر الفساد خاصة فى الأعياد ويقول : « ويلاحظ المسافر فى الشرق ــ بعجب ــ وجود بعض السيدات ليس لهن من العفة نصيب سوى البرقع » ومعنى هذا أن الحجاب وحده لم يمنع ممارسة الرذيلة ، كما أنه ليس دليـــلا عليهـــا ٠

البرم : بضم الباء وفتح الراء هو الشخص الذى تحـول للاســلام طمعا فى مكسب مالى أو للقيام بالتجسس ٠ فبعد الغاء سياسة الاحتكار وتدفق الأجانب على مصر ، ادعى عدد منهم الاسلام لا رغبة فيه ولــكن لولوج الحياة الاجتماعية لأهل البلاد ، يقول لنا بيرتون انه أراد أن يزور مصر والحجاز باعتباره مسلما أصيلا بالمولد ، لا مسلما متحولا (برم) ٠ وقد انصرف معنى هذه الكلمة الآن لمعان كثيرة مختلفة ، لكن مـــا ذكره لنا بيرتون يمثل جذورها التاريخية ٠

الفرق بين علماء الأزهر والدراويش : كان من الطبيعى بعد اختلاف محمد على مع الزعامات الشعبية وابعاد عمر مكرم ، أن يتضاءل دور الأزهر ، ومضت فترة ليست بالقليلة قبل أن يستعيد دوره ــ وهذا الظرف

التاريخى يفسر لنا الأحوال المتدهورة للأزهر من حيث الامكانات المادية والآثار المعنوية عندما زاره بيرتون فوجد مكتباته خاوية ورجاله بؤساء ومقرراته هزيلة • وكان من الطبيعى أيضا بعد تدهور أحوال الأزهر — الذى قاد رجاله المقاومة ضد الحملة الفرنسية ، وقاد رجاله حركة تولية محمد على أمر مصر رغم ارادة السلطان — أن تظهر جماعات أو منظمات أخرى لتسد الفراغ الدينى والعلمى ، فحل خريجو المدارس الجديدة وأعضاء البعثات — الى حد ما — محل علماء الأزهر ، وان لم يكن لهم القاعدة الشعبية العريضة التى كانت لعلماء الأزهر (الزعامات الشعبية)، كما ازدهرت الطرق الصوفية وأساليب الدروشة لتملأ الفراغ وحازت شعبية كبيرة أكثر من ذى قبل •

ورحالتنا بيرتون يصفق لهذا تصفيقا شديدا قائلا انه لا خطر من هؤلاء فى مقاومة أى غزو أوروبى مرتقب لمصر • وقد اندمج بيرتون عندما كان فى الاسكندرية فى سلك الدروشة والطرق الصوفية ، ويبدو أن حظه كان عاثرا اذ وقع على جماعة منهم كانت عوراتهم ظاهرة ويتصرفون بفحش حتى انه قال ان المرء اذا بقى معهم سيجد نفسه « فوق الوتد أو تحت العصا » • والمعنى واضح •

البقشيش : يقول : انها أسوأ كلمة سمعتها عندما قدمت لمصر ، وآخر كلمة سيئة سمعتها عند مغادرة مصر ، ولكنه فوجىء بها فى الحجاز أيضا فزاد كمده •

الموظف الشرقى : فى هذه الفترة وجد بيرتون أن الموظف فى مصر والشرق لا يمكن التعامل معه الا بالتهديد أو المرشوة أو الالحاح الشديد بكثرة التردد عليه مصحوبا بالمعارف والأصدقاء •

***

ليس من هدفنا فى هذه المقدمة تقديم عرض لكل ما ورد بها ، لكننى كما ذكرت آنفا أردت ربط بعض ما ذكره بيرتون بالظروف التاريخية حتى يمكن فهمه وتذوقه • وحقيقة الأمر اننا أشرنا مجرد اشارات لبعض ما أورده بيرتون وهو كثير غاية الكثرة ، عميق غاية العمق سواء اتفقت معه أم لا • **فمن هو بيرتون هذا ؟** ولد هذا الايرلندى المخلط سنة ١٨٢١ وتذكر الموسوعة البريطانية أنه من أصول انجليزية وأيرلندية وربما

فرنسية ، وهو أول أوروبى يكتشف بحيرة تنجانيقا ، وقد نشر ٤٣ مجلدا عن رحلاته وترجم الى الانجليزية من العربية والفارسية وغيرها ثلاثين كتابا بما فيها النص الأصلى لألف ليلة وليلة · أتقن ٢٥ لغة وأربعين لهجة وبرع بالاضافة للانجليزية فى الفرنسية والايطالية واللاتينية واليونانية بالاضافة لباقة من اللغات الشرقية · التحق بجامعة اكسفورد وتركها سنة ١٨٤٢ ليعمل ضابطا بالجيش البريطانى فى الهند أثناء خوضه الحرب ضد السند (باكستان الآن) · زار مصر وهو فى طريقه للحجاز سنة ١٨٥٣ وفى ١٨٥٤ زار هرر ، وخطط مع ثلاثة ضباط بما فيهم المكتشف الشهير سبيك Speke لكشف منابع النيل بالتوغل فى شرق أفريقيا ، وتوغل مع سبيك بالفعل فى شرق أفريقيا ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ووصلا لبحيرة تنجانيقا ، واندفع سبيك منفردا ليكشف بحيرة فكتوريا كمنبع دائم للنيل ، مما أحنق بيرتون · وفى ١٨٦٠ ذهب بيرتون للولايات المتحدة ، وقام بعد ذلك برحلات قصيرة متتابعة الى غرب أفريقيا ، وكتب عنها خمسة كتب لاقت رواجا واهتماما لدى علماء الأنثروبولوجيا · هذا ما يمكن قوله فى هذه العجالة عن هذا الرحالة العظيم الذى نقدم رحلته لمصر فى هذا الجزء ونقدم بقية رحلته لمكة المكرمة والمدينة المنورة فى الجزءين الثانى والثالث · أبقى بعد ذلك شك فى أهميتها ؟ وقد أوتى بيرتون أسلوبا شيقا لا يخلو من روح الدعاية ، كما أن له براعة فى السرد ذى الطابع الروائى ·

***

والعجيب أن بيرتون يسخر من تقليد بعض النظم الغربية ، ويعتبر أن هذا لا جدوى منه ، وأن الأفضل والأنجح هو استيحاء نظم من تراث الشرق لا بأس من تأثرها بحضارة الغرب ، أما استيراد نظم غربية لشعوب شرقية فهو أمر مضحك ، لذلك فهو يعتقد أن جهود الدولة العثمانية فى الاصلاح باصدار مجموعة قوانين وتنظيمات مستوحاة من الغرب هى (خط كلخانة) لن يؤتى نتيجة مثمرة · فالشرق يحتاج لحكومة متمدينة قاسية (حازمة) ويضرب مثلا بقبضة محمد على القوية على الحجاز وكيف أنها قللت كثيرا من اللصوص وقطاع الطرق وفرضت الأمن بعدالة (صارمة) ويسخر فى المقابل من الدولة العثمانية التى كانت تستنزف دماءها وتقدم أموالها كرواتب أو (رشاوى) لمشايخ العرب دون جدوى · قد لا يوافق كثيرون على هذه الاستراتيجية الاصلاحية فى بلاد الشرق (ومصر شرق) لكن المؤكد أن كثيرين يوافقون عليها وينادون بها ·

ومما يؤخذ على بيرتون أنه أكثر الحديث عن فراسة الدماغ » أو علم الفراسة بمعنى الحكم على أخلاق شخص ما بتأمل ملامحه (عينيه وشفتيه ٠٠ الخ) أو تأمل تركيبه البدنى ، وهى نظريات شاعت فى القرن التاسع عشر ، ولم يعد لها أنصار كثيرون الآن ، ولا يميل لها علماء النفس المحدثون ٠

كما يؤخذ على بيرتون كراهيته الشديدة للهنود ، فقد انتقد أخلاقهم انتقادا مريرا ، ولا ندرى ماذا يريد بيرتون من الهنود غير كراهيتهم للانجليز الذين يستعمرون بلادهم ٠

***

لغة الرحلة :

عرض بيرتون رحلته بأسلوب صعب المرتقى كثير التلافيف طويل الجمل ، كما أغرق فى استعمال الصياغات البلاغية والتشبيهات التى استقاها من ثقافات مختلفة اغريقية وأوروبية معاصرة وعربية قديمة ، وعربية حديثة وهندية وافريقية ، مما يرهق قارئه ، ومترجمه من باب أولى ٠ وسيجد القارىء فى ثنايا هذه الرحلة ما يؤكد ذلك وسيجد فى بعض تعليقاتى ما يبين مدى الجهد والمعاناة والمتعة معا التى لقيتها عند ترجمة هذا النص المهم الذى نقدم للقارىء العربى ترجمته الكاملة للمرة الأولى ٠ وقد أفردت لكل جزء من أجزائه مقدمة أو دراسة مستقلة ، اذ تعرض بيرتون فى الجزء الأول لمصر غالبا ، وتعرض فى الجزء الثانى للمدينة المنورة غالبا ، وتعرض فى الجزء الثالث لمكة المكرمة ٠ بالاضافة لاستطرادات مفيدة وشيقة فى كل الأحوال ٠ والله من وراء القصد ٠

د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصـــل الأول

الى الاسكندرية

الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية ـ الهدف الأساسى للرحلة ـ عن الربع الخالى ـ الفروق الفسيولوجية بين سكان شبه جزيرة العرب ـ بقايا الوثنيين فى شبه الجزيرة العربية فى القرن ١٩ ـ الخروج من لندن ـ سفينة البنغال ـ مقارنة بين الرجل الشرقى والرجل الغربى ـ كيف يشرب الهندى المسلم الماء ؟ ـ رأس الطين ـ الكيف والمزاج عند الشرقيين ـ شخصية الدرويش ـ البقشيش ـ وصف الاسكندرية ـ ممارسة الطب ـ الطرق الصوفية ٠

عرضت خدماتى على الجمعية الجغرافية الملكية بلندن فى خـــريف سنة ١٨٥٢ ، عن طـــريق صديقى الصـــدوق الجنرال الراحل مونتيث Monteith قاصدا أن أزيل عن الكشوف الحديثة تلك الوصمة التى لحقت بها متمثلة فى وجود مساحات واسعة بيضاء (لا معلومات عنهـا) فى خرائطنا ، لا زلنا نشير لها بالمناطق الشرقية والوسطى من شبه جزيرة العرب ٠ وقد شرفنى الســـيد فريدريك ى ٠ مرشـــسون Murchison والكولونيل ب٠ يورك York والدكتور شو Shaw المفوضون عن هذه الجمعية الموقرة ـ بحماسهم المعتاد للكشـــوف واستعدادهم لشد أزر المكتشفين ـ بأن أيدوا بحرارة ـ فى لقاء شخصى مع رئيس مجلس المديرين (فى ذلك الوقت) بشركة الهند الشرقية البريطانية المنحلة ـ طلبى للحصول على اجازة مدتها ثلاث سنوات فى مهمة خاصة أغادر فيها الهنـــد الى مسقط ٠ الا انهم لم يكونوا قادرين على اقناع الراحل جيمس هوج Hogg رئيس مجلس المدراء آنف الذكر ، الذى رفض التصديق على الطلب لأنه تذكر المآسى التى لحقت بجنود ورحالة متعددين فى الشرق فى الأعـــوام الغـــابرة ، وتــذرع بأن رحلتى المقترحـــة فى الغـــاية من الخطـــورة ٠٠ وعلى أية حال ، فقد سمح لى ـ كتعويض عن خيبة الأمل التى حاقت بى ـ باجازة لمدة عام لمتابعة دراساتى العربية فى بلاد يتيسر لى فيها تعلمها على أفضـل نحــو ٠

ولم يبق الا أن اثبت ـ بالتجـربة العملية ـ ان ما كان محفـوفا بالمخاطر بالنسبة لغيرى من الرحالة ، آمن بالنسبة لى • فوجدت أن زيارة للحجاز هى بمثابة محك تجريبى ، فالحجاز هو أكثر مناطق شبه الجزيرة العربية صعوبة وخطورة فى آن واحد ، بالنسبة للأوروبيين الذين يمكنهـم دخولها • لقد كنت أنوى ـ بعد أن حصلت على الأجازة التى خصصت لى كمنحة ـ أن أذهب الى مسقط ، كنقطة بداية أفضلها ، لأوطن نفسى فيهـا بهدوء وثقة على اجتيـاز الصحارى • الا أننى الآن أود أن أبدا بزيارة الأماكن المقدسة للمسلمين أو بلاد الحرمين (الشريفين) التى يدافع عنها المسلمون بحمية ويمنعون غير المسلمين من دخولها ، وانى متعجل لهـذه الزيارة وفى عز الصيف بعد أن أدت اقامتى لأربع سنين فى أوروبا الى تفلت كثير من معارفى عن الشرق من ذاكـرتى • وبعـد أن مررت بمحنة مصر Ordeal of Egypt (كانت مصر بالنسبة لى عذابا) فهى بلد تتسـم الشرطة فيه بالتطفل كالشرطة فى روما وميلان (١) •

وعلى أية حال ، فلأن الجمعية الجغرافية الملكية قد زودتنى ـ بسخاء ـ بما يتيح لى السفر ، ولأننى سئمت « التقدم » و « الحضارة » فى أوروبا ، ولنهمى لأن أرى بعينى ما قنع الآخرون بسماعه بآذانهم ، وهو الحيـاة الداخلية (الحقيقية) للمسلمين فى بلادهم الأصلية (٢) ، ولرغبتى العارمة فى أن أحث الخطى لهذه البقاع الغامضة التى لم يقم رحالة مجاز (٣) (فى اجازة) حتى الآن بوصفها وقياسها ورسمها وتصويرها ، فقد عزمت على تقمص شخصيتى القديمة كدرويش فارسى ، وأن أحاول •

لقد كان الهدف الأول الذى راودنى هو عبور الجانب غير المعـروف من شبه الجزيرة العربية فى خط مباشر من المدينة (المنورة) الى مسقط ، أو أن أعبرها قطريا بميل من مكة (المكرمة) الى المكلا Makalla عـلى ساحل المحيط الهندى • أى نحس عاق تنفيذ خططى ؟! سيكتشف القـارىء ذلك بين ثنايا هذين الجزءين • أما أهدافى الثانوية فكانت متعددة • فقـد

---

(١) يتحدث بيرتون عن الشرطة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد تطورت شعارات الشرطة المصرية بعد ذلك تطورا كبيرا واصبح شعارها الآن (الشرطة فى خدمة الشعب) • (المترجم) •

(٢) فى الأصل : بلادهم الحقيقية realy وفضلنا ما أوردناه فى المتن لقربه من المعنى المقصود • (المترجم) •

(٣) بيرتون شغوف بالمباهاة فليس هو أول من زار الحجاز ، فقد زارها قبله فارتيما ، وجوزيف بتس وعلى بك العباسى وبوركهارت (١٨١٨ـ١٨١٩) بصرف النظر عن الاجازة •
(المترجم)

كنت راغبا فى اكتشاف امكانية افتتاح أى سوق للخيول بين وسط شبه الجزيرة العربية والهند ، فقد كان ثمة استياء عام من المستوى المتدنى للافراس سواء أفراس السباق أو افراس الاستيلاد ٠

كما كان من اهدافى جمع معلومات عن الربع الخالى لندرجها فى خرائطنا ، وكذلك البحث فى هيدروجرافية الحجاز (علم مصادر المياه ووصفها) من حيث تجمعات المياه الناتجة عن الأمطار ، والمنحدرات الشديدة فى المنطقة ، ومعرفة ما اذا كانت هناك سيول دائمة أم لا ، وأخيرا محاولة التيقن ـ بالملاحظة الفعلية ـ من نظرية السكولونيل و ٠ سيكس Sykes والتى مؤداها انه اذا كان ما يتداوله الناس جيلا بعد جيل صحيحا ـ فلابد من وجود فروق فسيولوجية غير قليلة بين سكان شبه الجزيرة العربية المترامية الأطراف ، مما يحفزنا للتثبت من القضية التى نهتم بها عن الأصول العامة للعرب (٤) ٠ أما فيما يتعلق بالخيول فاننى مقتنع انه يمكن عمل شيء ما فى منطقة الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية ، وليس من شيء يمكننا عمله ـ فى هذا الصدد ـ فى الساحل الغربى حيث الخيول ـ رغم أصالتها ـ مجرد كائنات غير صالحة للاستيلاد وأسعارها مرتبكة ولا يتيسر الحصول عليها الا مصادفة (٥) ٠ وقد سمعت عن منطقة الربع الخالى بما فيه الكفاية من رواة ثقات ما يفيد أنها منطقة ذات أبعاد مروعة ، وأنها تعج بأعداد كبيرة من السكان نصف الجوعى ، وتسود فيها الوديان والأخاديد والوهاد (أو المسيلات وهى وديان صغيرة ضيقة شديدة الانحدار) ـ وهى فى مجملها خصبة على نحو ما بفعل السيول التى تجتاحها بين الحين والحين ٠ ونخلص من هذا الى أن منطقة الربع الخالى منطقة مفتوحة (متاحة) للرحالة المغامرين ٠ وأكثر من هذا فاننى مقتنع أن شبه الجزيرة العربية التى تسود فيها المجارى المائية الصغيرة المنحدرة من التلال ـ على عكس ما ذكره الجغرافيون منذ

---

(٤) فى الاصل The arab family وقد آثرنا ما اوردناه فى المتن حتى لا يختلط المعنى ٠ (المترجم) ٠

(٥) حظى موضوع الخيول العربية باهتمام بالغ من كل الرحالة الاجانب منذ مطلع التاريخ ، فبارتيما خصص جانبا من رحلته (١٥٠٣) لمتابعة سلالات الخيل والتدريب عليها ، أما بلى الذى زار شبه الجزيرة العربية فى سنة ١٨٦٥ ، فقد أفرد ملحقا كاملا عن الخيل بالاضافة لاشاراته المختلفة لها من ثنايا رحلته ٠ ومن المفهوم ان الاهتمام بالخيل يقل لدى رحالة القرن العشرين لتضاؤل قيمتها تدريجيا فى الحروب ، وان كان من الملاحظ أن مشاهير الجواسيس الذين كشف امرهم فى القرن العشرين فى منطقتنا كانوا يدعون (هواية) تربية الخيول وذلك ليجدوا جانبا مشتركا أو أرضية مشتركة بينهم وبين العرب الذين لا يزالون يحبون الخيول والصقور ٠ (المترجم) ٠

بطليموس (٦) حتى جومارد Jomard – ليس بها سيل (٧) (مجرى مائى) دائم واحد يستحق ان نطلق عليه نهرا · كما أن الشـــواهد التى ساقها لى أهل البلاد تدفعنى الى الظن أن شبه جزيرة العرب تنحدر صـوب الجنـوب (٨) وليس العكس ، وأنا فى ظنى هذا متفق مع فالن Wallin ومخالف لريتر Ritter وآخرين · وأخيرا فقد وجدت الدليل الـذى يجعلنا نعتقد بوجود ثلاثة أجناس محددة فى شبه الجزيرة العربية :

١ – أهل البلاد الأصليون ، ويمكن مقارنتهم بجماعات البيل Bhils وغيرهم من الهنود الأصليين – ويقطنون فى الصحارى الشرقية والجنوبية الشرقية المتاخمة للمحيط ·

٢ – السوريون أو العراقيون القـدماء (أهل ميزوبوتاميا) الـذين وصف شم Shem وجوكتان Joktan خصائصهم الأساسية ، وقد أزاح هؤلاء السوريون أو العـراقيون أهـــل البلاد الأصليين من أماكنهم الأثيرة ، ولا يزال هؤلاء الغزاة (الفاتحون) يستمتعون بما استولوا عليـه متمثـــلا فى شعب شبه الجزيرة العربية العظيم (٩) ·

٣ – العشائر الشامية السورية المخلطة ونحن نمثلها بذرية اسماعيل (عليه السلام) وذرية ابنه نبوغث Napagoth وذرية Edom (عيص Esu ابن اسحق Isaac) الذين سكنوا – ولا زالوا – شـبه جزيرة ســـيناء ·

وفى معظم الأماكن ، بل وحتى فى قلب مكة المكرمة ذاتها ، تقـابلت مع بعض الوثنيين الذين كان محمد (صلى الله عليـــه وسلم) قد منـع

---

(٦) بطليموس عالم فلك وجغرافيا سطع جنمه فى الاسكندرية ١٢٧–١٥١م ، ولا علاقة لبطليموس هذا بالبطالمة أو البطالسة الذى حكموا مصر فى الفترة ٣٢٣ – ٣٠ ق·م · (المترجم) ·

(٧) يطلق أهل الجزيرة العربية الآن لفظ « سيل » أو « المسيل » على المجرى المائى سواء أكان عامرا بالماء بعد هطول المطر أو بعد أن يجف ، فالمجرى (مجرد المجرى) هو سيل أو مسيل ، أما عملية هطول الأمطار وتحولها الى سيل أو مسيلات فيطلق عليها نفس الالفاظ – ويتم التفريق بين المعانى المقصودة بالسياق · (المترجم) ·

(٨) أصبح معلوما الآن أن شبه الجزيرة العربية – بشكل عام – تنحدر نحو الشرق والشمال الشرقى ، وأصبحت هذه معلومة مؤكدة يدرسها طلاب الجغرافيا فى المدارس · (المترجم) ·

(٩) ما يذكره بيرتون هنا مسائل لم تثبت تاريخيا ، وانما لا تتعدى كونهـا ترجيحات ، انما الثابت أن شبه الجزيرة العربية بعد الاسلام وحتى قبله كانت مركز طرد للهجرات البشرية ، لا مركز استقبال لها · (المترجم) ·

وجودهم أصلا ، فهؤلاء الوثنيون لا زالوا كثيـــرين (١٠) ٠ وقد ارجعهم المراقبون الجهلاء الى أصول حديثة اعتمادا على ادلة عقلية ٠

لقد توصلت الى هذه المقولة اثناء تجوالى صيفا فى الحجاز ٠ انهـا روايات شخصية ، وقد عملت على أن اجعل طبيعة هذه الاحاديث متفقة مع كونها « شخصية » (١١) ٠ ان كثيرين قد لا يحـذون حذوى ، وان كان آخــرون ربما يكونون شغوفين لمعرفة المعايير التى وضعتها فى اعتبارى لأظهر فجأة كرجل شرقى على مسرح الحياة الشرقية ، وربما يجد رحـالة المستقبل فى سرد ذلك شيئا مفيدا لهم ، ولا أقدم اعتذارا عما يشبه الغرور فى روايتى هذه ٠ وهؤلاء الذين شعروا بالحاجة الى « صديق صامت » يقدم لهم النصيحة دون أن يتحتم عليهم طلبهـا ، سيقدرون ما قد يبدو للعيابين كثيرى النقد مجرد تدفق عقل رجل مصاب بتضخم الذات ٠

فى مساء الثالث من شهر أبريل سنة ١٨٥٣ غادرت لندن الى سوثامبتون Southampton ، وبناء على نصيحة الأخ الضابط الكابتن هنرى جريندلى (كولونيل آلان) فى سلاح فرسان البنغال فقد تم تجهيز ملابسى الشـــرقية قبل مغادرة لندن كما تم اعطاء كل حاجياتى طابعا شرقيا تماما (لم يـكن الناصح وهو الكابتن هنرى ولا المنصوح وهو صاحب الرحلة يدركان وقتها مدى قيمة وأهمية هذه النصيحة) ٠ وفى بكور الصباح التالى استقل الأمير الفارسى (١٢) مصحوبا بالكابتن جريندلى الباخرة الفاخرة ذات الرفاس والموسومة باسم « البنغـــال » التابعة لشركة شبه الجزيرة والشرق ٠

---

(١٠) ملاحظات بيرتون هنا عن بقاء وثنيين فى شبه الجزيرة العربيـة الى وقت متأخر (القرن التاسع عشر) صحيحة فيما يبدو وأكدها رحالة آخرون ومن ذلك ما ذكره « بلى » فى رحلته للرياض ١٨٦٥ (نشر جامعة الملك سعود) صص ٤٦ـ٤٧ : « ٠٠ توجد حتى الآن (١٨٦٥) كهوف منحوتة فى جبل طريق ٠٠ هى بمثابة معابد لدين قديم ٠٠ وظل أهل المكان يوقرون هذه المعابد ٠٠ ونجد أن آل مرة فى الجنوب لم يتحولوا للاسـلام الا منذ وقت قريب » لكن بعد ظهور الدعوة السلفية بدأت هذه الجيوب الوثنية ـ التى عمرت طويلا مستغلة اتساع شبه الجزيرة العربية وكثرة شعابها ووهادها ـ تتلاشى تدريجيا ٠ (المترجم) ٠

(١١) من الواضح أن بيرتون يؤكد هنا أن ما ذكره من معلومات سابقة ليست مؤكدة وانما هى معلومات شخصية جمعها دون التثبيت منها ٠ المقصود هنا معلوماته عن اصول سكان شبه الجزيرة العربية ٠ (المترجم) ٠

(١٢) يقصد نفسه ٠ (المترجم) ٠

لقد قضيت أربع عشرة ليلة مفيدة فى التآلف مع العادات الشرقية ، لأن ما قاله السيد شستر فيلد Chesterfield المهذب عن الاختلاف بين الشخص ونقيضه يمكن أن ينطبق بشكل ملحوظ على أحوال الرجل الشرقى من ناحية والرجل الغربى من ناحية أخرى ، فقد يؤدى كلا الرجلين العمل نفسه أو يؤديا الدور نفسه فى الحياة ، لكن طريقة اداء كل منهما تختلف اختلافا واضحا جدا • انظر – على سبيل المثال للمسلم الهندى وهو يشرب كوب ماء • ان شرب كوب ماء بالنسبة لنا فى أوروبا مسألة بسيطة فى الغاية من البساطة ، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسلم الهندى ، انها عملية بالنسبة له تشتمل على ما لا يقل عن خمسة أمور غير مألوفة لنا • فبادىء ذى بدء نجده يقبض على كوبه قبضا غليظا كما لو كان يقبض على رقبة عدوه ، ثم يقول بقوة : « بسم الله الرحمن الرحيم » قبل أن يبلل شفتيه، ثم يشرب الماء مبتلعا اياه ولا يرشفه رشفا كما ينبغى أن يكون الشرب ، ثم ينهى شربه بأن يتجشأ تجشؤ (١٣) الرضى ، ثم انه قبل أن يضع الكوب يتنهد قائلا : « الحمد لله » ، وعليك أن تدرك أن لهذه الكلمات معنى عميقا فى الصحراء ، وخامسا فانه يجيب صديقه الذى يقول له : « هنيئا » بقوله : « هناك الله » كما أنه – أى شارب الماء – يكون حريصا على تجنب الأمور التى حرمها الشرع عند الشرب فهو لا يشرب واقفا الا عند الاستثناءات التى حددها الشرع وهى شرب ماء زمزم ، والشرب من ماء الصدقة ، وشرب الماء المتبقى من الوضوء (١٤) ، وأكثر من هذا فان اليدين (اليمين والشمال) تستخدمان فى أوروبا دون تمييز ، أما فى العالم الاسلامى فيجب أن يستعمل الانسان يده اليمنى فى الامساك بالمسباح وشرب الماء ، وقد ينسى الأوربى وهو يتقمص دور الرجل الشرقى فيسىء استعمال الكرسى ، فالرجل الشرقى القح يضم ساقيه بعد ثنيهما ، ويبدو دائما مرتاحا فى جلسته هذه كأنه بحار على ظهر حصان يجرى خببا ، ويمد أصابعه للامام وينظر نظرة رزينة ، وعادة ما ينطق فجأة بعبارات دينية •

ان رحلتنا فوق « بحر الصيف » كانت بلا جدوى ، ففى سفينة بخارية حمولتها ألفان أو ثلاثة آلاف طن تكتشف أن ما كان مرهوبا قد غدا تافها مألوفا فلم يكن أمامى سوى الأمواج العاتية ، ولم يكن امامى من انجاز سوى أن أجلس جلسة مزعجة متمثلا قول الشاعر :

---

(١٣) استخدم بيرتون لفظ grunt وهى تعنى صوت الخنزير (القباع) وقد اثرنا ما أوردناه فى المتن لأنه المعنى المقصود • (المترجم) •

(١٤) هذه « عادات » وليست بالضرورة من الشرع أما البسملة فى البداية و « الحمد » فى النهاية فمن السنة الصحيحة • (المترجم) •

فهناك نتمدد ، There we lay

طــوال النهــــار ، All the day

عند خليج بسكاي in the Bay of Biscay

فمنظر الطرف الأغر ذى الروعة لا يثير أيا من المشاعر العــاطفية التى جرت العادة أن تكون (أى هذه المشاعر) مخرجا يخرجنا من حــــالة الرتابة التى يسببها الابحار الممل · فربما كانت هذه المنطقة معـــــروفة لك بفضل ثيوفيــــل جوتير Gautier واليوت واربيــــرتون Warburton اكثر من معرفتك بما حـــــول الكورنيل Cornhill فـالى جوارها ترسى سفينتك تحت الصخرة التى تتسع بالكاد لجلوسك وتناولك الافطار · أمــا اذا أبحرت الى مالطة وجدتها هى الأخرى ترتدى وجها مألوفا (ليس فيه ما يثير) مما يجعلك تأمر باحضار الغداء وتشرف على تبريد الخمــــر Claret (الذى يمثل بداية البربرية الشرقية) ، فهذا أفضل من العدو على ظهر حمار فى جو لاهب فى ذكرى القــــديس بول وفرسان الصليب الأبيض · ورغم أن رحلتنا البحرية كانت مملة ، فلم يكن هناك مــا يدعــو الشكوى فقد كانت السفينة مريحة على أية حال ، وكان الطباخ جيــدا ومن الغريب أن يقال ذلك ، واستمرت الرحلة فترة طويلة لكنها لم تكن ممعنـــة فى طولها · وفى مســاء اليوم الثــــالث عشر من بداية رحلتنا قام مرشد السفينة ذو السروال الواسع والذى كان خفيف الظل رغم تشوه منظـــره ــ من وجهة نظر أوربية ــ قام بواجبه ، ورست السفينة « البنغــــال » ذات الرفاص فى مرسى رأس الطين (١٥) ·

ولأننى كنت مدعوا كى أبدأ من منزل صديق رقيق هـــو جون و · لاركنج Larking فقد هبطت معه من السفينة وابتهجت ابتهاجا شديدا أن أرى اننى ــ بفضل اللحية والرأس الحليق ــ قد نجحت نجاح لورد جيش Geesh فى ابعاد تطفل العامة عنى · وقد ســـمعت أحد المسلمين يهمس قائلا : « الحمد لله »عند نزوله من السفينة ، وعند قطيع المفتشين المختلفين الذين مررنا أمامهم للتفتيش فى المرفأ ــ سمعنا مسلما يتمتم قائلا : « الحمد لله » · وراح الصبية يستعطفوننى باغراقى بالمديح الذى عــادة ما يوجهونه لذوى القبعات ، وعندما استنتج ولد صغير أن الفرصة قـــد جاءت لبسط اليد بالكرم تطلع فى وجهى وهتف قائلا : « بقشيش » فالقمته

---

(١٥) المقصود رأس التين وما ذكره بيرتون mud هو الاسم الأصلى ، ثم حرفه الناس « الى رأس التين » ربما تيمنا · (المترجم) ·

الرد قائلا : « مفيش » مما أقنع الذين سمعوا الحوار أن فرو الخروف قد غطى خروفا حقيقيا (١٦) ، ثم ركبنا بعد ذلك عربة وشققنا طريقنا بين الحمير ، فوجدنا أنفسنا فى غضون نصف الساعة والشيبوك Chibuk (الشيشة) فى أفواهنا ، وفناجين القهوة فى أيدينا ، ونحن جلوس فى ديوان منزل صديقى المضياف لارنج ٠

ما أعجب هذا التناقض بين السفينة التى أقلتنا الى رأس الطين ، وتلك الفيلا على ترعة المحمودية ؟! ففى هذه الفيلا تتمثل النقلة المفجائية بين الحياة ذات الايقاع السريع ، والحياة ذات الايقاع البطىء ، ففى ثلاثة عشر يوما انتقلنا من ضباب بارد رمادى دبق هو مناخ الصناعة الذى يجعلنا على شفا جزيرة الكائن الحى (نحيا بالكاد) ، الى أفضل هواء يزفه لنا البحر المتوسط بزرقته الرائعة وضبابه الرقيق الأرجوانى الذى ينشر فتنته وجماله حتى على الملامح الشمطاء للشمال الافريقى ٠ وها نحن الآن نجلس صامتين بلا حراك نستمع الى ألحان الشرق الرتيبة ، ونسائم الليل الرقيقة الباردة تمر عبر سماوات متلألئة بالنجوم وعبر أشجار مورقة فتحدث حفيفا يثير الأشجان ٠

هذا هو المزاج (الكيف) Kayf العربى ٠ الرائحة المنبعثة من الحيوانات ، والسعادة الحقيقية فى المعانى المجردة ، والكسل المصحوب بالسرور ، والسكون الحالم وبناء القلاع فى الهواء (أحلام اليقظة) ، كل هذا يغنى فى آسيا عن الحياة الخصبة المتأججة فى أوروبا ٠ وذلك نتيجة طبيعة الشرق الحيوية والهائجة ونتيجة الأعصاب المرهفة ، مما يؤدى الى القدرة على ابهاج الحواس ، ومثل ذلك لا تعرفه المناطق الشمالية حيث السعادة هى استثمار القوى الفعلية والحسية وحيث « الرزين هو الحى Ernst ist das leben » وحيث الأرض غير المعطاءة تتطلب كدحا دائم العرق وحيث الهواء البارد الذى يبعث على القشعريرة ، فكل ذلك يبعث على العمل والتغيير والمغامرة والانفاق ، ابتغاء الوصول لما هو أفضل ٠ وفى الشرق لا يبتغى الشخص سوى الراحة والظل عند مجرى جدول رقراق أو تحت عريشة ذات ظل ظليل لشجرة مزهرة ، يدخن الشيشة أو يرتشف فنجانا من القهوة أو يشرب كوبا من « الشربات » ، والأهم من كل ذلك أن يريح بدنه ويعطل عقله بقدر الامكان ٠ فما تسببه المناقشات من ازعاج ، واعمال الذاكرة لتذكر ما هو غير سار ، وارهاق العقل بالتفكير كل هذا من أكثر الأمور التى تعكر مزاج الشرقى وتفسد كيفه his kayf .

---

(١٦) المقصود أن تنكره قد نجح ٠ (المترجم) ٠

فلا عجب اذن أن مصطلح (الكيف) لا يمكن ترجمته الى لغتنا الانجليزية !

دعنى استشهد بهذا القول اللاتينى ·

Laudabunt alii Claram Rhoden our Mytelenen.

ثم دع الآخرين يصفون لك الاسكندرية التى كانت ذات يوم عاصمة مصر المشهورة · انها مدينة «مقلوب كيانها» (١٧) فصخورها التى يفترض انها جافة دائما مبتلة ، ونافوراتها التى يفترض أنها عامرة بالمياه دائما جافة ، ومسلة كليوباترا لا هى مسلة ، ولا علاقة لها بكليوباترا وعمود بمباى لا علاقة له البتة بمدينة بمباى ، وحمامات كليوباترا مكان لا حمامات فيه على الاطلاق وفقا لما يقوله الرحالة الثقات ، حتى بالنسبة للحى الليبى على أيامنا — وهو مكان رائع — فهو رغم روعته يعد مركزا حضاريا مقاما على قاعدة بربرية (غير متحضرة) وها هى أوزوريس جالسة جنبا الى جنب مع Typhon عدوها اللدود القديم · فلا زال قولا صحيحا ذلك الذى مؤداه : « الأيام حبلى بالمفاجآت » · والاسكندرية التى كانت موضوعا مبتذلا على أيام بروس Bruce لا زالت حتى الآن — بسبب تغيراتها الدائمة — موضوعا مناسبا لوصف جديد ·

كانت أفضل طريقة لكف عيون الخدم والزوار المتطفلة ، هو ما قام به صديقى لاركنج Larking اذ أسكننى فى مبنى ملحق بفيلته حتى اتمكن من التصرف بحرية كاملة وفق أسلوب حياتى وعاداتى · ورغم أن أحد المرشدين الأرمن — وهو جاسوس لا يهمد ولا يكل كسائر أبناء جنسه — كان فى المناسبات يلاحظنى قائلا :

« هذا رجل يتمتع بحرية كاملة » Voila un person diablement dégagé

فليس من أحد أدرك أية فكرة عن الدور الذى كنت أمثله خلا الذين كانوا مطلعين على السر من البداية · فالخدم وهم من المسلمين الأتقياء كانوا يسموننى « العجمى » ، والعجم أتباع أحد المذاهب الاسلامية لا ينظر لهم أهل السنة كمسلمين على السراط المستقيم كنظرتهم لأنفسهم ، لكن هذا بالنسبة لى على أية حال أفضل من لا شىء · ولم أضع وقتا فسعيت لتأمين مساعدة أحد الشيوخ وشرعت مرة أخرى فى الدخول فى تفاصيل العقيدة والشريعة فانعشت ذاكرتى بمعلومات عن الطهارة والوضوء ، وقرأت القرآن

---

(١٧) النص The City of Misnomers أى المدينة ذات الأسماء المغلوطة ووجدنا أن التعبير الذى أوردناه فى المتن يؤدى المعنى اكثر · (المترجم)

(الكريم) وأصبحت خبيرا بمواضع السجود · وكنت أقضى أوقات فراغى فى التردد على الحمامات والمقاهى والأسواق لشراء ما أحتاجه ·

وعملية الشراء فى هذا البلد تحتاج الى صبر فهى تعنى الجلوس على دكة التاجر والتدخين واحتساء القهوة ، وامرار حبات المسبحة - فى كل هذه الأثناء - بين أصابعك لتظهر أنك لست عبدا ، والحقيقة أنك تفعل ذلك لتدفن صبرك وتبارى به صبر عدوك (البائع) وكان لدى من الوقت ما يسمح بالقيام برحلات قصيرة للريف على ضفاف ترعة المحمودية ولم أهمل رؤية النحل عندما تتاح الفرص ، فقد تنقضى بضعة أشهر قبل أن تسعد عيناى برؤية هذا المنظر الممتع مرة أخرى ·

« Delicias Videam, ùile Jocose, tuas !

ولحرصى على الاهتمام بالأمور الجادة فقد ترددت على المسجد ، وزرت الأولياء الذين تكثر مزاراتهم بالاسكندرية · والحجاج المسلمون هنا يزورون قبر النبى دانيال Daniel الذى تم اكتشافه فوق بقعة رأى السلطان الراحل محمود فى منامه رجلا من عصور قديمة يصلى فيها ، والاسكندر الرومى وهو الاسكندر الأكبر المسلم بطبيعة الحال قد دفنت عظامه فى الموضع الذى يعرف باسمه (١٨) ، أو كما لابد قد حدث فانهم وجدوا عظاما نسبوها اليه · وتتباهى الاسكندرية أنها تضم رفاة وليين مشهورين ، أحدهما هو محمد البصيرى صاحب القصيدة المعروفة بالبردة التى يقرؤها المسلمون فى العالم الاسلامى كله · ويقرؤها مسلمو مصر فى المآتم وغيرها من المناسبات الدينية والثانى هو أبو العباس الأندلسى الحكيم وولى الماء الأول (؟) فالصلاة فى قبره مقبولة لا تضيع عبثا (١٩) ·

ومن الطبيعى أن ينظر أهل الاسكندرية لزجاجاتى وصناديقى ذوات الأقسام ، ولعابهم يسيل بغية الحصول على محتوياتها · ولما كان الطبيب الهندى بدعا غير مألوف لديهم ، فهم يحتقرون الافرنجى الا اذا كان قد جاب الآفاق (شرق وغرب) · ان شخصية الساحر ، وشخصية الطبيب وشخصية الفقير ، كلا على حدة ينقصها الكثير ، وإن كانت كل منها مثيرة للعجب فى حد ذاتها · الا أن هذه الشخصيات اذا تضافرت جعلت من صاحبها « طبيبا عظيما » ، فالرجال والنساء والأطفال حاصروا بابى ،

---

(١٨) يردد بيرتون هنا ما يسمعه من خرافات ، وليس ما يذكره صحيحا بالضرورة وانما يشير للفكر الشعبى السائد ، ولا علاقة للاسكندر ذى القرنين وهو المقصود هنا بالاسكندرية ، لكن الاسكندر الأكبر الاغريقى المعروف هو الذى يرجح المؤرخون دفنه بالإسكندرية · (المترجم) ·

(١٩) لا يوافق المسلمون السنة والمثقفون بشكل عام على ذلك ، فالرحال لا تشد الا للمسجد الحرام ومسجد الرسول ، والمسجد الاقصى كما هو معروف · (المترجم) ·

فأمكننى بذلك أن أتصفح وجوه الناس ، وجها وجها ، خاصة وجوه الجنس اللطيف ، فالأوربيون لا يعرفون ـ بشكل عام ـ منها إلا أسوأ النماذج . بل ان المحترمين من أهل البلاد بعد أن شهدوا عملية « المندل » Mandal أو المرآة السحرية مال رأيهم الى أن ذلك الغريب ، ما هو الا ولى من أولياء الله الصالحين ، قد منحه الله قوة خارقة ، فقد أرسل لى أحد كبار السن يعرض على ابنته لأتزوجها ، ولم يشر لمهر يتحتم على دفعه ، ووجدت من الأسلم ان أتنازل عن هذا الشرف . كما أن سيدة متوسطة العمر عرضت على مائة قرش ـ وهو مبلغ يساوى حوالى الجنيه الاسترلينى ـ اذا بقيت فى الاسكندرية وأشرفت على علاجها لاعادة البصر لعينها اليمنى .

ولا يظنن القارىء أننى أمارس « القرابين » Carabin «والسنجراد Sangrado » عبثا بغير علم ، فالحقيقة اننى كنت هاويا للدراسات الطبية والدراسات فى مجال الغيبيات والتصوف منذ أيام شبابى . وبالاضافة لهذا فممارسة الطب بين سكان العروض الحارة (المناطق الحارة) والشعوب غير المتحضرة ، مسألة سهلة نسبيا لأن الأمراض التى تصيبهم أقل تعقيدا من الأمراض التى تصيب الدول المتقدمة . وأكثر من هذا فان ما يجعل عملية معالجة المريض مسألة هينة تماما فى هذه الأنحاء ـ هو الدورة المؤكدة للمرض (التتابع الدورى لظواهره) فكثير من الأمراض فى المناخ المدارى ـ كما يعرف الأطباء جيدا تظهر لها ـ بوضوح ـ أعراض متقطعة غير معروفة كثيرا فى المناطق الأكثر برودة، ويمكننى أن أؤكد ـ من منطلق خبرتى الشخصية ـ أن ظاهرة الأعراض المتقطعة (غير المستمرة) تتجلى فى كل الحالات بدءا من آلام الجروح حتى الرمد . وظاهرة تقطع الظاهرة المرضية هذه طريق للاعتذار أو السماح (أن فشل العلاج) . لذلك فقد وطنت نفسى ان أكون طبيبا محترفا كما لو كنت حاصلا على دبلوما buono per l'estero من بادوا Padua لا أن أكون أكثر رغبة فى احداث جروح غائرة من معظم الجراحين الشبان الذين درسوا الطب دراسة نظامية ، وقد « انتهوا » قبل أن يبدءوا لأنهم صبوا أنفسهم فى قالب جامد كالعساكر البريطانيين .

وبعد شهر من العمل الشاق فى الاسكندرية اتخذت استعدادى لتقمص شخصية درويش متجول بعد أن غيرت لقبى من ميرزا Mirza الى الشيخ عبد الله . فقد أدرجنى أحد الرجال المبروكين الذى لم أهتم بتدوين اسمه ـ منذ فترة ـ فى طريقته الصوفية وهى الطريقة القادرية مدشنا انضمامى بالكلمة الجليلة « بسم الله ـ شاه » (٢٠) وبعد فترة

(٢٠) أسقط الآن أصحاب الطرق الصوفية الالفاظ الفارسية من أورادهم وطقوسهم . لكن اثبات بيرتون وغيره لها ، ربما يؤكد تأثيرات شيعية أو فارسية على الطرق الصوفية فى العالم العربى ـ وهذه حقيقة مهمة لها ابعادها ـ (المترجم)

تدقيق واختيار رفاقى الى درجة رفيعة فى الطريقة (طـريقة القادرية) هى درجة المرشد • وبذلك أصبحت عـارفا بدرجـة كافيـة بعقائد هـذه الطريقة الشرقية وممارساتها • وليس هناك شخصية فى العالم الاسلامى ملائمة تماما للتنكر من شخصية الدرويش ، فهى شخصية تتقمصها كل الطبقات وكل الأعمار وكل المذاهب • يتقمصها الشخص ذو المقام الرفيع الذى يتعرض للخزى فى مجالس الحاشية ، ويتقمصها الفلاح الذى وصل مستواه للحضيض ، ويتقمصها (الصايع) الذى أرهقته الحياة ، ويتقمصها المبتلى بمرض بغيض والذين يتسولون رغيف الخبز من باب الى باب • وأكثر من هذا فالدرويش يحل له مالا يحل لغيره ، فمن المسموح له ان يتخطى قواعد اللياقة والأدب باعتباره شخصا ليس من اهل الدنيـــا (تخلى عن الدنيا وما فيها) فقد يصلى وقد يمتنع عن الصلاة ، وقـد يتزوج أو يبقى عزبا كمـا يشتهى ويهـوى • وهو محترم سـواء ارتدى ثيابا من صوف غليظ أو ثيابا موشاة بالذهب ، فـلا احـد يسال هـذا (المتشرد ذا الحصانة) لم يأتى هنا ؟ أو لم يذهب هناك ؟ وقد يقطـع طريقه وحيدا سائرا على قدميه ، وقد يركب بغلة عربية يتبعها اثنا عشر خادما • وهو يبعث على الرهبة دون أن يحمل سلاحا ، وقد يختال فى الطرقات مدججا بالسلاح • فهو أعلى النـاس مقـاما وأكثرهم اتسـاما بالعدوانية ، وهو يحظى باحترام من الناس أكثر مما يحظى به الاخرون • وهذه المزايا مطلوبة للرحالة ذى المزاج الحاد ، ففى ساعة الخطر الوشيك ما عليه الا أن يصبح ممسوسا (به جنة) فيصبح آمنا ، فالمجنون فى بلاد الشرق يشبه الشخصية غريبة الأطوار فى بلاد الغرب ، اذ يسمح له أن يقول أو أن يفعـل مـا تمليه عليه الأرواح • فاذا أضفت الى شخصية الدرويش قليلا من المعلومات الطبية ومهارة متوسطة فى السحر ، وشهرة بأن همك الوحيد هو قراءة الكتب ، بالاضافة الى رأسمال كاف لينقـذك من الموت جوعا — فانك بذلك تصبح ذا مزايا خاصة فى بلاد الشرق •

والخطر الوحيد فى الاندماج فى سلك الطرق الصوفية هو أن ثياب **الدرويش الممزقة لا تغطى تماما العورة (٢١)** ، فاذا حوصرت فى جماعة من مثل هؤلاء « الاخوة » فقد تصبح على كره منك شريكه « تحت العصا

---

(٢١) استخدم بيرتون الاسم الشعبى المباشر للعورة Cut-thorut ويعنى حرفيا « الزغيم » (بضم الزاى وتشديدها وفتح الغين وتسكين الياء) وهو طائر أحمر صغير ، كما تعنى السفاح • غريب أمر الفكر الشعبى فهو يتشابه فى نقاط بعينها فى كل مكان ، لهذا الشىء نفسه يسمى فى مصر « حمامة » أما فى شبه الجزيرة العربية فيسمونه « بلبلا » • انه طائر فى كل الأحوال . (المترجم) •

أو فوق الوتد » (٢٢) لأنه من المعلوم أن الدراويش على نوعين : الدراويش الشرعيون أى الذين ينفذون تعاليم الدين ، والدراويش اللوطيون Luti or Bi-sharai ويشيرون لممارساتهم باشارة باطنية مؤداها « أننا وهو » مظهر لشىء واحد ، وقد حدث وانضممت اليهم لفترة أسبوع وفى نهاية هذه المدة غادرتهم وأنا فى حالة رعب وتقزز وعدت من حيث أتيت ·

---

(٢٢) المعنى الدال على الانحراف واضح من خلال هذه الكناية القوية التى ساقها بيرتون · (المترجم) ·

الفصل الثانى

مغادرة الاسكندرية

التكيف وخواص الرحالة البارع ـ مشاكل الجوازات ـ القواس ـ الرشوة ـ الرأى فى تحضر مصر ـ النشالون ـ الموظف الشرقى ٠

أقترح أن تكون خصائص الرحالة البارع ، موضوعا لما يطلق عليه علماء فراسة الدماغ « القدرة على التآلف » « واكتساب الصفات المحلية » وقد تطورت دراسة هذين الموضوعين ـ على نحو سواء ـ واتسعت ٠ فبعد مسير طويل وشاق نوعا ما ، وبسبب وعثاء السفر ـ يلقى الرحالة بنفسه فى أقرب مكان للراحة ليبدو كواحد من أهل البلاد ٠ ويدخن لفترة الشيشة (المغليون العجمى) بتلذذ لا حد له ، وينعم بأكثر من قيلولة أثناء النهار ، وينخرط فى نوم عميق ليلا وينعم بالغداء فى الوقت المحدد له ٠ ويعجب للأشياء المخالفة للعقل ، فليس لديه طريق آخر يتسلى به من ثرثرة أو أقاصيص أو صحف ٠ لكن سرعان ما تمر نوبة التأثر فتشتت وطأة السأم ويمر الوقت وئيدا ويفقد المسافر شهيته ويمشى حول غرفته ليلا ويتثاءب أثناء الحوار معه ، ويكون تأثير الكتاب عليه كتأثير المخدر ٠ فالرجل (الرحالة) يريد أن يتجول ، ولا بد له من ذلك ، والا فانه سيموت كمدا ٠

وبعد حوالى شهر قضيته فى الاسكندرية بسعادة فائقة ، أدركت اقتراب العدو (*) فأستسلمت فلا شىء يعوق غدوى ورواحى ٠ لقد كان العالم كله أمامى ، وكان ثمة اثارة لذيذة فى أن أغمس يدى فى أعماقه الفاترة ـ وكان شيخى السكندرى ـ الذى وقع ضحية اعجابه « بجبة » جديدة حصل عليها مقابل « زعبوطه » البالى الذى قدمه لى بسبب راتب شهرى كنت أقدمه له رمزا للأخوة فى الله ـ قد اقترح على أن يرسل زوجته لأبيها وأن يصحبنى الى آخر العالم بكل قواه ، كما يفعل القس الخاص (المرافق لشخص ما) وقد قبلت بأدب « زعبوطه » لكن أسبابا عديدة دفعتنى لرفض صحبته وخدماته ٠ ففى المقام الأول أنه كان يتحدث بلهجة

(*) يقصد وقت الرحيل غالبا ـ (المترجم) ٠

مصرية بغيضة ، وثانيا أنه عاقل متدبر (١) لدرجة أنه لا يعرف الطريق من القاهــرة للسويس ، وثالثـا فقـد كان « أخى فى الطـريقة ذا عينين متحولتين (من مظاهر التقلب) يغلقهما معا (دلالة المكر والدهاء) وله رأس مسطح من أعلاه ، وله شفتان ممتلئتان غير متناسبتين ، وعلامات أخرى أدت بى الى الشك فى أمانته وجديته وشجاعته (٢) · ان علم فراسة الدماغ وعلم التشريح (الفسيولوجيا) ـ كما هو ملاحظ ـ يخيبان أملك غالبا اذا طبقتها بين الشعوب المتحضرة لأن الطبائع البشرية فى هذه الشعوب المتحضرة قـد صقلت تحت ضغط التربيـة والحـوادث والخبرة والعادات والضرورة ، الا ان علم فراسة الدماغ وعلم التشريح يشيران بوضوح ويدلان دون خطأ عند تطبيقهما على انسان الشعوب التى لاتزال تعيش على الفطرة أو على الانسان الذى يتصرف باندفاع ، أو الذى تحركه الغريزة أكثر مما يحركه العقل ، أو الذى يكون فى مرحلة تطورية تماثل مرحلة الخادرة (الحشرة فى الدور الذى يعقب اليرقانة) ·

وعلى أية حال فقد كان على أن أقوم بأعمال كثيرة قبل مغادرتى الاسكندرية ، فأرض الفراعنة تصبح الآن متحضرة ، وهذا مما يؤسف له فلا شىء يمكن أن يجلب القلق سوى وضعها الوسطى هذا ، فهى عوان بين التخلف والتحضر ، فحظر حمل السلاح صارم كما هو فى ايطاليا ، وتتم مواجهة « العنف » بالعنف بما فى ذلك قطـع الرقبـة وهو اجراء قاس ، ومعظم الجرائم الشنيعة ـ مثلهـا فى ذلك مثـل الاعتراضـات السياسية البسيطة ، والتى كانت ـ الجرائم والاعتراضات ـ تؤدى أيام المماليك الى البكوية أو وتر القوس ، أصبحت الآن تواجه بعقاب أكبر أضعافا مضاعفة بالترحيل الى فايزوغلو Fayzoghlu · واذا أمرت بضرب فلاحك بالسياط تجمع أصدقاؤه بالمئات مهددين عند بابك ، وعندما تشتم صاحب القارب الذى استأجرته يشكوك لقنصل بلادك ، والمرشدون يؤثرون فيك بما يقولونه بشكل فج عن الأمانة ، وأوامر الحكومة تمنعك من استخدام لغة السباب مع أهل البلاد بشكل عام ، والصبية الأشقياء مطلعون على حق الانسان فى أن يبقى بعيدا عن الفلكة · ومع هذا فلا زالت الخميرة القديمة كامنة فى اللاشعور Still the old leaven remains behind . وهنا ـ كما فى كل مكان من « أرض الصـبـاع » لا تسـتطيع أن تحصـل على حقك دون استعمال العنف the Voie de fait · ونظام جوازات السفر

---

(١) السخرية واضحة · (المترجم) ·

(٢) الربط بين شكل الدماغ أو الملامح والتكوين الجسمى من ناحية والصفات النفسية والخلقية من ناحية أخرى ، من النظريات التى شاعت فى القرن ١٩ ، ولم تعد هذه النظريات علمية تماما الآن · (المترجم) ·

الذى ينقرض الآن فى أوروبا ــ يبعث من جــديد فى مصر ويتم تطبيقــه بحماس زائد · ولازلنا لا نملك شيئا سوى النواح على مساوىء هذا النظام فنحن ، وأعنى بقــولى نحن : الشرقيين الحقيقيين والغــرباء حتى الذين اشتعلت لحاهم شيبا ــ لا ندرى شيئا البتة عما لا بد أن يعانى منه أهــل البلاد ذوو الحظ العاثر ، لذا فاننى أجد اغراء يحفزنى على اضافة موجز عن مغامراتى بحثا عن التذكرة أو جواز السفر فى الاسكندرية · ورغــم الجهل الذى كلفنى كثيرا الا أن « وزن » الصديق لارنج larng مع السلطات المحلية قد حل لى بعض المشاكل ، فقد أهملت أن أحصل فى انجلترا على جواز سفر ، ولم يكن من اليسير تعويض ذلك رغم كل محاولات التقمص من لبس الملابس القذرة جدا وانفاق مصاريف كثيرة والحديث بانجليزية مضعضعة (غير فصيحة) ، وقد حصلت من القنصل البريطانى فى الاسكندرية على شهادة تفيد اننى من الرعية الهندية البريطانية ، وأن اسمى عبد الله ، وأننى طبيب أبلغ من العمر ثلاثين عاما ، دون صفــات مميزة فى العيون والأنف والوجنتين ــ أو على الأقل لم يدون شىء فى الخانات الخاصة بالصفات المميزة · وقد دفعت دولارا مقابل هذه الشهادة وهنا دعنى أسجل سخطى ، فبريطانيا العظمى سـيدة البحــار وحاكمــة سدس الجنس البشرى · يتحتم أن تحصل خمسة شلنات من كل من يريد الاحتماء تحت جناحها ، فأنا لا أستطيع الحديث باسم حضارتنا الرومانية الحديثة دون أن أضع يدى فى جيبى ، يالحقــارة مهابتنــا ! ويالصــغار عظمتنا !

وجواز سفرى لا يجيز لى السفر دون توقيع الضابط المسئول كما قال لى القنصل البريطانى · وفى اليوم التالى ذهبت الى الضابط الذى أحالنى الى مدير (محافظ) الاسكندرية ، وعلى بابه تشرفت بالانتظار ثلاث ساعات على الأقل حتى تفضل كاتب أكثر رحمة باخبارى أن الجهة التى يتعين على مراجعتها هى ديوان الخارجية وهكذا ضاع اليوم التالى عبثا · وفى صباح اليوم الثالث بدأت ــ كما وجهونى ــ بالذهاب الى القصر فى رأس الطين (رأس التين) · انه مبنى ضخم كقوقعة غير مصقولة على شكل متوازى أضلاع يضم كل المكاتب (الأقسام والادارات) فى فوضى هائلة ونظرت الى جدران الباحة الوسطى المطلية بالطلاء الأبيض ، لقد كان ثمة أشجار قليلة عارية لفحتها الريح ، وتبدو وكأنها تكافح لتبقى على قيــد الحياة فى هذا الجو المترب دائما والذى يشع نارا بفعل الشمس الحارقة ·

لقد كان « القواس » (٣) وهو ضابط شرطة هو اول شخص تعاملت معه ، وكان ينعم بالبرودة فى الظل ، وكان فى حالة « انسجام » تام · « وكيفه » الآسيوى على ما يرام · ولما تقدمت اليه بالشهادة القنصلية التى احملها وعرضت بايجاز طبيعة عملى وشرعت فى السؤال عن الطريق الصحيح الذى يجب أن أسلكه للحصول على التاشيرة — ويبدو انهم فى الإسكندرية لا يحترمون الدراويش كثيرا كما ظهر — حتى زار « الرجل المسئول » قائلا : « ما أدرى » دون ان يحرك شيئا الا القدر اليسير من لسانه بما يكفى لاخراج الصوت ·

والآن فان هناك ثلاث طرق للتعامل مع الموظفين الآسيويين وهى الرشوة ، أو التذمر (التهديد) او بازعاجهم والمثابرة مثابرة لحوحة بمداومة حضورك مصحوبا بمعارفك · وهذا الأسلوب الأخير يبرع فيه الفقراء · وقد اعتزمت لأسباب أخرى أن أكون صبورا ، فرحت اكرر استفسارى بالكلمات نفسها غالبا فكان الجواب الذى كنت أحصل عليه هو « رح » أو « روح أى اذهب » ·· لكن المسئول الذى وجهت اليه السؤال فى هذه المرة ذهب بعيدا ففتح عينيه عن آخرهما ناظرا بحدة ، ولأننى ظللت واقفا اقلب الورقة فى يدى ناظرا اليه بذلة والحاح فقد أتانى الجواب بصوت عال « رح يا كلب » « روح يا كلب أى اذهب » ، فتلاشى الكلام القليل الذى كنت قد أعددته عن الاخوة فى الاسلام ، وواجبنا نحو مساعدة اخواننا فى الدين ، فانسحبت عندئذ مبتعدا ببطء وغضب مخافة أن أتعرض لما يمكن أن يحدث بعد ذلك وهو الضرب بالكرباج ، فاللحم الانجليزى والدم الانجليزى لم يألفا ذلك ·

لقد جربت اثنتى عشرة محاولة أخرى مشوشة ، جربت مع رجال الشرطة وسائقى الخيول والكتبة والصبية الأشقياء والأشخاص التافهين ، بلا جدوى · وأخيرا تحليت بالصبر وقدمت لأحد العساكر حفنات من دخان « تمباك » ووعدته بخمسة مليمات « نصف قرش او تعريفة » اذا أنهى المعاملة « الأوراق » الخاصة بى ·

وكان الرجل مشوقا للتمباك ونصف القرش ، فأخذ بيدى واستمهلنى برهة وقادنى من مكان الى مكان وصعد معى السلم حتى أوقفنى فى حضرة عباس أفندى نائب المدير ·

---

(٣) ظل هذا المصطلح مستعملا لفترة طويلة بعد ذلك · يقول احمد لطفى السيد فى « قصة حياتى » نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب · سلسلة المواجهة « وقد وقف اثنان من القواسة يحملان الكرباج والفلقة لضرب العمد الذين يتأخر اهالى قراهم فى دفع الايجار ··· » · (المترجم) ·

لقد كان عباس أفندى تركيا صغير السن ، له وجه كالقشدة ولحية سوداء ، وكان ملتفا ومتكورا فى جلسته وفقا للجلسة التقليدية للاتراك ، وكان قابعا فوق ديوان « كنبة » مغطى بقماش الكاليكو — فى آخر غرفة عارية من الأثاث ذات نوافذ واسعة · ودون أن يتنازل حتى بالايماء برأسه المعلق فوق كتفيه بفتور متعجرف وادعاء للعظمة — فلم يرد على سلامى ودعائى له ، ورمقنى بعينين ذابلتين وقذف فى وجهى بكلمات واهنة قائلا : « مين انت » أى « من أنت » وعندما سمع أننى درويش وطبيب زفر شخيرا راشحا بازدراء ، وأردف متعطفا أن اذهب « تحت » — لابد أن يكون هذ التركى الضئيل عثمانيا ·

وهذه الكلمة « تحت » غير كافية من الناحية الطبوغرافية لغريب مثلى ، وعلى أية حال فقد اكتشف أخيرا العسكرى المصاحب لى أن الغرفة الكائنة فى مصلحة الجمارك تتشرف بحمل اسم (وزارة الخارجية) (٤) ، وعلى هذا فقد ذهبت الى حيث أشاروا وبعد أن جلست « زوجا » من الساعات على الأقل عند باب مغلق فى شمس الظهيرة أخبرونى بفظاظة جعلتنى أظن أننى ارتكبت اثما أن الضابط المسئول عن القسم كان ينعم بالراحة منذ الصباح وبالتالى فلا عمل فى هذا اليوم ، ووصل الرد الغاضب لأعداد كبيرة من الأناضوليين والقرميين (من القرم) وأتراك الروميللى (البلقان) الذين لا يعرفون الاستسلام ، وكانوا أقل من الحجم العادى لأقرانهم ، وسيقانهم عارية وأكتافهم عريضة وأقدامهم مسحاء وقبضاتهم قرنية ، وحواجبهم سوداء ، وكانوا جبليين يدل مظهرهم على الأمانة ، وكانوا يتسكعون حاملين معهم بنادقهم الطويلة ويطغاناتهم (سيوفهم المعقوفة) مثبتة فى أحزمتهم العريضة ، وأغطية رؤوسهم تتكون من الطرابيش الضخام ، وقد لفوا حولها شيلان ، لتكون عمائم متناسبة ، ويحمل الواحد منهم رداءين أو ثلاثة من القماش الفاخر فوق كتفه رغم الحرارة الشديدة فى هذا الفصل · وقد كانوا قد انتظروا مثلى عدة ساعات لكنهم لم يكونوا صبورين مثلى ازاء هذه الأحوال المخيبة للآمال فقالوا للموظف الغاضب ذى الحس المتبلد انه ورئيسه لا قيمة لهما ، انهما «زوج» من التافهين · وكانت الشتائم واللعنات التى يقعقعون بها والمنبعثة من حناجرهم الوعرة ، وهم منفرجو الساقين أمام الباب — كأنها هدير الوحوش ودمدمتها ، وهكذا ضاع يوم آخر بطريقة شرقية · وفى اليوم التالى — على أية حال — حصلت على الاذن — باعتبارى الدكتور عبد الله — بزيارة ما أرغب فى زيارته من أماكن مصر وأن احتفظ بخنجرى ومسدساتى ·

---

(٤) مصطلح العصر : ديوان الخارجية · (المترجم) ·

والآن يتعين على أن أشرح ما دفعنى لتكبد هذه الصعاب الجمة للحصول على جواز السفر · فمن الطبيعى أن يتساءل القارىء فى بلادى لم لم تسافر باسمك الانجليزى ؟!

يرجع ذلك للسبب التالى · انه فى البلاد غير المتحضرة عموما ، يتعين عليك اما أن تنهج النهج الذى اتبعه بروس Bruce محتفظا بالكبرياء الرجولى ، وتنفذ ما تريد من منطلق القوة (وانت ذو يد عليا) أو أن تشق طريقك متمعجا كالدودة بحذر وخنوع ، وهذا يعنى فى الحقيقة أن تصبح حيوانا تافها خسيسا كأشد ما تكون التفاهة والخسة ، وأن تسلم نفسك لتكون عرضة للاهمال والاهانة · لكن لكى تمر عبر الأراضى المقدسة فلابد لك اما أن تكون قد ولدت مسلما أو تسلم بالفعل ، وفى الحالة الأولى فان لك أن تحط من قدر نفسك كما تشاء · أما فى الحالة الثانية فالطريق مهيأة لك · لكن روحى لم يكن فى مقدورها أن تستسيغ أن أكون واحدا من البرم أو « البرما Burma » (٥) وهو الاسم الذى يطلق على المتحول للاسلام ، فانا بذلك ساكون موضع شك من كثيرين ، بل وموضعا للاحتقار اذ سيختبرنى كثيرون بطريقة السؤال والجواب ، ويتجنبنى آخرون وسيتطوع بعضهم بتلقينى الدين أو تعليمى ، واكثر من هذا فان ذلك قد يشكل عائقا يعوق تحقيق أهدافى فى الرحلة والتجول ، فالمتحول للاسلام يراقب دائما بعيون متسائلة ، والناس لا يرحبون بتقديم معلومات لمسلم حديث الاسلام خاصة اذا كان أوروبيا ، فهم يشكون أن تحوله للاسلام تم تظاهرا أو تحت ضغط فينظرون اليه كجاسوس ولا يدعونه يعرف عن حياتهم الا اقل قدر ممكن · ولأننى بعون من الله كنت قد عقدت العزم على السفر لشبه الجزيرة العربية ، فقد كنت راغبا فى اتمام هذه الرحلة التى طال انتظارها على خير وجه بدلا من الاكتفاء بنجاح جزئى أو مشكوك فيه ، لذلك لم يكن لدى خيار الا أن أظهر كمسلم بالمولد فهذا يعطينى وضعية محترمة ، وهذا هو السبب فى تكبدى المتاعب للحصول على التذكرة Tazkirah (جواز السفر ، باعتبارى عبد الله) ·

وكان على أن أتزود بضروريات معينة لازمة للطريق · وكانت هذه الضروريات متعددة · حقيبة مغطاة بقماش فضى تحوى كيسا به مسواك وقطعة صابون ومشطا خشبيا ـ وليس من العظام أو ظهور السلاحف

---

(٥) لازال هذا المصطلح مستخدما فى الفكر الشعبى لوصف الشخص «غير المستقيم» سواء كان ماكرا أو لئيما أو اكثر من ذلك · وبيرتون يوضح لنا هنا أصلها التاريخى واستخدامها الأول « الشخص الذى تحول للاسلام كذبا ورياء » ـ (المترجم) ·

فهما ممنوعان من الناحية الدينية كما يقـــال (٦) ٠ وكانت الملابس التى التى اصطحبتها معى بسيطة بساطة الحاجيات الآنف ذكرها فلم تكن تزيد عن بديل أو بديلين (غيار أو غيارين) ٠ انه لخطأ جسيم الا تحمل معك ملابس كافية ، والذين يسافرون كشرقيين يجب أن يكون معهم دائما حلة (ثوبا) فاخرة واحدة على الأقل لارتدائها فى المناسبات المهمة ، ففى بلاد الشرق ينظرون للشخص الذى يرتدى ملابس سيئة على انه مسكين (عالة على غيره) اذا لم يكن ينتمى الى جماعة تعطيه الحق فى ان يرتدى مثـل هذه الملابس ، فينظرون اليه باعتباره وغدا ٠ والشىء الوحيد الضرورى من أدوات الشراب والطعام فى صندوق المسافر هو الزمزمية وهى قربة صغيرة من جلد الماعز وهى تنضح على محتوياتها من ماء وغيره فتعطيها لون صدأ الحديد خاصة ان كانت جديدة ٠ ولا ضرر من ذلك على الصحة ، رغم انه يعطى مذاقا يستساغ بالكاد بسبب طعم الجيلاتين المدبوغ ٠ لقد كانت الزمزمية شيئا ضروريا لأ تمكن من الشرب دون قدح يمكن ان يكون قد شرب منه للتو خنزير شره ٠ وبالنسبة للوازم النوم وغيرها من الأثاث فقد كان لدى بساط عجمى خشن يصلح للاضطجاع واستخدامه كمقعد ومنضدة وسجادة صلاة ، ووسادة مغطاة بقماش قطنى وبطانية تغطينى اذا اشتد البرد وملاءة تقوم مقام الخيمة وستارة تبعد عنى البعوض فى الليالى الحارة والمظلة القطنية الضخمة ذات اللون الأصفر غير الداكن والمصنوعة فى بلاد الشرق وحبذا لو كانت مكسوة بالقطيفة تعد من الأشياء الأخرى الضرورية ، فليس الظل متوفرا دائما ٠ وكان لدى ايضا علبـة لأدوات الحياكة ، وهى من الأشياء الضرورية وكانت قد أهدتنى اياها قريبة لى رقيقة هى الآنسة اليزابيث ستسد ، وكانت عبارة عن لفة من نســـيج غليظ متباعد (كنفا) محكم وزخرفت بالابر والخيوط واستخدم فى عملها شمع الاســـكافيين والأزرار وما شاكل ذلك ٠ ان هذه الأشياء من أكثـر الأشياء فائدة فى بلاد قد لا يوجد بهـا حائكون ، بالاضـافة الى أن رتق الشخص لمعطفه وخصفه لنعله ، يعطى انطبـاعا لمن يـرونه انـه انسـان متواضع ، بالاضافة للخنجر والمحبرة النحاسية وحافظة القلم المغروسة فى الحزام ، والمسبحة الضخمة جدا والتى يمكن عند الضرورة استخدامها كسلاح هجومى ٠ وبذلك تكون عدتى قد اكتملت ٠ ويجب الا أغفل الطريقة المفضلة لحمل النقود ٠

ففى هذه البلاد يجب الا تعول على الصندوق أو الحقيبة ، فالكيس القطنى الشائع والذى يحفظ فى جيب الصدر كان يحوى عملات فضـــية وأخرى صغيرة (لأن مصر الآن مليئة بالنشالين) أما ذهبى الذى كنت قد

---

(٦) هذا طبعا غير محرم شرعا ـ (المترجم) ٠

حملت منه خمسا وعشرين جنيها والأوراق فقد أودعتهما فى حزام جلدى جيد مصنوع فى المغرب ، وقد صمم هذا الحزام ليلف حول الخصر تحت الملابس لحفظ الأشياء الثمينة واخفائها • وفى القرن الماضى كانت هناك طريقة اكثر تحضرا من طريقتنا اذ قام روديريك راندوم Roderic Random ورفاقه بالحياكة فوق نقودهم بين بطانة الثوب وحزام السروال القصير ولم يتركوا فى متناول أيديهم سوى بعض النقود الفضية (الفكة) لشراء الضروريات أثناء الطريق ، والعيب الواضح للحزام الذى وضعت فيه ذهبى وأوراقى أنه ثقيل خاصة بعد وضع النقود الذهبية فيه ويسبب حكة وقلقا فى الليل (عند النوم) • وأكثر من هذا فقلما يكون وسيلة مأمونة ففى البلاد المخطرة يتخذ المسافرون الحذرون احتياطات أنجع (٧) •

وضم الخرجان Khurjin (مثنى خرج) المعروفان لأهل البلاد، حقائب ملابسى ، ولففت وسادتى ، واشتريت صندوقا ذا لون أخضر فاتح مزين بورود صفراء وحمراء ، لأضع فيه أدويتى وذلك لحمايتها أثناء سقوطها من فوق الجمل مرتين يوميا •

وكانت الخطوة التالية أن أعرف ميعاد اقلاع الباخرة النيلية الى القاهرة فلجأت الى مكتب السفريات فلم يكن هناك اعلان عن أية سفينة وأخبرونى أن أحضر للسؤال كل مساء حتى اذا ما أتيحت سفينة ركبتها ، وأخيرا وقع الحادث السعيد ، فالاقلاع الذى يحدث مرة كل أسبوع ، سيحدث فى اليوم التالى • والشىء بالشىء يذكر فان هذا الاقلاع الذى من المفترض أنه يحدث كل أسبوع لا يحدث فى الواقع الا كل أسبوعين أو نحوهما • وقد هرعت الى المكتب ولم أصله الا بعد أن كان الظهر قد ولى ، فوجدت فيه رجلا ضئيلا داكنا ، وقد ارتدى ثيابا واتخذ هيئة تجعله يشبه كلب الصيد تماما ، وكان يجلس مع رفاقه التافهين على المنضدة ــ يشرب، وقد وضع السيجار فى فمه ورفض ــ بعد أن امتنع لفترة عن الرد على تماما ــ أن يسمح لى بالمرور الى السفينة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر • فسألته عن ميعاد اقلاع السفينة فأحالنى الى اللافتة لأننى كنت أحدثه بايطالية مهشمة ، فتظاهرت بعدم قدرتى على القراءة والكتابة ، فصاح قائلا بالايطالية : فى التاسعة •• فى التاسعة ! Alle nove ! Alle nove ! ولما ظللت مظهرا عدم تأكدى جعلته يترك مقعده ليقرأ اللافتة بنفسه ، فلما رفع رأسه اليها صب اللعنات وقرأ : فى الثامنة • ان المسافر الشرقى البائس اذا ما اعتمد على ما يقال له فسوف يحضر متأخرا عن الميعاد ساعة بالتمام •

---

(٧) وضع الرحالة بوركهارت نقوده داخل تعويذة (حجاب) وخاط عليها • انظر: رحلات فى شبه جزيرة العرب • بيروت ، دار النفائس (ترجمة د• عبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد العزيز الهلابى) ــ (المترجم) •

وهكذا انحدرنا الى أسلوب الهنود الشرقيين القديم « الجيـــد » فى أداء الاعمال فالهنـــدى البريطانى يأمر كاتبه الاول بتنفيذ بعض المهـام ، فيجد هذا الكاتب (السنيور) أن لديه بعض « الأعمـــال وأنه «مشغول» فيرسل آخر تحت ادارته ، فيجد هذا الأخير أن الجو قائظ ، فيرسل بدلا عنه الساعى (البيون Peon) فيقوم الساعى بتكليف البواب بعد تزويده برسالة شفهية ، فيجلس البواب بهدوء فى مكانه واثقا من أن القدر سيهيىء له مخرجا من هذه الورطة ولن يتحرك بوصة واحدة من مكانه حتى ولـو سقطت الكرة الأرضية • (حتى لو هدمت الدنيا) •

ان القارىء ــ كما آمل ــ سيعذرنى لهذا الوصف المســهب ، اذ أن هدفى أن يعرف كيف يتم انجاز الأعمـــال فى هذه المنـــاطق الحارة • كل الأعمال • واذا لم أكن أنا الدرويش عبد الله ، وانما تاجر ثرى من أهـل البلاد ، فان الأمور ــ بالنسبة للسرعة والدقة فى انجاز المعاملات ــ ستسير على النحو نفسه الذى سبق ووصفته • فكم سمعت من شكاو كثيرة من المعاملة التى واجهت مثلها بمناطق مختلفة فى بلاد الشرق ! وليس من سبيل للتحقق من هذه الشكاوى الا بخوض التجـــربة الأليمة • وفى المستقبل ، سوف لا أرى أبدا شخصا مهما قل شأنه جاثما فوق الأرض ليضيع هبـاء ست ساعات تحت الشمس الحارقة ينتظر فى صبر حضور مسئول أو انجاز معاملة ــ دون أن أتذكر تذكرا عامرا بالتفاصيل موقفى عند مبنى جمـــارك الاسكندرية •

وأخيرا ففى حوالى نهاية شهر مايو سنة ١٨٥٣ كان كل شىء جاهزا• وغادرت غرفتى وأنا أشعر بالأسى بين زهور الآس البيضاء وزهور الدفلى الوردية ذات الرائحةاللوزية • وقبلت بتباه متواضع يـد مضيفى الطيب بحضور خدمه ، وقد كان مضيفى قد اعتراه قلق حزين منذ عهد قريب لأنه بث فى روعى المشـــاعر الشرقيـــة الحقيقيـــة لمن يضرب بالفلكة • وودعت مرضاى الذين كان عددهم قد بلغ حوالى الخمســين فصافحونى بامتنـان باعتبارى طبيبهم •• وباعتبارى أخا لهم فى الدين ، وركبت عربة كالفخ أو الشرك تبدو عوانا بين عربة اليد (العربة التى يجرها الباثعون الجائلون) والكلبية (العربة التى يجرها حصان أو كلب) ، وكان يجرها بغل كثير الرفس ، عنيد ، عضاض ، وبدأت رحلتى فى الباخـرة النيلية باصـــابتى بربو خفيف •

الفصـــل الثـــالث

السفينة النيلية التجارية

« اصابتي بربو خفيف »

وصف المناظر على جانبي النيل ـ الدرويش لا ياكل اللحم ـ وصف شرطيين هنديين ـ مهمة لشراء الخيول لملك سردينيا ـ عمال الطلاء ـ خدايخش ـ عزلة الاوربي ـ راى الهنود فى الانجليز ـ طبيعة كرم الشرقيين ـ التحامل على الهنود ـ الافغـان ٠

فى أيام بيتس Pitts (١) كانت لنـا عـلاقات دائمـة مع المسـافرين المصريين الـذين كـانوا يترددون على مينـاء رشـيد على نهـر النيـل ٠ والمتجولون (المسافرون) فى أيام بروس (٢) Brucean age كانوا ميالين لتسجيل انطباعاتهم أثناء رحلاتهم عن الأهالى بين الاسكندرية والقاهرة وبعد ذلك بقليل وجدنا كل شخص (رجلا كان أو امرأة) يكتب القصائد الشعرية عن « دهبيته » أو سفينته فى القناة (المقصود ترعة المحمودية) ٠ وبعد ذلك حلت السفينة البخارية محل « الدهبية » ، وبعد الباخرة ، سيأتى دور القطار الذى قد يخيب أمل السائح المؤلف ، ولكنه سيكون مبهجا للرجال ذوى الحس الذين يرغبون فى قطع مسافات طويلة بأقـل قدر من الازعاج لأنفسهم وللآخرين ٠ وسـوف تكون ترعـة المحمـودية ـ اقبح الترع وأكثرها ازعاجا ـ مخصصة للسفن المحملة بالقطن والقمح، فتتجاهلها المذكرات ، ولا تكتب كعنوان فصل بتاتا ٠

لقد رأيت هذه الترعة فى أسوأ حالاتها عندما كان الماء فيها منخفضا ولم أرها مرة وهى ممتلئة ٠ لقد وصلنا للقاهرة بعد ثلاثة أيام بلياليها ،

(١) رحالة انجليزى زار مصر والحجاز فى القرن السابع عشر ٠ ذكر انه كان فى مصر على أيامه (١٦٧٨ـ١٦٩٣) خمسة آلاف أو ستة الاف مسجد ، وقد صحح جوزيف بتز كثيرا من معلومات من سبقوه ٠ (تعليق بيرتون ، ص ٩٦) ٠ (المترجم) ٠

(٢) رحالة اسكتلندى وصل الاسكندرية ١٧٩٨ ومنها للقاهرة فقنا فالقصير فجدة فالحبشة (١٧٧٠) ٠ شوقى الجمل : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، القاهرة ، الانجلو ، ١٩٨٠ ، ص ٨٤ ـ (المترجم) ٠

كانت مضجرة ومملة ، وكان المفروض أن نصلها فى ثلاثين ساعة ، وكنا قد رسونا بانتظام مؤلم أربع مرات أو خمس بين شروق الشمس وغروبها قبل وصولنا · أما المشهد على الشاطئين فان الرسامين والكتاب قد جعلوك لا تهتم بالنظر اليه فمن عمود يمباى حتى Maison Carré, Kariom ومصانع الفخار بها ، وبركة طيور المليل (٣) وبسطرة Bastarah والممرات المحفوفة بالأشجار ، بل وحتى عطفة Atfah ، كل ذلك معروف تماما لنا ، وكان موجودا لسنوات عديدة قبل ان يراه الرحالة فعلا · والنيل المبارك نفسه كان منخفضا فى هذا الفصل · انك لا ترى شيئا سوى المياه المليئة بالطين والشواطىء المتربة ، والضباب الرملى والسماء ذات اللون الشبيه بالحليب والشمس المحرقة ، وأنت لا تلقى بالا سوى للنسيم الذى يهب حارا كلفحات النار من فرن اعداد الفخار · ويمكنك أن تميز فقط من خلال حجاب الضباب المترب قرية شبراخيت Shibr-Katt من قرية كفر الزيات (٤) ، وأن تسافر بعيدا جدا من مدينة وردان Wardan لتتسلى بسخط رجالها عندما يقولون « هيكل ، يا ابن هيكل » (٥) وتكاد ترتطم سفينتك عند البراج Barrage (٦) ، وأنت بالتأكيد تصفق بشدة عند رؤية فتحاته القليلة الضيقة ذات الطراز القوطى ، وهرما خوفو وخفرع يشمخان برأسيهما الجليلين فوق حافة الصحراء ، وهما الملمحان الوحيدان اللذان قد رسما بعناية لذا فانت تستمر بمشاعر رضى حقيقية حتى تحاذى بولاق ــ الضاحية القديمة المتدهورة ·

---

(٣) البركة Al-Birkah ، مجموعة قرى بهذا الاسم مشهورة بفرحها ذى الطابع المصرى (كذا !) وهى أثر يعود للعصور الطيبة الاولى ــ بلا شك ــ عندما كان معظم المتدينين يجدون متعة فى الاحتفال بذكرى ايزيس وأوزوريس · (ملخص تعليق بيرتون) ·

ولا شك أن اشارات بيرتون هذه تحتاج الى تحقيق وتدقيق من قبل المتخصصين ــ (المترجم) ·

(٤) شبراخيت كما هو معروف من مدن (قرى فى ذلك الوقت) البحيرة ، وكفر الزيات من مدن أو قرى مديرية الغربية · والمقصود أن بيرتون لا يميز المعالم على البر الا بالكاد ــ (المترجم) ·

(٥) اسم شخص وصفه بيرتون بالظرف كان يداعب بعض أهل وردان (عن بيرتون) ·

(٦) جسر أو كبرى وضع تخطيطه الاول فى أيام الحملة الفرنسية على مصر ·

وبالنسبة لى فلم يكن المنظر مثيرا ، فقد بدا كمشـــاهد السند التى الفتها ــ نفس الصباح الضبابى ، ونفس وهج الظهيرة ، والرياح الساخنة والغروب الحار وحرارة المساء ، ونفس أعمدة التراب وشياطين الرمال تعوى حالجان فوق السهل ، ونفس المياه المعكرة والقنوات المائية الضحلة التى تحفها شواطىء رملية ، والجزر ذوات الشكل اللوزى ، ذات المنزلقات الترابية المنهارة المتداعية فوق نوع من الجروف نحرتها المجارى المائيـة بأسنان شرسة ، وعلى الشاطئين أرض ملحية تتلألأ ويلمع بريقها كالنـدى المتجمد فوق سطح بارد ألقت الشمس بأشعتها عليه ، وتناثرت هنا وهنـاك قرى شيدت بالطين ، وأكواخ متفرقة وأبراج حمام أو ابراج زينة من ذلك النوع الذى يشيد فى أحد أركان البيت ويختبىء صبية داكنو اللون خلفه ليقذفوا الأحجار على الطيور التى تضىء بين جريد النخيل الأخضر وأشجار الطرفاء والسنط والذرة والتمباك وقصب السكر ، وخلف الشريط الضيق على شاطىء النهر تقبع الصحراء الصفراء المحـــرقة بتلالها المنخفضــة ومنحدراتها الرملية محاطة بما لا يحصى من أهرامات صممتها الطبيعة (٧) والقوارب بقيدوماتها (جمع قيدوم وهو مقدم السفينة) المدببة ومؤخراتها غير المعقولة وأشرعتها المثلث شـــكلها ، تشبه تماما ما فى نهـر اندوس Indus والفلاحون جلودهم داكنـــة كالشيكولاته وثيابهـــم زرقــاء ، والنسوة يحملن أطفالهن فوق ظهورهن ، والجرار فوق رءوسهن ، وينـام الرجال فى الظل أو يتبعون المحراث الذى يحتمل أن يكون أوزوريس أول من وضع يده عليه • أما الحيوانات سواء الراقية أو الوضيعة فجميعها عجفاء هزيلة : الجمال الجربة و الجواميس الملطخة بالطين والحمير البائسة وابن آوى المتسلل ، وكلاب كالثعالب •

وحتى الطيور كانت مألوفة لعينى تماما ــ طيور الأوز ، والبجــع ، الكراكى (جمع كركى) العملاقة ، والطيور المائية البرية •

لقد ركبت السفينة فى الدرجة الثالثة أو فى الممرات على ظهر السفينة، مع رعاع الرحلة الذين كانوا يبدون سخطا وغضبا • فالشمس الحـــارقة تخترق الظلة المصنوعة من قماش القنب كما يخترق الماء الساخن قماش الشاش ، أما فى الليل فالندى البارد يتساقط بقطرات سميكة لم يتبخر منها شىء كالضباب الاسكتلندى • أما الطعام فكان بغيضا ؛ وحالت عظمـــة الدرويش ووقاره بينى وبين الجلوس أمام مائدة عليهـا لحم مع (الكفرة) أو تناول الطعام الذى لوثوه بآثامهم • فقام الحاج بالانتحاء جانبا جالسا

---

(٧) المقصود : التلال وأكوام الرمال ــ (المترجم) •

القرفصاء ، وراح يدخن باستمرار لا يقطعه الا لأداء صلواته فى مواقيتها ، وليبث مسباحه الضخم تسبيحاته ، وقد شرب ماء الترعة العامرة بالطين ، من زمزميته الجلدية ولاك خبزه وثومه (٨) مرائيا بالتقشف والتقوى (٩)٠ وكان البلغم الخفيف الذى أصابنى قد تفاقم ٠ وكان الجو فاصا بذرات الأتربة بدرجة تعوق الرؤية من موقعى فوق ظهر السفينة ، ولم يكن النظام على السفينة يساعدنى على التدقيق فى أماكن معينـــة ، بالاضافة الى أن المناظر من فوق ظهر السفينة كانت مختلطة الألوان غير واضحة ٠

وكان هناك شرطيان هنديان يتجاذبان أطراف الحـــديث معا ، ومن الطبيعى ألا ينخرطا فى حديث مع الآخرين ، وكانا يحتسيان شايا من النوع الردىء ، ويدخنان الســـيجار الانجليزى ، وكان تدخين السيجار قصرا عليهما ٠ كما كانت هناك فرقة من المواسين الاكراد the Kurd Kawwas ترافق خزانة تضم أموالا ، وكان يتحلق حـــولهم جماعة من اليونانيين المزعجين ، بفكاهاتهم العملية الفظة التى تتناول أى شىء ، ومع هذا فقـــد كانوا مبعث سرور للمسلمين الوقورين الذين كانت اخراجهم (١٠) ومـــا معهم من فرش تتعرض للتلوث كل لحظة من المشروبات الرديئة (المحرمة) ، وماء الشيشى الذى مر دخان التبغ عبره ٠ ولم يكن من الجنس اللطيف على ظهر السفينة الا فتاة أسبانية جميلة ، كانت تبدو فى موضع غير موضعها ، كزهرة فى حقل شوك ٠ وجلس بعض الايطاليين الصامتين مع مترجميهـــم الذين أحدثوا جلبة ــ برصانة فوق الدكاك (١١) ، وسرعان ما اكتشـــفنا ــ من خلال ثرثرة مترجميهم ــ أنهم كانوا فى مهمة لشراء الخيول لحكومة سردينيا ٠ لقد تعرضوا لوابل من الأسئلة من تجار فرنسيين عائدين الى القاهرة ، الا أنهم (أى الايطاليين) تهربوا ، وتجنبـــوا الاجابة بحـــذق ميكافيللى ٠ وبالاضافة لهؤلاء ، كان هناك ألمانى يستقبل الصباح بشرب زجاجة من الجعة (البيرة) ويودع النهار بشرب زجاجة من الجعـــة فى المساء ، وكأنه استعار صفات الأمة الألمانية ٠ وثمة تاجر سورى وهو أغنى

---

(٨) فى الشرق ــ كما هو فى الغرب يعتقد الناس فى فوائد الثوم الصحية ، وان كان من المستحب الا يتناوله الانسان وهو ذاهب للمسجد بسبب رائحته القوية ، وينطبق هذا على البصل أيضا ٠ ويخص بيرتون الوهابيين أو السلفيين بذلك وهو قول غير صحيح ٠ فكل المسلمين يفعلون ذلك ــ (المترجم) ٠

(٩) يتحدث بيرتون هنا عن نفسه بضمير الغائب ٠ (المترجم) ٠

(١٠) جمع خرج بضم الخاء ، وعاء من شعر أو جلد ذو عدلين يحمل على ظهر الدابة ، توضع به الامتعة ، ومن الواضح أنه لم تكن هناك دواب على ظهر السفينة ــ (المترجم) ٠

(١١) جمع (دكة) مقعد مستطيل يجلس عليه اثنان أو أكثر ٠ (المترجم) ٠

أهل الاسكندرية وابغضهم • وكان في السفينة أيضا عدد قليل من الرسامين وجرفيى الطلاء ، لطلاء قصر الباشا في شبرا وتزيينه • وكان هـــؤلاء الأخيرون هم أسعد من فى رحلتنا واكثرهم بهجة • فهم أطفال حقيقيون من باريس ، فقد كانوا طوال النهار جالسين يثرثرون وكأنهم يغنون ، ثرثرة أو شدوا اختصت بهما امتهم الحية ، لا يجاريها أحد فيهما • وقـــد أطلقوا العنان لانفسهم فى ترديد الأمثال ، والحكم الغالية (الفرنسية) مثل :

لاتدرك الشيخوخة مطلقا لاعبا وهو يلعب On ne vieillit Jamais a table

والآن فانهم يلعبون الورق بغية الحب أو بلا هـــدف ، ثم يكونون (ينشئون) de ponches un pen chiques ، ثم ينشدون مغامرات طبقة (فئة) الميرابولانت Mirabolant ، ثم يغنون ، ثم يرقصون ، فينامون ، ويستيقظون ليلعبوا ، وليشربوا ، وليتحدثوا وليرقصوا ، وليغنوا مـــرة أخرى •

لقد أنشد أحـــدهم :

« Je n'ai pas Connu mon pére
Ce respectable vieillard.
Je suis ne trois ans trop tard ...

بينما يجـــاوبه آخـــر منشـــدا :

« Qu'est ce que je vois ?
Un Canard en rôbe de chambre ! »

ولأنهم كانوا من القادمين الجدد الى مصر ، فقد كانوا متحررين من التزمت الغـــربى الذى ــ سريعا ــ ما كان يصيب الأوربيين المســتشرقين (الشرقيين) Oriental Europeans ــ لذا فقد كانوا أشخاصا ظرفاء بالنسبة لى حتى عندما كانوا يرغبون فى الاندماج معى ، أو تجريعى جرعة قوية من حيويتهم ، الا أننى لم اكن محظوظا بدرجة كبيرة مع كل من كـــان على ظهر السفينة ، فقد هدد بقال كبير بقطع اصبعى لأننى قربت غليـــونى من سرواله ، الا انه عندما رآنى ألمس خنجرى بجـــدية ، سرعان ما نسى تهديده رغم أننى لم أحرك غليونى من مكانه ، وكنت قد أخذت على عاتقى الاعتناء بطرد يخص أحد أعضاء البرلمان يدرس اللغة القبطية ، وقـــد أعـــدت الطرد له على ظهر السفينة ، ومقابل هذه الخدمة اليسيرة ! لم أتلق منه الا حملقة وسؤالا فظا مؤداه : لم لم أعد له الطرد قبل ذلك • وأحد

الانجليز وجه المنقد المرير لعينى ـ لأننى لمبت مرفقه ، وقد أعلن شجيه هذا بطريقه عوان ، فلا هو تحدث بصوت مرتفع ، ولا هو افضى الى باستحاره سرا ، وانما كان كأنما يتحدث الى نفسه • وقد التمست له العذر باعتبارى درويشا متسامحا •

وكان من المقدر أن يلعب اثنـــان من رفاق الطـــريق دورا مهما فى تمثيليتى الساخرة فى القاهرة (١٢) ، فبمجرد ان بدانا الرحله حدثت احداث صغيره امتعتنا ببعض التسلية • فعلى الشاطىء ظهر رجل قصير ودنى الهيئه مقطوع الانفاس لفرط بدانته ، بذل جهودا مضنية للصعود للسفينة، مما اثار ضحكنا • فقد جرى على طول شاطىء الترعه مشتت الاهتمام بين السفينة من ناحية وخرجه الذى يحمله الصبى الحمال ، فتراه الآن يتعثر فى حفرة ، ثم ما يلبث أن يجتاز عثرات ، ثم يقف لاعنا الشمس الحـارقة التى تلهب ظهره ، حتى لقد ظننا جميعا أن أنفاسه قد انقطعت تماما • لكن لا ! فلئن يلقى حتفه افضل عنده من أن يفوته ركوب السفينة فتضيع عليـه الأجرة ، فكما قال الحكيم ، بالصبر والالحاح تجبر زوجتك على احترامك• وأخيرا تم اركابه السفينة وسرعان ما استلقى ونام • لقد كان يبدو وكأنه هندى ببشرته التى اعتراها السخام ، وشعره الأسود السبط وملامحه التى يبدو فيها كثير من الدهاء beaucoup de finesse أو كما يقال ــ وقرة من النذالة ، وابتسامة دائمـــة وعينين غدارتين ، وبحلقه الذهبى (١٣) ، وملابسه ذوات الألوان اللافتة ، وبطنه المكتنز لحما ، وساقيه السمينتين، وظهره المستدير ، وطريقته الخاصة فى العبـــوس أو الغضب والتودد أو الرضا ، وعندما استيقظ قدم نفسه باعتباره ميان خـــدابخش نامدار من مواطنى لاهور Lahore ، وقد كان يدير تجارة احد تجار الشيلان فى لندن وباريس طوال عامين مكثهما فيهما ، وبعد اداء فريضة الحج نوى أن يكفر عن الخطايا التى علقت به من جراء اقامته فى البلاد المتحضرة (يقصد لندن وباريس) فاستقر فى القاهرة •

أما صديقى الثانى الحاج والى فسأقدمه للقارىء فى فصل قــادم ، وقد أشرت اليه مرة أخرى فى رحلتى الى مدين Midian (١٤) •

---

(١٢) يقصد فى تقمصه شخصية الدرويش ــ (المترجم) •

(١٣) يعلق بيرتون على ذلك قائلا : ان الرجال المسلمين المتمسكين بدينهم لا يتزينون بالذهب لان الشريعة تنهى عن ذلك • وهو قول صحيح • (ملخص عن بيرتون) •

(١٤) انظر : The Land of Midian the, Gold Mines of Midian Revisted by ; R. F. Burton.

لقد خففت المناقشات الضافية بالفارسية والهندوستانية من الملل الذى اكتنف الرحلة ، وعندما وصلنا الى بولاق اصر خدابخش المهذب على ان اقيم فى بيته ، ولم أكن راغبا فى قبول كرم الرجل وكياسته ، لاننى كنت أكره نظراته وسحنته ، لكنه قدم حججا مقنعة لتغيير افكـــارى ، فقد قام خادمه بانزال أمتعتى فى ادارة الجمارك وبعد دقائق من وصولنا وجـدت نفسى فى منزله بالقرب من حدائق الأزبكية أرتشف كوبا من عصير التفاح اللذيذ وانا جالس فى مشربية مشيدة بشكل رشيق لتطل على حديقته ، وتهب عليها النسائم المنعشة الباردة ٠

ولأن الوكالة كانت غاصة بالحجاج فى ذلك الوقت ، فقد مكثت مع خدابخش (١٥) عشرة أيام أو اثنى عشر يوما ٠ وفى نهاية هذه المدة كدت أجن ، فقد كان مضيفى قد أصبح رجلا متحضرا يجلس على المقاعد ويأكل بالشوكة ويراعى قواعـــد الاتيكيت الأوروبى ، وكان قد تعـلم الاعجاب بالحرية ، والأفكار الليبرالية Liberal ideas ان لم يكن قد فهمها ٠ الم أكن قد هربت (تخلصت) من مثل هذه الأمور ؟ وبالاضافة لذلك ، فان لنا نحن الانجليز صفات وطنية خاصة سرعان ما يفهمها الهنود بما أوتوا من ذكاء مميز ، ويسمونها بكلمات شائنة ٠ فقد لاحظوا رغبتنا فى الجـــلوس معهم وتجاذب أطراف الحديث وتناول الشربات ، والتدخين ٠ لذلك فهـــم يسموننا « جنجلى Jangli » وتعنى الغجر أو« البراويين » أو « الرجال غير المستأنسين » (١٦) تم اصطيادنا للتو من الغابات ثم جئنا نحكم الهند ٠ من المؤكد الا شىء يلائمنا أقل من الحياة الاجتماعية الدائمة (المجتمـــع الدائم) ، فالحاجة المطلقة للعزلة عندما لا يستطيع الشخص أن ينكفىء على ذاته (يخلو لنفسه) مستمتعا بالهدوء الدائم دون أن يسأله رفيقه بعض الأسئلة الصبيانية أو أن ينظر فى كتاب دون أن يحدق الخادم من فـــوق كتفه (١٧) ٠ عندما يتحتم عليك أن تتحدث دائما وتصـــغى باستمرار من ساعة استيقاظك حتى تخمد فى منامك ويجب أن تقنع نفســـك أن تنام فى

---

(١٥) « خدا » بالفارسية تعنى « الله » ويودعك الفارسى بقوله « خدا حافيظ » أى يحفظك الله — (المترجم) ٠

(١٦) النص الانجليزى Wild men وقد ترجمناها بالغجر أو البراويين وهى كلمة عامية ينطقها المصريون بكسر الباء ويقصدون بها الاشخاص الذين لا يألفون ولا يؤلفون — وهذه جميعا هى المعانى المقصودة بكلمة جنجلى كما يقصدها الهنود — وقد سمعت منهم هذه الكلمة مرارا بهذه المعانى أثناء اقامتى فى الكويت — (المترجم) ٠

(١٧) بالنسبة للانجليز فان بيت الانسان هو قلعته ٠ أما فى الهند فان نظام الطبقات يقسم السكان الى أسرات كبيرة يعطى لكل شخص من ذات الطبقة الحق فى معرفة كل شىء عن أين طبقته (أخيه فى الطبقة) ٠٠٠ (ملخص عن بيرتون) ٠

حجـرة نوم مشتركة وأن تصغى الى غطيط رفاقك فى الغرفة وشخيرهم وغمغماتهم فى منتصف الليل ٠

وعلى أية حال فان المعنى العميق للكرم الشرقى هو ذلك الأسـلوب العائلى فى الاستقبال الذى لا يكلف مضيفك مالا ، ولا يكبده مشقة ، اننى أتحدث عن أصقاع نادرة فكرم البرابرة القدماء يتلاشى الآن تدريجيا ٠ فانت تضع قطعة طعـام زيادة على صينية طعامه ، وتضع حشية اضـافية فى غرفة النوم ، وعندما تستأذن منصرفا لابد أن تقول ما اذا كنت تود هـدية صغيرة لمجرد الذكرى مع مضيفك واذا قدمت له الهدية بطريقة واضـحة تشير الى أن ذلك تعويض له عن استضافتك ، فان ذلك قد يضايقه ، كما يضايقه أن تقدم مبالغ بسيطة للخدم ٠ فان راعيت ذلك فانك تلقى ترحـابا أينما ذهبت ٠ واذا قادتك الظروف لمثل هذا الموقف وهو ما يمكن ان يحدث لك ببساطة كطبيب ، فما عليك ــ فقط ــ الا أن تجعل من نفسك شخصا كريما بقدر ما تستطيع بطلبك فى كل الأحوال أشياء غير ممكنة ٠ فالخجل ضعف مع شعوب الشرق ٠ فمضيفك قد يستحى ان يصفك بقلة الحياء ، فقانون الضيافة يجبره أن يمدك بكل ما تحتاجه حتى لو كان سجينا (أى المضيف)

لكن من بين كل الشرقيين ، فان الهندى الشرقى هو أكثر الأصـدقاء بغضا للرجل الانجليزى كما أعتقد ، فهو كالثعلب فى قصص الحيوانات ينافق ويتذلل بطريقة مقززة فى البداية ، حتى يصبح بسهولة ــ صديقا ٠٠ ويألفك الفا كريها وبطريقة فجة مما يؤدى الى اثارة روح الأسد البريطانى، ولا شىء يبهج أكثر من أن تتاح له فرصة آمنة ينفس بها عن حقده ازاء المنتصر عليه ٠ فسيجلس فى حضور الحاكم أو الضابط صورة طبق الأصل من الخضوع المتذلل المتسم بالتملق والنفاق ، الا أنه بمجرد مغادرته غرفة الضابط أو الرئيس يتحول للنقيض فيصبح قنصـلا فى قاعة بعد أن كان عازفا فى حفلة موسيقية ، أو كما تتحول شخصية قبطان السفينة وهـو قابع فى مؤخرة السفينة حيث يكون عاديا متواضعا ، الى شخصية متألقة عندما يظهر فى ناد لتناول الغداء ٠ وسيكتشف هذا الهندى أن الانجليزى ليس شجاعا ولا نشطا ، ولا كريما ولا متحضرا ، ولا يساوى شـيئا وانه مجرد وغد تافه ، ويرجع ذلك الى أن كل مسئول من مسئوليهم (الانجليز) يتقاضى الرشوة ، وانهم يتصرفون بعدوانية بالاضافة الى أنهم فئة من الكفار ثم يشرع فى ارضـاء نفسـه باحتمـال أن يـأتى يـوم بارثولومـو Bartholomew Day فى الشرق ، ويتطلع الى يوم يقوم فيه شاب هندى

متنور ليطرد الغزام الأغبياء من أرض الهند · ثم يقدم آراءه عادية مكشوفة بأنه يجب استرداد الهند بالعنف من الشركة (١٨) وتقديمها للملكة Queen أو أن تسترد من الملكة وتقدم للفرنسيين ، واذا كان الهندى رحالة أوربيا ، فسيكون أسوأ ما يكون بالنسبة لك فهو يخجلنا He has blushed to own على أية حال فانه يشرح (يفسر) الفتح بالرشـــــوة ، ذلك ان ٥٠٠٠٠ر٥٠ انجليزى قبضوا على ١٥٠٠٠٠٠٠ر١٥٠ هندى (من مواطنيه) واستعبدوهم وأنت تعرف أن ذلك قد تم مقابل لا شيء ·

ولم يعد فى نفسه أى رهبة من الوجه الأبيض وراح يفضى بما يعتمل فى نفسه :

« الأرض ان طوقها العدو أو الصديق ،

فعـلى الانســـان ان يقـول ما يريد »

وهو يسير على المنوال نفسه فى البلاد الأخرى حيث يكون الى حـد كبير فى المكان غير المناسب له · وعقيدته فى الحرية والمساواة يطبقها عليك شخصيا وعمليا فهو لا يهب واقفا اذا دخلت الغرفة ، ولا يغادرها ، وفى البداية فانك تجد صعوبة فى حثه على الجلوس — ولا يعيرك شيشته (أو غليونه) ويدير وجهه بعيدا ان ناديته وغير ذلك من الاهانات الصغيرة التى لا يجيد أحد تنفيذها بتدرج غير محسوس سواه ·

يقــول العــرب :(١٩) :

« ان كـان فى عـود الأرز قـــوة

ففى الهنـدى رجـولة وعــزم »

أما الفرس فيطبقون هذه الحكاية الزاخرة بالمعانى · يقول الأســد لابن آوى : « يا أخى ، اننى أحتاج الى قليل من بعض شعرك الذى يتساقط منك لأداوى به نفسى ، فأين أجده ؟ » فيجيب ابن آوى : « والله لا أعرف بالضبط ، فنادرا ما أغير معطفى ·· اننى أتجول بين التلال ، والله كريم يا أخى ، فالشعر ليس من السهل نزعه ·

---

(١٨) المقصود شركة الهند الشرقية البريطانية — (المترجم) ·

(١٩) فيما أعلم : هذا ليس مثلا عربيا ولا شعرا عربيا ، ولكنها طريقة بيرتون كممثل لحضارة مستعمرة · انه يوقع بين العرب والهنود ، وبين الهنود والأفغان ، وبين عرب الجزيرة وأهل مصر — ولا يفتأ يفتش عن التناقضات — (المترجم) ·

وا أسفاه على الرجل الانجليزى التعس أو الباشا أو الجندى الخاص الذى يجب عليه أن يخدم سيدا شرقيا • فاذا كان السيد هنديا ، فذلك هــو أسوأ ما يمكن أن يكون ، فالهندى يكـــره كل الاوربيين ، كراهية ممزوجة بالفظاظة الشرقية والغدر والاستبداد • وحتى تجربة الاتحاد معهم هى تجربة يصعب تحملها • لكن يمكن استخلاص دلالات مفيـــدة من هـــذه الملاحظات ، وربما كان لدى قليلين تجربة أعظم من تجربتى ، ومع هـــذا فاننى أغامر بابداء رايى بثقة مع انه قد يكون رايــا غير شـــائع أو غير ملائم •

اننى مقتنع أن أهل الهند لا يمكنهم احترام الأوربيين الذين يختلطون بهم بتآلف أو الذين يقلدونهم فى عاداتهم وأحوالهم وازيائهم • فالسراويل المحكمة والصوت الآمر وعدم المبالاه واللغة الهندوستانية المفروضة عليهم، كل ذلك قد يؤدى بهم الى التعلم والأمانة ، الا أنهم غير شجعان فهم بالنسبة للسيد (أو الرئيس) ينحنون له كالعبيد Scythian الذين يواجهـــون السيف ويفرون من السوط • وهذه الحال ليست لدى الأفغـــال الشجعان مثلا • ودعنا نقرأ مع هويت بلوم White Plume هندى أمريكا الشمالية : « يشكل المحارب الهندى الأحمر فى عين الفتاة الهندية (من هنود أمريكا الشمالية) كل ما يتمثل فى الجندى من بنى جنسها من حيوية وبطـــولة ، فمشيته وزيه وشجاعته تضارع كل ما هو عظيم وأنيق فى الرجل الأبيض » فليس هناك الا سبب واحد لهذه الظاهرة فالهنود ما زالوا مع استثناءات قليلة شعبا جبانا ذليلا مما يجعلهم يرفعون من مقام انفسهم بالانقاص من قدر الآخرين الذين يفوقونهم فى ميزان الخلق • أما الأفغان والهنود الحمر فلكونهم جنسا يتسم بالشهامة والفـــروسية (٢٠) فهم يبالغون فى قـــوة عدوهم لأنهم بذلك يرفعون من شأن انفسهم •

---

(٢٠) ماذا يريد بيرتون من الهنود غير أن يكرهوا ويحتقروا الانجليز الذين يستعمرون بلادهم • أما مدحه للافغان فلأن انجلترا لم يرد استعمارها لتكون منطقة عازلة بين مناطق نفوذ مختلفة •• (المترجم) •

الفصــــل الرابع

الحياة في الوكالة

وصف الوكالة ــ وكالة خان الخليلى ــ وكالة الجمالية ــ بيرتون يتقمص شخصية الافغانى ــ محمد شفيع نصاب كبير ــ مساؤىء الحماية والامتيازات الاجنبية ــ ممارسة الطب ــ فكرة « الواجب » عند الشرقيين ــ وصفة طبية ــ السم ــ الرقيق ــ حال الفلاح المصرى مقارنة بحال العبيد ــ دكان العطارة ٠

تتألف الوكالة ــ وتســـمى فى مصر أيضا الخـــان أو الفندق ــ من المرافق وغرف الاسكان والمخزن ٠ والوكالة فى القاهرة ــ مثلها مثـــل الوكالة فى استانبول (القسطنطينية) ــ عبـــارة عن مبنى ضخم يحيط بصحن (حوش Hosh) رباعى الزوايا ٠ وفى طابقها الأرضى غرف كأنها كهوف لتخزين البضائع ، ودكاكين لمختلف الأغـــراض : حائكون ، واسكافيون ، وخبازون ، وبائعو تمباك ، وبائعو فواكه (فكهانية) وغيرهم٠ وتفتح كــل غــرف الوكالة على ممــر مكشـــوف أو شـــرفة مغطـــاه ، يحيط (الممر أو الشرفة) بكل الطابق الأول ، وأحيانا بالطابق الثـــانى ٠ وعلى أية حال ، فان الطابق الثانى عادة ما يكون معرضا للشمس والهواء٠ وتتكون الوحدة السكنية فى الوكالة من غرفتين أو ثلاث ، وعادة ما تكون هناك غرفة داخلية وأخرى خارجية ، وتشتمل المغرفة الخارجية على موقد للطبخ ومكان مخصص للاســـتحمام وغير ذلك من الضروريات ٠ وسلم الوكالة مرتفع وضيق وفى الغاية من القذارة ، وهـــو مظلم ليلا ، وغالبا ما تعوزه الصيانة ٠ وثمة ماعز أو حمار مربوط على منبسطات الســلم

المختلفة ، وتجد هنا وهناك جلودا طرية منشورة معدة للدبغ ، تذكر رائحتها الرحالة المتمرس برائحة المراحيض فى الفنادق الفرنسية العتيقة ٠

والغرفة الداخلية غير مؤثثة ، فحتى المشاجب التى تعـــلق عليها الملابس ، قد كسرت لاستخدام خشبها فى التدفئة ، وجدرانها عارية الا من بقع ، ومساكن عنكبوت كثيفة تشكل خيوطا تتـــدلى من عوارض السقف الخشبية السوداء ، اما الأرضية الحجرية للغرفة فعار حتى على اى سجن متحضر ، أما النوافذ ففتحات ضخمة أحكم اغلاقها بالخشب أو الحــديد، وفى مواضع نادرة ترى بقايا زجاج أو ورق ألصق على الهيكل الخارجى٠ ويشترك افقر أنواع المسافرين مع دواب التحميـــل المربوطة الى أوتاد ، والمتسولين الساخرين والعبيد فى سكنى حوش الوكالة ، حيث ينعمـــون بالشمس ، ويهرشون فوق أكـــوام بالات القطن المرتفعة ، وغيـــرها من البضـــائع ٠

ان ذلك ليس صورة مغرية للوكالة ، ومع هـــذا فهى أكثر الاماكن توفيرا لجو التسلية ، ففيها تتتابع المناظر التى قد تبهج عشاق مدرســـة الفن الهولندية ، فهى مثل باهر لتنوع المشاهد البشرية والحيوانية الغريبة مما يطلق عليه الفنانون مصطلح « المشاهد القذرة التى تستحق التصوير « the dirty picturesque »

وكانت وكالة خان الخليلى العريقة فى القاهرة الوطنية غاصة فــلم اجد فيها مكانا لى ، فاضطررت لتحمل النزول فى وكالة الجمالية وهو حى يونانى a Greek quarter يعج بالمسيحيين السكارى ، لذا فهـــو قريب الشبه بشارع أكسفورد أو حـــديقة كوفنت Covent Garden ٠ وحتى بالنســـبة لوكالة الجمـــالية ، فقد كنت مضطرا لانتظار اسبوع حتى يشغر مكان لى ٠ فأسراب الحجيج تغص بها القاهرة ، وليس من أحـــد ييممون وجوههم شطره سوى حاملى المفاتيح فى الوكالات والفنادق ، وهم قـــوم ماكرون وبدونهم لن تفتح أبواب الغرف ، ويرجع مكـــرهم لما سأذكره من أسباب كافية ٠ فعندما تدخل الوكالة فان أول ما يتحتم عليك فعله هـــو ان تدفع مبلغا بسيطا يتراوح بين شلنين وخمسة شلنات « حلاوة » المفتاح Miftah ٠ وهو مبلغ ــ بشكل عام ــ يساوى ايجار شهر ٠ وقـــد وجدت نفسى مضطرا للادعاء بانى حاج تركى لأحصل على غرفتين مريحتين، الا اننى علمت بعد ذلك انهما مشهورتان بامراض المسافرين الذين تصادفت اقامتهم فيهما ٠ وكان يتعين على أن ادفع ثمانية عشر قرشا « حـــلاوة » المفتاح ، وثمانية عشر قرشا أخرى كايجار شهر ، بالاضافة الى خمســـة

قروش للفراش الذى يكنس المكان ويمسحه · وبهذه الطريقة وصل مقدار ما كنت أدفعه طوال شهر ـ أربعة بنسات يوميا ·

لكننى كنت محظوظا بما فيه الكفاية لاختيارى وكالة الجمالية لأننى وجدت صديقا هناك · فقد رآنى رفيق سفرى على الباخرة ـ جالسا بمفردى ولأنه لم يكن يشعر بارتياح ، فقد جلس الى جوارى وفتح على وابلا حارا من الاستفسارات فى مختلف المجالات · لقد كان فى الخامسة والأربعين ، متوسط الحجم ، له رأس كبير مستدير حليق تماما ، ورقبة ثور ، وأطراف ثابتة كأطراف السكسون ، ولحية دقيقة حمراء ، وملامح طيبة تشع رغبة فى عمل الخير · ونكاته الجافة المغربية تشع كسيل من السخرية الا أنها هادئة للغاية ووقورة وجذابة · ان له طريقة ، قلما تستطيع التنبؤ بها قبل أن توثق علاقتك به ·

لقد قال صديقى اكثر من مرة بفيض من الامتنان الظاهر بعد أن اكتشف مهنتى : « شكرا لله فان معنا طبيب » ، وقد تأثرت بهتافه التقى « شكرا لله » فقد أصبحت ملاحظته حقيقة واقعة بعد انقضاء بضعة أيام ·

وبعد أن توثقت علاقتنا صرح لى قائلا : « أنتم أيها الأطباء ماذا تفعلون ؟! · ان المرء يأتى اليكم شاكيا الرمد فى عينيه فتصفون له مسهلا ونقطة (تشريط الجلد قرب العينين) وقطرة !! فان اشتكى الحمى ! حسنا ! فالعلاج : مسهل · وكينين Quinine (كينا كينا 'Kina kina) ! وان شكا الدوسنتاريا وصفتم له مسهلا وخلاصة الأفيون ! والله اننى طبيب أفضل من أفضل طبيب منكم ·· » وأضاف وهو يضحك ضحكة عريضة : « حبذا لو أننى أعرف الدرهم والبرهم وقليلا من أسماء الأمراض باللغة العربية غير الفصيحة » · لقد نصحنى الحاج والى (١) بهذه المناسبة أن آكل خبزى بتدريس اللغات بأمانة · وقال لى : « انكم اطباء مسخرة » ووجدت ما قاله صحيحا · وبعد أن عشت انا وهذا الحاج فى مبنى واحد توثقت صداقتنا ، فخلال النهار كنا نتبادل الزيارات القصيرة باستمرار ، ونتناول غداءنا معا ، ونقضى المساء معا فى أحد المساجد أو أحد أماكن الترفيه العامة ، وقد بدأنا ـ على استحياء ـ فى تدخين الحشيش

---

(١) يقول بيرتون ان هذا الاسم اختصار لاسم أطول هو (ولى الدين) ·

المنوع (٢) ، لكن حياءنا تلاشى تدريجيا وأصبحنا أكثر وقاحة وجرأة في تدخينه • وكنا نثرثر – أثناء التدخين – عن العالم الذى رأيت جديرا منه ، وقد كان رفيقى – الشيخ والى – رحالة أيضا يعود لأصل روسى • وكان فى تجواله قد تخلى عن معظم الأحكام المسبقه التى يحتفظ بها الروس • لقد كان يهتف دائما بثبات لا يعرف التراجع : « اننى اشهد ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله • ولا شيئا آخر » •

لقد كان يرفض الاعتقاد فى الجن والسحرة • وكان – حقيقة – يعاف حكايات الأعاجيب والخرافات ، وهو فى هذا لا يمتلك ذوقا شرقيا • وعندما دخلت الوكالة نصب نفسه مرشدا لى ليحمينى – على نحو خاص – من خداع التجار والحرفيين • وكانت نصائحه هى السبب فى تركى لجبة الدراويش وسراويلهم الزرقاء الفضفاضة وقمصانهم القصيرة أو بمعنى آخر كل ما يتعلق بفارس والفرس ، فقد قال لى الحاج : « اذا أصررت أن تكون عجميا فستجد نفسك فى مشاكل ، فسينبذونك فى مصر ، وسيضربونك فى شبه الجزيرة العربية باعتبارك مخرفا زنديقا ، وستدفع مبلغا مضروبا فى ثلاثة للشيء الذى يدفع فيه سائر الحجاج ثلث ما تدفع ، واذا سقطت مريضا فقد تلقى حتفك على قارعة الطريق » وبعد مناقشات طويلة عن اختيار الأمة التى أدعى الانتساب اليها أثناء رحلتى قررت أن أكون واحدا من الباتان Pathan (٣) ولد فى الهند من أبوين أفغانيين استقرا فى الهند وتلقى تعليمه فى رانجون Rangoon وأرسله أهله للتجول والطواف حول العالم ، فأبناء هذا الجنس تعودوا ارسال أبنائهم للتعرف

---

(٢) يسميه الهنود بانج (بالباء الثقيلة) ويسميه الفرس بانج (بالباء المخففة) ويسميه الهوتنتوت (أحد الأجناس الافريقية السوداء داكها Dokha ويسميه النوبيون فاسوخ Fasukh وحتى فى سيبيريا – كما يقولون – يستخدمون بذوره للتخدير باستنشاق بخارها بعد وضعها على حجر ساخن • وقد تفوقت مصر على سائر الامم فى تعدد طرق استخدامه (ملخص عن بيرتون) ويستمر بيرتون فى التأريخ للحشيش ، فالرجل كان خشاشا ومدمنا للأفيون كما ذكر فى أكثر من مكان فى رحلته هذه – (المترجم)•

(٣) يقول بيرتون ان الباتان هو الاسم الهندى للأفغان ، وهذا غير صحيح ، ففى باكستان الحالية باتان ، وفى أفغانستان الحالية عناصر غير الباتان ، وليس كل أفغانى باتانى بالضرورة . فالباتان مجموعة عرقية فى باكستان (الهند سابقا) وأفغانستان • ويظن بيرتون أن كلمة الباتان قد تكون مشتقة من الكلمة العربية « فاتحين » أو كلمة هندية تعنى الغزاة • ويقول بيرتون ان الباتان عناصر محترمة فى شبه الجزيرة العربية ، على عكس الخرسانيين الذين قد يظن الناس أنهم فرس (شيعة) • ويقول بيرتون ان هناك قبائل أفغانية أخرى كقبيلة سليمانى التى تذكره بالمثل « سليمانى حرامى » • وهكذا لا يكف بيرتون عن التفتيش عن التناقضات – (المترجم) •

على العالم فى شبابهم الباكر • وقد كنت محصنا جيدا من خطر أن يتضح أمرى لأحد من رفاق السفر من أهل الباتان ، فلكى أتقن تقمص شـخصيتى هذه لابد من معرفة الفارسية والهندوستانية والعربية وكنت أعـرفها جميعا بقدر يكفى لتجاوز أى امتحان • وأى خطأ بسيط أقع فيه قد يرجـع الى اقامتى الطويلة فى رانجون Rangoon • لقـد كانت معرفة هـذه اللغات خطوة مهمة فاول سؤال يواجهك عند أى محـل تجارى أو وأنت راكبا جملا أو فى المسجد هو : ما اسمك ؟ أما السـؤال الثانى فهـو : من أى البلاد أنت ؟ ولا تبدو ــ عموما ــ هذه الأسئلة وقاحة أو تطفلا ، كما لا تبدو أسئلة يقصـد بها موجهها الازعـاج ، الا أنك ــ بوجه عام ــ اذا احسسبت بسوء طوية السائل فيمكنك أن تسأله بحدة : « ما اسم أمك ؟ » وهو سؤال يماثل سؤالك للانجليكانى Anglice : « فى أى كنيسـة تزوجت أمك ؟! » ثم تغطى هروبك مما قد ينتج من مشاكل بعاصـفة من الغضب • الا أن هـذا التصرف نادرا ما يكون ضروريا • لقد توشحت بوشاح الأدب وتسربلت بالطباع المرنة لطبيب هندى ولبست لبوس أفنـدى صغير وظللت مع هذا أهيىء نفسى لأكون درويشا وظللت أرتاد باسـتمرار اماكن لا يعرف فيها أحد اسمى ، الأماكن التى يتجمع فيها الدراويش ، وسـألنى الحـاج والى : « ما عمل هؤلاء الرجـال المبجلين ؟ ومـا دورهـم السيـاسى ؟ وأى احصـاءات يجمعـون ؟ وبعبـارة اخرى ما هى المعلومات التى تجمعونها ؟» سم نفسك متدينا جوالا اذا رغبت ودع الذين يسألون عن هدف رحلاتك وتجوالك يعرفوا أنك نذرت للرحمن زيارة كل الأماكن الاسلامية المقدسة • وبهذه الطريقة سوف تقنعهم أنك رجل من طبقة تحت السحاب وسوف يعاملك الناس بلطف وكياسة ــ ربما ــ اكثر مما تستحق » وأنهى صديقى ملاحظته بضحكة خشنة • وقد تأكدت حصافة هذه الملاحظة ودلالتها على تجربة واسعة لم أجد ما يجعلنى آسف عـلى الأخـذ بهـا •

وقـد اصـطحب الحـاج والى وهو تاجـر سـكندرى خدابخش Khudabakhsh الهندى الى القاهرة فى تجـارة وسرعان ما شرح لى اموره ، ولأن حالته توضح بعض الخصائص الشرقية ، فاننى اقدم قليلا من تفاصيلها بعد استئذانه •

لقد كان صديقى مدافعا فى دعوى قضائية رفعت ضده فى المحكمـة القنصلية بالقاهرة ، وكان صاحب الدعوى يدعى محمد شفيع وهـو وغـد من الدرجة الأولى • لقد عاش هذا الرجل معيشة رغدة بادارة الأعمـال فى أماكن لا يعرف فيها احد اسمه ، وقد ورط عديم الخبرة بعروض ماليـة ماكرة وبعد أن نجح فى الحصول على قرض غير محل اقامته بعد أن نقـل

معه كل ما طالت يداه . لكن فى البلاد غير المتحضرة يعتبر الخداع (النصب) مسألة شخصية فالقانون يعاقب المدينين غير القادرين بفترة سجن قصيرة ، لذلك فان المخدوعين يفضلون استرداد حقوقهم بالنبوت والسكين . ولهذا فان محمد شفيع بعد سلسلة من الهروب لفترات قصيرة، اكتشف حيلة ممتازة ، فرغم أنه كان معروفا أنه من بخارا Bokhara وكان يوقع عن نفسه بهذه الصفة وكان مظهره ينبىء عن أصله ــ الا أنه قرر أن يحمى نفسه تحت مظلة جواز سفر بريطانى . ولا يراعى موظفونا البريطانيون ــ فى بعض الأحيان ــ الدقة الكافية فى توزيع هذه الوثائق (جوازات السفر) وبهذا الاهمال يعرضون أنفسهم لسوء السمعة فى المحاكم الشرقية . وظل محمد شفيع يجد بعض الصعوبات فى تنفيذ خديعته. وقد أزعج القارىء ان رويت تفاصيل كل خداعه وأفعاله الثعلبية ، لكن يكفى أن أقول انه نجح فى أن يثبت أنه غير مدان بفضل توجيه تابعيه فى القنصلية .. وتوجه بجسارة الى جدة على ساحل شبه الجزيرة العربية مسلحا بدفاعه الجديد (جواز السفر) ودخل فى شراكة مع الحاج والى الذى وثق به لصلاته وصيامه وحجه ، ففتح معه بابا للتجارة فى العبيد بارسالهم للاسكندرية للبيع وكتب بوقاحة منقطعة النظير لشريكه أنه سيتصرف فى العبيد بشكل شخصى مخافة فقد جواز السفر البريطانى والحماية البريطانية .

وسرعان ما تسببت مغامرة غير محظوظة فى توريط هذا الرعية البريطانية الفاضل (محمد شفيع) مع فرج يوسف كبير التجار فى جدة وكان بدوره تحت حماية انجليزية . فخاف محمد شفيع من خصمه شديد البأس (كبير تجار جدة) وحزم مسروقاته ومنهوباته وغادر جدة الى مصر . وسرعان ما دخل فى نزاع مع شريكه السابق (الحاج والى) ظنا منه انه رجل هين وادعى أن له عنده ١٦٥ جنيها استرلينيا وأيد ادعاءه بوثيقة وأربعة شهود زور كانوا مستعدين للقسم بأن الحاج والى قد وقع الايصال وختمه بخاتمه واستلم النقود المشار اليها آنفا ، فقام الحاج والى بتقديم دفاتره ليبين أن حساباته صحيحة واستطاع أن يثبت أن شهود محمد شفيع فقراء معدمون ومن هنا فان شهادتهم غير شرعية كما أن كل واحد منهم قد تلقى دولارين من المدعى (محمد شفيع) ثمنا لشهادة الزور .

والآن فلأن هذه القضية كانت قد نظرتها المحكمة التركية ، فقد ثبت ــ عن طريق ضرب القدمين بعد ربطهما بالفلكة ــ أن الحاج والى كان

تاجرا محترما ، أما محمد شفيع فمحتال سيء السمعة · الا أن محمد شفيع كان من الرعايا البريطانيين مما أثر فى مجريات القضية بشكل ملحوظ وكى يسبب محمد شفيع لخصمه مزيدا من الازعاج فقد صعد القضية للقاهرة وبدأ اجراءاته هناك مطالبا باستلام جزء من المبلغ الذى يطالب به فبمجرد وصوله للقاهرة مارس بجرأة تقديم الرشاوى لكل من سيكون ذا نفع له فقد وزع الشيلان (جمع شال) والقروش ببذخ واستعان بمحام قدير ولبس لبوس التقوى فقضى شهر رمضان صائما ، وضحى بخروف لاطعام الفقراء ·

وفى هذه الأثناء فان الحاج والى وهو رجل بسيط وصادق لم يستطع أبدا أن يكون ساخنا وباردا فى الوقت نفسه (لم يستطع اتقان فن الخداع) فحثه خدابخش ــ الهندى المراوغ ــ ليذهب للقاهرة ليتابع الأمور واعدا اياه بأن يقدمه لأشخاص ذوى نفوذ كما وعده أن يستقبله فى بيته حتى يدبر لنفسه اقامة فى الوكالة · لكن محمد شفيع الذى كان شريكا لهذا الهندى المخادع (خدابخش) استطاع بالتوسل مرة وبالتهديد مرة أخرى أن يقنع خدابخش بالانفراد بلقاء الأشخاص ذوى النفوذ · عندئذ ظهر على مسرح الأحداث الحكيم عبد الله خادمكم المتواضع (٤) فالحكيم عبد الله كان قد سافر لبلاد الفرنجة وتعامل مع كثير من رجالهم ورأى كثيرا من مدنهم ، وأصبح صديقا وناصحا للحاج والى ، واكتشف الحكيم عبد الله المسارب الشيطانية فى حياة محمد شفيع · وقد خجل خدابخش من صنيعه أو بالأحرى خاف ، فجمع أصدقاءه الهنود ونبههم · ورفع الحكيم عبد الله التماسا الى السيد والين Walne قنصل بريطانيا باسم التجار الهنود وغيرهم من المقيمين فى القاهرة ــ أخبره فيه عن محمد شفيع وميلاده وشخصيته الحقيقية وعمله وأنه تاجر رقيق وقدم البراهين على كل تأكيداته ، وتوسل الى القنصل حفاظا على السمعة الطيبة أن يسحب جواز السفر البريطانى من محمد شفيع ، وختم كل الهنود بأختامهم على هذا الالتماس · وعندئذ هدد محمد شفيع بضرب الحاج والى ، ولم يكن الحاج والى صخابا وانما كان رجلا ذا ابتسامة هادئة فطلب من أصدقائه أن يبعدوه عنه ·

---

(٤) أى الدكتور عبد الله وهو بيرتون نفسه الذى يتحدث عن نفسه كثيرا بضمير الغائب ــ (المترجم) ·

وقد يفترض الانسان أن مثل هذه الوثيقة قد تثير بعض التساؤلات · لكن الحاج والى كان يتمتع بالحماية الفارسية وكانت الاتصالات بين القنصلين (البريطانى والفارسى) قبل تقديم الالتماس آنف الذكر · ان الرعايا البريطانيين الزائفين يعتبرون كالرعايا الحقيقيين ويجب حمايتهم · والقناصل كالملوك قد يخطئون وان كان يتحتم عليهم غير ذلك · وعلى أية حال فلم يلتفت احد للالتماس الهندى (الذى قدمه الحكيم عبد الله) ولم يجر استجواب عن الأمور المتعلقة بتجارة الرقيق لأنه قد اتضح ان جواز السفر الممنوح لمحمد شفيع قد صدر من القنصل العــام وبالتــالى فلا يمكن وفقا للأعراف الرسمية أن يسحبه القنصل ·

وهكذا عادت الأمور سيرتها الأولى فقد قدم محمد شفيع مبلغ ٥٠٠٠ قرش لمترجم القنصل الفارسى وقد رفضها بطبيعة الحال ، الا ان أمــور الحاج والى – على أية حال – بدأت كلها تسير فى الطريق غير الصحيح · فقد أسيئت ترجمة تقريره وأسىء فهم حساباته ومبرراته وتم تعويق القضية وضاعت فى متاهات التأجيل المريب · وعندما غادرت القاهرة كان الحاج والى قد ابتعد قرابة الشهرين عن أعماله وأسرته رغــم أن الطرفين أظهرا رغبة فى حل النزاع عن طريق التحكيم لأن الموارد المالية للمدعى (محمد شفيع) كانت تتناقص بسرعة وعندما عدت الى القاهرة من شبه الجزيرة العربية كانت الأمور لازالت على حالتها ، وعندما بدأت رحلتى للهنــد فى يناير لم تكن اجراءات القضية قد انتهت ·

هذا موجز تاريخى – لكنه شائع جدا – لحالة يجد فيها أحد رعايا الدول الشرقية نفسه يعانى ويكافح ضد النفوذ البريطانى · ومما لا شك فيه أنه من الشرف أن ندافع عن المتمتعين بحمايتنا ضد الظلم لكن ذلك لابد أن يرتكز على دعائم من الأمانة والشرف ، ان أسوأ ما فى هــــذه القضية أن الطرف المتضرر لم يلق الانصــاف فشــعار الحماة الطبيعيين للحاصلين على الحماية هو انتهاك القانون لارضاء غرور موظف انجليزى تافه (٥) فبأى وجه نستخدم الشعار الوطنى عندما يريد تركى عاثر الحظ أن يستأنف الدعوى لدى السلطات العليا ؟ كيف يصل لوزرائنا فبرلماننا ؟ فمن النادر أن يكون أصحاب الدعاوى من طبقات اجتماعية عليا أو من ذوى الثراء حيث تفرض المرتبة الاجتماعية والثروة – الاحترام ·

---

(٥) استشهد بيرتون فى هذا الصدد بهذا النص : Fiat injustitia, ruat Coelum.

وبعد أن دبرت لنفسى اقامة طويلة فى الوكالة أصبح هدفى الأول أن أتجول فى العالم (المقصود أن أتجول فى القاهرة) ففى أوروبا قد يعلن طبيبك المسافر عن فقد خاتم من الماس أهداه اليه حاكم روسى مستبد أو تشغل أخباره عمودا كاملا فى صحيفة ، وربما تقاضى أجرا لمجرد التوقيع ويمتلك أطباقا نحاسية كبيرة وعصا غطى مقبضها بالذهب ، ويركب مركبه بعجلات أربع ذات قعقعة رتيبة ويتلقى الدعوات لاكمال عمله ٠ أما هنا (فى بلاد الشرق) فليس أمام الطبيب هذا الطريق الملكى (المفروش بالورود) لاكتساب السمعة الطبية اذ يجب عليك أن تبدأ — كطبيب — بالجلوس مع البواب ذى العينين « المعمصتين » الدامعتين ، فتقطر له فيهما قطرات من نترات الفضة وأنت تهمس فى أذنه بمعلومات سارة وهى أنك تعالج الفقراء مجانا ٠ ويشفى البواب فتنتشر أقواله عنك طولا وعرضا فيزدحم بابك بالفقراء ٠ انهم يأتون اليك كما لو كنت خادمهم فاذا شفوا أداروا ظهورهم لك للأبد ٠ والأطباء الأوربيون يشكون عادة من نكران الجميل من جانب مرضاهم الشرقيين ٠ انه لأمر حقيقى انك اذا أنقذت حياة انسان فمن الطبيعى أن يسألك عن وسائل الحفاظ عليها ٠ وأكثر من هذا فليس فى لغة أى بلد من البلدان الشرقية التى عرفتها تعبيرات تفيد معنى الامتنان ، كالتعبيرات التى نعرفها فى أوروبا باستثناء الألمان الذين لديهم أفكار يصعب شرحها بالكلمات ٠ لكن يجب ألا ننكر على الشرقى مسلكه هذا دون معرفة السبب ، فهو يعتقد أن له حقا فيما يفيض عنك فهو يؤكد لك أن الله قد قسم الخبز اليومى بين الناس « قد قسم الرزق » فهو يأكل رغيفك ويعتبر ذلك حقا له ، وهو يشكر الله على نعمائه وعندما تزجى اليه خدمة فأنت لم تفعل سوى ما يتحتم عليك عمله وقد لا يقدم لك — لقاء هذا — الا مديحا بسيطا أو يدعو لك بايجاز بطول العمر ٠ وهو يعبر عن شكره بقوله : « كثر الله خيرك » واذا كان أنانيا قال : « مد الله ظلك » أى ظلك الذى يحتمى به هو وأتباعه وقد يكون هذا آخر ما تسمعه منه ٠

ان هذا لا يدعو للارتياح فهذا البرود الميتافيزيقى الذى يصب فى قالب عقلى ، يتناقض بشكل بشع مع دفء الكرم ٠ وانى أقول انه من الناحية النظرية — وليس العملية — يجب الانسان أن يقابل وده بود مثله ، لكن الشرقيين لا يطبقون فكرة الالتزام (الواجب) كما نطبقها ٠ فأى شىء أكثر ازعاجا من أنك عندما تجبر انسانا على توجيه النقد الشديد لنفسه بحصولك على شكر أسرته لك ، لتجد نفسك وقد أصبحت سيدا بعد أن كنت صديقا له ، ورجلا عظيما بعد أن كنت ندا له ؟ يجب اذن ألا تكون ودودا مجاملا اذا جعلتك هذه الاعتبارات تحول بينك وبين تقديم العون لصديق ،

واكثر من هذا فاننى أقول رأيى المتواضع بأنك ان قدمت معـروفا لشخص فعليك أن تبقى خائفا من احساسه بالامتنان ٠

وباختصار فعندما ترفعك جماهير الغوغاء الى مرتبة الشهرة فـان المرضى من الطبقات الأعلى درجة سيظهرون ببطء على مسرحك ٠

وبعد بعض الدلال عن الاتيكيت المتعلق بما اذا كنت أنت الذى ستزورهم أم أنهم هم الذين سيحضرون اليك ، ويقـــدحون عقولهم لرؤية أحـوالك وليحكموا بعيونهم على مدى الثقة فيك ، ومن ناحية أخرى فانك تبــدو متيقنا من أنهم ســياتون اليك ذات مرة عابرين نهر روبيكون Rubicon « سيعبرون النهر فجـــأة طلبا لك » وبتعبير أقل كلاسية فانهم سيبتلعون ما تقدمه لهم من دواء ٠ واذا زرت منزل أحدهم فعليك بالتركيز على خـدم المريض الذين يحضرون اليك ، ويجب أن يقدم لك حمارا ليكون تحت امرتك حتى لو أوصلك للجانب الآخر من الطريق ٠ كما يجب أن تراعى أن يتحتم على تابعك أن يكون مستعدا للاجابة عن خمسين سؤالا من أسئلة البحث والتحرى فى صالة الخدم ، كما يجب أن تنزل من فوق « بردعة » الحمـار بتؤدة غير الخبير « بالبرادع » والحمير ٠ وعندما تصل السلم ترقاه بوقار، وعند الوصول لغرفة المريض تحيى الحضور بقولك : « السلام عليـكم » فيأتيك الرد : « وعليكم السلام ورحمـــة الله وبركاته » ثم تقول مخالفـا الحقيقة : « لا خطر ، ما فيه الا العافية » فيكون الرد : « الله يعطيك العافية » فلكل اشارة أو كلمة هنا رد ٠ ثم تجلس وتعرف الحضور بنفسك بأن تنحنى وترفع يدك الى جبهتك وشفتيك فيرد كل واحد من الحضور بايماءة كايماءتك ثم يأتى دور الســؤال عن صــحتك ويســألونك عمـا تشرب وقـد تطلب شيئا غير موجود بالمنزل ، الا انك ـ اخيرا ـ تطلب طلبا خشنا هـو شيشة وفنجان من القهوة ، ثم تتجه للمريض الذى يمـد ذراعه اليـك ويسألك عن سر الألم ثم تفحص لسانه ، وتتحسس نبضه وتبدو عليما وتترك المريض يملأ الوقت بالكلام وبعد سماع قائمة طويلة بكل علله تبدأ أنت فى اكتشافها وكأنك تسير على طريق مليء بالحصباء وبذلك ينهال عليك المديح ٠ وأنت بذلك تكون قد فعلت كما يفعل العالم بفراسة الدماغ المتمرس ـ بشىء من التدريب ـ على الاستنتاج ٠ والمرض ـ كى يكون جديرا بهذا الاسم ـ يجب أن يرتبط بأحد الأمزجة الأربعة temperaments أو العناصر الأربعة أو اخلاط أبقراط humours of Hippocrater ٠ ان الشفاء يسـير لكنه سيستغرق وقتا وأنك (أى الطبيب) يتعين عليك الانتباه فان أى تجاوز بسيط لتعليماتك يمكن أن تقابله بالعقاب بأن تغير حبات الدواء أو المسحوق،

فالجهل هو شرف المهنة فلن يرضى أحد باغضابك . واذا كان عليك أن تعالج أحد أصحاب المهن من أهل البلاد فيجب أن تنتقل أخيرا لأكثر مراحل الزيارة ازعاجا وهى مرحلة مناقشة الأتعاب . فليس من شيء أكثر مدعاة للشك فى قدرة الطبيب من اهماله فى المطالبة بأجره . لقد عالجت ذات مرة تاجـرا حضرميا ثريا من الروماتيزم وأهملت طلب أجرى فسرق أحد اقداح الشاى الخاصة بى ، وظل فى حالة تعجب مستمر ، بسؤاله : من أى البلاد أتيت؟! لذا فقد طلبت منه خمسة قروش فالقى بها على السجادة وهو يلعن جنس الهنود . وقال صديقى الحاج والى عندما سمع بذلك : « انك سوف تسبب له مرضا آخر » والأجـرة التى يدفعها مريض محتـرم هى عشرون قرشا، أما بالنسبة للمريض الثرى فانك تبدأ معه بالمساومة ، فان كان يشكو ـ على سبيل المثال ـ من الزحار (الدوسنتاريا) وعرق النسا ، فاطلب عشـرة جنيهات استرلينية للزحار وعشرين لعرق النسا . لكنك نادرا ما تأخـذ ما تريد . فالشرقى يدفع أجر الطبيب وهو متضرر . واعلم أن مريضـك سوف تتجلى له علامات مؤكدة على نقاهته فيضحك ويظل يسخر طـوال النهار . فاذا ظهرت أنت له شرع فى التوجع وظهر الاشمئناط على ملامحـه وتظاهر بالشكوى وهو يرحب بك . وفى هذه الحال عليك أن تلقى بعض العبارات التى تحمل ايماءات أو معانى معينة كقولك : «دنيا رميم ما يجرى وراءها الا الكلاب » ثم عليك أن ترفض علاج الأعراض الثانوية أو الآلام الأخرى التى قد تعيد العنيد الى صوبه ، وعلى أية حال فثمة شعر غربى يفيد أن « كل ما يفعله جالينوس هو أنه يدل مريضه على ضرورات الحياة » . ولابد أن يكون ما تصفه من دواء جامدا ملموسا ماديا ، وتحسن فعلا كلما جعلت العلاج يسبب للمريض بعض الألم كأن تشرط جلده أو تحكه بفرشاة تنظيف الخيل (٦) .

والشرقيون مثلهم مثل فلاحينا فى أوروبا يرغبون فى استدعاء الطبيب « ليعرفوا قيمة نقودهم » ، كما أنهم يتصورون أن العلاج القاسى المؤلم يؤدى للشفاء فقد كان طبيب الملك الفارسى يعالج الحمى بالضرب «بالفلكة» ، وكان المرضى فى بغداد « يخبزون » فى الأفران لتحقيق الشفاء ، والمصرى فى الاسكندرية يلجأ الى بعض شيوخ العرب لكيه على أم رأسه كعلاج من حمى الربيع التى تستعصى على أقوى أنواع العلاج فى أوروبا . وعندما تجهز

---

(٦) حدثنا الرحالة بوركهارت عن الأطباء الأوربيين فى الشرق فأسف لأن عددا كبيرا من الأطباء الأفاقين تزدحم بهم بلدان الشرق : رحلة بوركهارت فى شبه جزيرة العرب . ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ وعبد العزيز الهلابى .

الدواء ويصبح فى قبضة يدك ، ضع منه ست حبات كبيرة من أقراص الخبز ، وانقعها فى الصبر (الصبار) أو محلول القرفة منكهة بالحليب ـ الذى يعد علاجا كافيا لسوء الهضم ـ واذا كان المريض الذى يتناول هذا العلاج لايقصد الحمية وانما العلاج فلابد أن يقول أثناء تناول الدواء : «بسم الله الرحمن الرحيم» وبعد تجرعه يقول : «الحمد لله الشافى المعافى» وبعد ذلك على الطبيب أن يحضر ورقا وقلما ويكتب « وصفة طبية شافية » كالتالى :

أ (٧)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه أجمعين ، وبعد ذلك دع المريض يتناول عسل النحل والقرفة وزلال البيض album graecum ، نصف جزء من كل منها ، وزنجبيل ، جزء كامل (٨) ـ ويطحن الزنجبيل ويخلط بعسل النحل ويشكل على هيئة أقراص أو مضغات « بلابيع » يزن كل قرص مثقالا Miskal ، يتناول المريض قرصا على الريق (قبل الافطار) · والحقيقة أن نتائج هذا العلاج مبهرة ويأكل المريض سمكا ولحما وخضروات وحلوى بالاضافة للأطعمة التى تملأ البطن Flatulent food وحمضيات من كل الأصناف · ويستحم المريض ويعيش دون توتر ، وبذلك سيشفى بمساعدة الملك الشافى ، والسلام » ·

ونادرا ما أحتاج للقول ان الحمية لابد أن تكون صارمة ، فلا داعى لذلك · وليس أكثر ازعاجا من أن تفرض نظام العلاج الأوربى على أهل الشرق دون مراعاة لطرائقهم الخاصة فى العلاج ، فالهندى عندما يتناول دواءه ، يكون قد أعد نفسه لتناوله بالحمية والراحة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة · وبعد تناول الجرعة يشرع بالتدريج فى العودة لعاداته المعتادة ، فاذا كسر الحمية أو أفطر بعد صوم (بشره) فان ذلك يؤدى لنتائج سيئة بالتأكيد · وكان المصريون القدماء ـ كما أخبرنا هيرودوت ـ يخصصون عدة أيام من كل شهر لتناول حبوب التغيير alteratives (قد يكون المعنى تناول مسهل أو شربة أو تغيير نوع

(٧) هذا الحرف يكتب فى رأس الوصفة الطبية · انه الحرف الأول من لفظ الجلالة (الله) أو « الحرف الأول من (الألفباء ـ أو الهجائية العربية) يستخدم منذ زمن طويل للاشارة لأصل الخليقة ، فالله ـ سبحانه ـ هو الأول والآخر · (بيرتون)

(٨) أى بنسبة ٢ الى ١ : نسبة ٢ : للزنجبيل ، ونسبة ١ تمثل العناصر الأخرى · (المترجم) ·

الطعام (أما الفرس فكانوا يغلقون على أنفسهم فى حجرة دافئة بمجرد استيقاظهم (على الريق) ويظلون فى هذه الغرفة عراة مع الحفاظ على أنفسهم تماما من البرد ، ويشربون فى هذه الأثناء ماء فاترا . وعندما يجد الأمراء الأفغان من الضرورة استخـدام جذور الجنسنج (أو الجذور الصينية وتسمى أيضا شوشينى Cuob-Chini وهى جـــذور نبـــاتية ذات شهرة كبيرة كمطهر ومقو عام ومثير للشهوة الجنسية) فانهم ـ أى الأمراء الأفغان يختارون لذلك فصل الربيع فيذهبون الى أحد البساتين حيث الزهور والأشجار وحيث خرير مياه القنوات والجداول ـ لتهدئة أعصابهم ومشاعرهم ، ويتجنبون المتاعب والمشاكل بمختلف أنواعها ، ولا يقرءون حتى خطابا مخافة أن يحـوى أنبـاء مزعجـة .

وبعد كتابة الوصـفة الطبية عليك أن تختمها بختمك فى بدايتهـا ونهايتها حتى لا يتمكن أحد من حذف شىء أو اضافة شىء . وعند ارسال الدواء الى مريض من الأعيان له أعداء ، فلابد أن تأخذ حذرك (على نحو ما أخذت حذرك عند كتابة الوصفة الطبية) مخافة فتح صناديق أو قوارير الدواء ، فان أحد الباشوات الذين عالجتهم احتفظ بصورة شمسية طبـق الأصل من ختمى ليقارنه بالختم الذى أضعه على قوارير الدواء : وقد كان هذا الباشا مقاتلا شجاعا أثيرا لدى محمد على ، لذا فقد عزله خليفته . والناس لم ينسوا كيف أنه فى فترات سابقة عانى الذين تعرضوا للدولة بما هو ضار ـ لآلام مفاجئة مميتة فى الأمعـاء . لذا فان على الطبيب أن يتخذ الحيطة والا فان كل النتائج السيئة يمكن أن تقع على رأسه أو يتعرض لانتقام أسرة المصاب .

ورغم أن القاهرة زاخرة بالعاملين فى مجال الطب الا أنها يمـكن أن تنجب مزيدا منهم . ومع هذا فلـكى يزدهـر عمـل الطبيب ويحظى بالشهرة لابد أن يكون هنديا أو صينيا أو من بلاد المغرب . والمصريون لا يحترمون طرق العلاج الأوربية جملة وتفصيلا كما هو الحال فى الهند . والمصريون يجهلون الطب الهندى لذا فهم يقدرونه تقديرا كبيرا ، وربما كان ارتفاع شأنه بينهم أنه بسيط ويعتمد على الحمية ، بالاضـافة الى أن الهنود يتعاملون بالأحجبة والتعاويذ وهى أمور بدأ الناس يعتقدون فى تأثيرهـا وجدواها فى كل مكان حتى فى أوربا . والرحـالة الذين لا يبهرهم البرق والرعد على ضفاف نهر السين ، كما لا تبهرهم خفقات التنويم المغناطيسى أو ألعاب المائدة السحرية ـ يرون فى التتار المتوحشين وفى أهل التبت شيئا فوق الطبيعة وشيئا شيطانيا فى شيفا Sei-fa of the Bokte وبعض الأذكيـاء الذين ينظـــر اليهم أصـــدقاؤهم كفلاسفة يقعون فى حبائل تعاويذ سحرة القاهرة ذوى العمائم واللحى . وفى مستعمراتنا بغرب أفريقيا يطلق مصطلح « الانتحـاء للسـواد »

أو « النمو الأسود » على الاستعماريين البيض الذين أصبحوا متشبعين تماما بالخرافات المتعلقة بالأرض (أو الخوف اللاعقلانى من الأرض) بعد فترة من الاقامة هناك · والعناصر الهندو أوربية وهم قوم أذكياء قد سجلوا فى حكاياتهم وعقائدهم ايمانا راسخا بأمور صبيانية يصعب حتى على الهندوس تصديقها · وقد كنت أستطيع استخدام المغناطيسية الحيوية animal magnetism كالهنود · وعلى أية حال فقد كنت حريصا أن أعطى العلم مظهرا غيبيا خادعا · وقد أظهر الحاج والى الذى كان من الآخذين بمبدأ الشك الايجابى قلقا ونصحنى ألا أمارس التنويم المغناطيسى الحقيقى والا أصبحت يقينا « رفيقا للشياطين » · لقد قال لى صديقى : « يجب أن تسمى ما تقوم به سرا هنديا لأنه من الواضح أنك لست من المشايخ ، وسيسأل الناس : أين الدواء الذى تقدمه ، وما شأنك أنت بالتعاويذ والرقى » ولم تكن هناك فائدة من أن أقول له أننى أتبع خطى هذه الجماعة من المشايخ ، فحتى المرضى قد يعتبرون أنفسهم من المريدين لى ومن ثم يبتهجون بتقبيل يدى كصاحب « نفس » وهو ما يعنى أننى « شيخ فى رتبة دون الولى » · وقد كافأنى الحاج والى على انقيادى له وطاعتى اياه بأن راح يبالغ فى كل مكان واصفا اياى بأننى زينة الأطباء · وكانت أولى نجاحاتى فى الوكالة ، فقد كان يسكن قبالتى تاجر رقيق عربى سقطت جوارية الحبشيات مريضا الواحدة تلو الأخرى · انهن من جنس واهن ضعيف ، فقد عانين عند وصولهن الى مصر للمرة الأولى لمتاعب صحية كثيرة خاصة من السل والزحار (الدوسنتاريا) والدوالى وقد نجحت فى علاج الجارية الأولى التى كان ثمنها يبلغ خمسة عشر جنيها على الأقل ، وكان عرفان مالكها لفضلى كبيرا ، وكان على أن أقدم الدواء لست جوار أخريات لمعاناتهن من الأنيميا والشخير أثناء النوم الأمر الذى يقلل من أثمانهن · وكانت معيشة الجوارى فى الغرفة المواجهة لى ورؤيتى لهن طوال ساعات النهار والليل قد أتاحت لى فرصة كبيرة لدراسة أحوالهن · لقد كن مثالا لسلالة الحبشيات المثاليات (ذوات الالية أو العجيزة الكبيرة التى يتراكم فيها الشحم) وكن ذوات أكتاف عريضة ونحيلات الخصور ورقيقات الشفاه ، أما أردافهن فمن الحجم المعتبر · وليس لأية واحدة منهن ملامح جميلة ، فالشعر قصير جعد ، يقف فى مؤخرة رؤوسهن مختفيا تحت مناديل الرأس ، وان كن لم يعدمن بعض الجمال فى حواجبهن وعيونهن والجوانب العليا من أنوفهن · ولهن شفاه متدلية عطشى وأفكاك ضخمة وأفواه بارزة ، الا أن الواحدة منهن — بشكل عام (دون تدقيق فى ملمح معين من ملامحها) فيها مزيج من الحرافة والحلاوة · وأسلوبهن فى هز الجسم

مميز . واذا قلت لاحداهن ولتكن مريم : « يا لك من جميلة يا مريم .. ما أجمل عينيك !! ما احسن ... » فقـــد تجيب : « ألا تشـــترينى ؟! » عقيدتنا واحدة تحقق السعادة لكلينا لم لا تشترينى ! » فأقول : « صدقينى يا مريم .. مباركان هما القلبان .. » فتقول : « اذن لماذا لا تشترينى ؟! » وهكذا يستمر الحوار مما يعد غصة فى حلق كيوبيد تخرس بلاغته . ومع أن رد مريم لم يكن مباشرا صريحا ، فانه غالبا ما يكون من قدرنا فى الغرب ــ كما فى الشرق ــ أن نرى فى العيون البراقة وأن نسمع من الشفاه الوردية تلميحا ــ ان لم يكن تصريحا ــ هذه العبارة : « لم لا تشترينى ؟ » بل وأحيانا : « لم لا تستطيع شرائى ؟! » .

وكان كل ما طلبته مقابل خدماتى لتــاجر الرقيق أن يأخذنى معه فى جولة بالقاهرة وأن يشرح لى أسرار مهنته فعرفت معلومات قد تكون مفيدة عندما يحين سياق سردها . ولم يشك الرجل الا قليلا فى حقيقة سائله ، وراح من خلال عدم ارتيابه هذا يتناول موضـــوع الرقيــق الذى يتــم اصطياده من مناطق الصومال وزنجبار ، كما راح يتناول كل الموضوعات ذات الأهمية الفائقة بالنسبة لى . وعلى أية حــال ، فهــو لم يذكر جديدا يستحق أن أسجله عن الوضع الحالى لوكلاء الرقيق فى مصر . لقد عرف الانجليز لتوهم أن العبيد ليسوا بالضرورة أكثر الناس بؤسا وأحطهم مرتبة . فهناك من لديه الشجاعة الكافية ليخبر الشــعب الانجليــزى أن الرقيق فى بلاد الشرق عامة ، يأكل أفضل بكثير من الخدم أو حتى من أفراد الطبقات الدنيا ممن هم ليسوا عبيدا ، وهذا أمر حقيقى . « فالشريعة الاسلامية تلزم المسلمين بمعاملة رقيقهم برقة بالغة ، والمسلمون ــ بشكل عام ــ حريصون على الأخذ بتعاليم نبيهم . فالرقيق يعد فردا من أفــراد الأسرة ، وفى البيوت حيث يوجد الخدم الأحرار ، نادرا ما يقوم الرقيق بأى عمــل خلا تعمير الشيشة (حشوها بالتمباك) ، واعــداد القهوة ، ومرافقة سيدهم عند خروجه ، وتدليك قدمه عندما يستريح فى القيلولة وذب الذباب عنه . وعندما لا يكون العبد راضيا بمعيشته ففى وسعه أن يجبر سيده على بيعه بالطرق المشروعة . والعبد فى بلاد الشرق ، لا ينعى هم الطعام أو السكن أو اللباس أو الاستحمام ، كما أنه معفى من دفع الضرائب ، ومعفى من الخدمة العسكرية ومن دفع أى مبالغ لسيده . ورغم عبــوديته فهو فى الحقيقة أكثر حــرية من الفــلاح المصرى الحـــر » . أعتقد أن هذا هو الوضع الحقيقى للرقيق ، وان كان هذا بطبيعة الحال ، لا يؤثر مطلقــا فى قضية الرق بشكلها المجرد . وقد حققت شهرة خاصــة نتيجة علاجى الناجع للجوارى الحبشيات ، فقد قام صديقى الحــاج والى باذاعة خبر ذلك فى مختلف أنحاء القاهرة ، وقبل انقضاء خمسة عشر

يوما ، وجدت نفسى مضطرا الى التخفيف من مهـــارتى فى العلاج حتى أتخلص من تهديد الشهرة (أتخلص مما تجره على الشـــهرة فى هـــذا المضمار من متاعب) وتعتبر مشكلة الخدم من أكثر المشاكل اثارة للمتاعب للانجليز فى مصر ، وعلى نحو خاص بالنسبة للشخص الذى يسافر باعتباره شخصا محترما (ذا مكانة) من أهل البلاد ، اذ يتوقع الجميع أن يصحبه عبيـــده ٠

وبعد تفكير عميق ، قررت أن يكون بصحبتى « بربرى « Berberi » وعلى هذا فقد دعوت شيخا a Shaykh — اذ يوجد شيخ لكل شىء بدءا من اللصوص فى « الشرق » ، وقد عرف هذا الأمر فى مصر منذ أيام ديودور الصقلى Diodorus Siculus » — وعرفتـــه بطلبى ٠ وقائمة الأشياء الضرورية (الأمور التى لابد منها) Sines qua nons تعد اكثر ضرورة وأهمية من القائمة الموسعة (التى تغص بالتفاصيل) وكانت قائمة الطلبات التى قدمتها تشتمل على : الصحة الجيدة ، والاســتعداد للسفر الى أى مكان ، ومهارة بسيطة فى الطهى ، والقدرة على الحياكة والغسل ، والاستعداد للدخول فى مشاجرات ، وأن يكون متعودا على أداء الصلوات فى مواقيتها ٠ وبعد يوم أحضر الشيخ لى رجلا من اختياره عريض الكتفين ، مقوس الساقين ينم عن ملامح كملامح البلدج (وهو كلب جرىء شرس كبير الرأس ، قصير الشعر) وهى الملامح المعتادة للبرابرة Berberies وبالنســبة لهــذا الشخص البربرى الــذى أحضره الشـــيخ فقد كان يحرك عينيه بشكل مبالغ فيه اذ كان جفناه متدليين ٠ وكــان السبب فى هذا التشوه أنه وضع فى عينيه عصيرا حمضيا ليتهرب من السخرة (أو التجنيد الالزامى Conscription) وقد أجاب عن كل أسئلتى بثبات ٠ وكان بعض الصبية والرجال المصريين الحمقى يثيرون الضوضاء بالمكان ، فطردهم بحزم هادىء بعد استئذانى ٠ وعندما تناول الابرة والخيط والمنديل ذى الأطراف غير المخاطة — جلس وقبض على حافة المنديل باصبعى قدميه (الاصبع الكبير والذى يليه) ، وأنهى حياكة أطراف المنديل بأسلوب هادىء ومتقن ٠ ولما خرج تسلح بكرباج يستخدمه الآن استخداما رقيقا ، أما مع أى دابة من دواب التحميل فهو يستخدمه بشدة ، سواء أكانت هذه الدابة من ذوات الاثنين أم من ذوات الأربع كما اثبت ذات المهارة فى أمور المطبخ ، وبعــد أخذ الضــــمانات الأمنية منه ومعرفة اسمه وتسجيله طرف الشيخ اتفقت معه على دفع ثمانين قرشا شهريا ٠ لكن عليا البربرى وأنا كنا نضمر الانفصال فقبل مرور أسبوعين قام بطعن تابعه الخادم — وهو صبى من سورات Surat

كان راغبا فى العودة الى بيته ، ليجبره على خدمتى وبسبب هذه الحادثة فقد تلقى ٤٠٠ ضربة على قدميه بأمر من ضابط الشرطة كما عاقبته بالطرد من خدمتى • وبعد هذا الفشل جربت عددا من الخدم من الصعايدة Saidis والبرابرة الذين يعبرون عن الشىء ونقيضه بعبارة واحدة Clean and unclean eating بتوصية من شيوخ مختلفين ، فقد كان فى كل منهم عيوب خطيرة ، فأحدهم خدعنى بطيش ، وآخر سرقنى ، والثالث سكير ، أما الرابع فقد كان دوما يتهرب من تنفيذ أوامرى (يخرق أوامر يوليوس قيصر) أما الأخير فقد كان نوبيا ذا قدمين طويلتين ، وبعد أن مكث فى البيت يومين تخلى عنى بسبب تصميمى على السفر بحرا من السويس الى ينبع • وقد احتفظت برجل واحد شكا أنه كان يعمل حتى الموت • والسبب الثانى ، أنه لم يكن لهم من عمل الا العراك ، والسبب الثالث أنهم تركونى فلم يبق الا أن اخدم نفسى كما قال قديما السيد الوزير Elwes • وأخيرا فقد قررت ان استبقى الولد الهندى فقط فى خدمتى لأننى تعبت تماما من الخدم المصريين ، كما أن خادما واحدا كان كافيا ــ فى الحقيقة ــ لخدمتى ، كما انه مناسب لرتبتى (مكانتى الاجتماعية) المفترضة • لقد كان فى هذا الولد الهندى كل عيوب أهل الهند ، فبينما كان شجاعا فى القاهرة ، كان جبانا بكل ما فى الكلمة من معنى فى المدينة (المنورة) وكان البدو يحتقرونه احتقارا تاما (يحتقرونه حتى النخاع) لتخنثه خاصة عندما يبرك جمله للنزول من فوقه ، كما أنه لم يكن يستطيع أن يصون يديه من الاختلاس والسرقة • ومع هذا فان اختياره لم يكن يخلو من مزايا فبشرته الداكنة ، وملامحه الممتلئة جعلت العرب يدعونه عبدا حبشيا ، وكان ذلك لصالح قناعى (لصالح تأكيد شخصيتى التى ادعيتها) • فلم اكن أهتم بتكذيب قولهم • لقد كان يخدمنى بشكل جيد ، كما كان سهل الانقياد لنظامى ، كما كان معتمدا على اعتمادا كليا لذا فقد كان اقل رغبة فى مراقبتى خاصة فيما يتعلق بالثرثرة عما اتخذه من أعمال واجراءات • وقد قمنا بالحج معا كسيد وتابعه الا أنه بعد عودتى لمصر بعد اتمام الحج تحول الشيخ نور (الذى أصبح لقبه الحاج) الى الأسوأ بعد أن وجد نفسه بمثابة صاحب (صديق (Sahib)) لى • فلم يعد يعمل وكرس كل طاقته لسرقة الأشياء الصغيرة ، وامتد نشاطه هذا بشكل متهور ليشمل أصدقائى •

وقد يكون القارىء محبا لاستطلاع المصروفات الضرورية التى يتطلبها العزب المقيم بالقاهرة • ولابد أن تلاحظ ــ على أية حال ــ

ى هذه القائمة التالية أننى لم أكن مقتصدا حازما ، بالاضافة الى أننى كنت غريبا فى القاهرة ، فالسكان والمقيمون يمكنهم العيش بمستوى جيد بانفاق أكثر من ثلثى هذا المبلغ ٠

		Piasters قروش	Faddah فضة
	ايجار المنزل ١٨ قرشا فى الشهر	—	٢٤
	خادم ٨٠ قرشا شهريا	٢	٢٦
	افطار لى وللخادم ١٠ بيضات	—	٥
	قهوة	—	١٠
	بطيخة (الآن ٥ قروش)	١	—
	لفتان من الخبز	—	١٠
غداء	رطلان من اللحم	٢	٢٠
	لفتان من الخبز	—	١٠
	خضروات	—	٢٠
	أرز	—	٥
	زيت وسمن	١	—
	قربة من ماء النيل	١	—
	نثريات توباكو (تمباك) (٩)	١	—
	(متفرقات) أجرة الحمام	٣	٢٠
	الاجمالى	١٢	٥٠

واجمالى المبلغ يساوى حوالى شلنين وستة بنسات ٠

ومن فى القاهرة — فى هذه الأيام — لا يتبع شيخا ؟! لقد وجدت من الصواب أن أتمشى مع العادات السائدة ٠ لذلك فبعد أن دبرت لنفسى خادما ، وجهت جهدى للبحث عن معلم متذرعا بأننى كطبيب هندى فلابد لى من قراءة المؤلفات العربية فى مجال الطب ، كما أريد أن أدرب لسانى

(٩) فى مصر أربعة أنواع من التمباك أفضلها المسمى لاتاكيا Latakia ويعرف بالجبلى ، والعجمى والحمى (بكسر الحاء وتشديد الميم) والسورى ٠٠ (عن تعليق بيرتون) ٠

على النطق السليم ، وأن أزداد يقينا بالله تعالى وكانت دراستى الاسلامية فى مجال مذهب الامام الشافعى · وقد وقع اختيارى على هذا المذهب لسببين : أولهما أنه أيسر المذاهب الأربعة ، وثانيهما أنه أقرب المذاهب السنية الى الهرطقة الشيعية التى أدى المامى بها ، واتصالى بالفرس الى تحقيق شهرة فى هذا المجال وعلى أية حال فان اختيارى لمذهب من المذاهب أكد للمحيطين بى أننى زنديق أو من أهل البدع ، وذلك لأن الشيعى (العجمى) قد تلقن جيدا أن يكف عن مهاجمة المذاهب الأخرى على سبيل التقية (١٠) خاصة فى البلاد التى يكون فيها التعبير الصريح خطرا ، ومن هنا فان الشيعى الذى يزعم فى مواقف الخطر أنه شافعى لأن المذهب الشافعى كما قلنا « قريب من الهرطقات الفارسية » (١١) هذا بالاضافة الى خطئى الأساسى بظهورى فى الاسكندرية باعتبادى « ميرزا Mirza » فى لباس عجمى ، فان ذلك قد سبب لى مضايقات صغيرة كثيرة فى القاهرة رغم كل الاحتياطات والتحايلات · وخلال رحلتى فى شبه الجزيرة العربية كنت منبوذا لأن الشهرة السيئة علقت بى كقميص نيوسوس Nessus ــ رغم أننى كنت أسحب سكينى فى كل وقت كاشارة هجومية ·

ولم يمض وقت طويل حتى اهتديت الى مدرس ممتاز هو الشيخ محمد العطار ، وكان عطارا بالفعل · وكان معروفا بالثراء وكان فى يوم من الأيام خطيبا فى أحد مساجد محمد على ، لكن الباشا الراحل طرده من الخطابة ، وزامن طرده من الخطابة حادث سيىء وسلسلة من المتاعب فقد تزوج فى هذا اليوم الأسود وتحدث معها خارج البيت باعتباره سيدا صارما يتعامل مع جارية غير مطيعة وبالنظر الى سحنته فاننى أعتقد أنه ــ داخل البيت أيضا ــ من النوع المتسلط · وكان طرده من وظيفة الخطابة هو السبب لرجوعه الي مهنة العطارة التى تعد ملجأ لمن كانوا أثرياء يوما ما رغم أن العطارين يعتبرون الآن حكماء مصر (أطباء مصر) ويقع دكان محمد العطار فى حى الجمالية، وهو دكان صغير لا يتعدى خمسة أقدام

---

(١٠) التقية هى أن يظهر الانسان غير ما يبطن ــ وهى مبدأ خطير جدا خاصة اذا امتدت لسائر مظاهر الحياة الاجتماعية ، وهو ما حدث بالفعل فى بعض المناطق · وربما أدت الظروف السياسية منذ عهد الدولة الأموية الى استشراء هذا المبدأ الخطير · ولا علاقة للمذهب الشافعى بالشيعة والتشيع كما سيتضح من الحاشية التالية · (المترجم)

(١١) لا علاقة للمذهب الشافعى اطلاقا بما يسميه بيرتون الهرطقات الفارسية فالمذهب الشافعى لم يتعرض لاحقية لامام على رضى الله عنه بالخلافة بعد الرسول ، ولا يجمع الصلوات من غير سفر ، ولا يضيف للاذان شيئا وانما كاذان المذاهب السنية الاخرى ، وكتاب « الأم » للامام الشافعى لا يوصى « بالتقية » ·· الخ ولا ندرى من أين أتى بيرتون بهذا الكلام ــ (المترجم) ·

عرضا وستة أقدام عمقا مخترقا جدار بعض البيوت وهو مقسوم الى قسمين مستقلين يفصلهما فاصل خشبى رقيق ويتصلان بنوع من العقود (فتحات تتخذ الواحدة منها شكل قوس) فى هذا العازل الخشبى · وثمة صندوق في خلفية الدكان بمثابة ردهة تستخدم كمخزن حيث السلال القديمة الفارغة الغارقة فى الأتربة متناثرة على ارضية قذرة ، اما فى مقدمة الدكان فتم عرض البضائع التى يتاجر فيها : سلال من حصير مليئة بالتمباك العجمى ، وشيش (جمع شيشة) من فخار أحمر ومقاطف أو « قفف » بها بن من النوع الردىء واقماع سكر كبيرة بيضاء مائلة للصفرة ملفوفة فى ورق بنى أغمق من اللون البنى الذى يعترى السكر الأبيض · وعلى الأرفف والأفاريز (جمع افريز وهى الأجزاء الناتئة من جدران الدكان) توجد صفوف من صناديق خشبية قد نعمت لكثرة استخدامها ولمسها ، وقد كتبت عليها محتوياتها باهمال شديد ، فقد كتب « فلفل أسود » على الصندوق الذى يحوى « الراوند » وكتب « الزرنيخ » على الصندوق الذى يحوى « الطفل » وهو قطع من الفخار تستخدم فى حك الجسم عند الاستحمام ، كما كتب « سلفات الحديد » على الصندوق الذى يحوى « ملح النشادر » ويوجد أيضا صندوق مكعب مغلق « بالضبة » والمفتاح به عملات صغيرة وبعض المواد مثل العطور « المضرة » وكحل ردىء للعيون ومستحضرات تجميل « ضارة » خاصة تلك التى تستخدم لجعل لون الشفتين أو الوجه احمر ، ويتدلى من السقف كفتان عتيقتان صدئتان تتأرجحان بوهن ، وبالنسبة للكلاليب (جمع كلاب) أو الخطاطيف فى مقدمة الدكان فهى قصبات معلقة للشيش وللشموع المصنوعة من شحم حيوانى والشموع النحيلة القذرة وأوراق السجائر « البفرة ») وقد علقت هذه المعروضات بدلا من عرضها فى واجهات زجاجية · وثمة شبكة مهترئة تمنع دخول الذباب عندما يكون صاحب الدكان موجودا بداخله وتمنع دخول اللصوص عندما يكون خارجه لتلاوة سورة يس – يوميا – فى مسجد الحسنين ، والمزلاج الخشبى الذى يغلق الدكان ليلا عبارة عن جريدتين فى الغاية من القذارة ومليئتين بالبراغيث وقد وضعتا على المصطبة المعدة لراحة المشترين ، هذا هو الوصف الكامل لأثاث دكان معلمى ، وعلى المصطبة يجلس معلمى أو بالأحرى يضطجع لأننى حقيقة أعتقد أنه ينام ثلاثة أرباع اليوم وهو رجل عجوز بخيل فى حوالى الثامنة والخمسين من العمر ، له ملامح تنبىء أنها كانت وسيمة ومتناسقة ، وله وجه شاحب ورأس حليق ووجنتان مجعدتان بشدة ، وعينان غائمتان دامعتان يعوزهما الأمل ولحية شيباء لم تعرف الدهان أو المشط ، أما عمامته فرغم ضخامتها فقد اعتراها الاسوداد والبلى أما معطفه وسائر ملابسه فتزخر بالرقع والثقوب الواسعة · ويداه

تبدوان دائما غير نظيفة مع أنه من المفترض أنها نظيفة لأنه يغسل يديه باستمرار لقيامه بالوضوء الذى يسبق الصلوات ، وانه لأمر يدعو للدهشة أن تراه فى الغـاية من الشراسة والفظاظة مع الأولاد الصـغار والبنات الصغيرات الذين يأتون اليه طالبين قدرا قليلا من الفلفل والسكر • ففى مثل هذه المناسبات أجلس متعجبا من رؤيته ـ عندما يكون منهكا ـ يتخذ من مكانه محورا ، فيمد يده ـ وهو جالس ـ ليصل ـ بعد أن يمد جسمه الى درج بعيد ، أو ليطول صندوقا وينزله من رفه المعتاد • وانى لأدهش كيف يؤدى صلاته بما فيها من ركوع وسـجود على سـجادة مهـترئة لا تزيد على قدمين مربعين لا تكاد تكفى لنوم طفـل بريطانى ؟! • وهـو لا يقر بجهله بمهنة العطارة وقلما يجلس احد على المصطبة أمام دكانه (يعنى لا يتردد عليـه الزبائن بكثرة) • وتبـدو سعادته الكبرى عندما أجلس أنا والحاج والى معه بضع دقائق فى المساء ، محضرين معنـا شيشتنا حيث يقوم باعدادها لندخنها ، ويقوم باعداد القهوة التى يقوم بتحليتها من اقماع السكر فى دكانه الصغير • ففى هذه المناسبة نجعله يتكلم ويضحك ويستشهد فى بعض المناسبات بأسطر قليلة باعثة على الاغراق فى الضحك •

لقد كنا نستثيره ليقص علينـا حكايات طويلة عن الحب الـذى شمله به أيام دراسته الشيخ عبد الرحمن الرجل العظيم ، وعن الكراهيـة الفطرية التى كان يكنها له الشيخ نصر الدين الرجل العظيم والصالح • ثم نناقش معه أمور العقيدة ثم نمزح معه بالتعريج على مدى فحولته ثم نمدحه واضعين تقدمه فى السن باعتبارنا بعبارات على شاكلة: « الماء من يديك كماء زمزم » أو « سألناك الدعاء ! » • وفى بعض الأحيان نحثه على صحبتنا للحمام ، وهناك يصر على دفع أقل مبلغ ويتعارك مع أى شىء وكل شخص ويسبب ازعاجا لا حد له • وبشكل عام فاننى والحاج والى زائراه الوحيدان ، فمعارفه فيما يبدو قليلون وليس له أصدقاء ، ولابد أنه كان له فى يوم من الأيام أصدقاء عندما كان غنيـا أمـا الآن فقـد فر الأصدقاء من العجوز الفقير •

وعندما يجلس الشيخ محمد معى أو أقفز أنا الى دكانه الصغير لتلقى الدرس فيه يكون على راحته بمعنى أنه يقرأ عندما يريد أو يجعلنى أقرأ ، وغالبا ما يبدأ كل درس من دروسه ببعض اللوازم التى لا تفـارقه كقوله : « أيوه •• أيوه •• استعنا بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين • يقول المؤلف رحمه الله تعالى ـ القسم الأول من الفصل الثانى عن كيفية الصلاة ••• وهكذا » •

ويصبح ساخرا عنيفا عندما أختلف معه فى الرأى خاصة فيما يتعلق بقواعد النحو أو العقيدة التى ظل يدرسها حتى شابت لحيته ، فيقول : « سبحان الله ·· ما هذا الكلام · ان كنت على حق فكبر عمامتك كالمشايخ من أهل العلم وارم عقاقيرك لأن الأفضل لك أن تنقذ الأرواح بدلا من أن تحطم الأبدان ··· يا عبد الله » · وهو كالشرقيين يجد نفسه فى تقديم النصائح الطيبة ، كأن يقول ! « أنت دائما تكتب يا « جدع » من أى شيطان أتتك هذه العادة ، لابد أنك تعلمت ذلك من بلاد الفرنجة ··· استغفر الله » وهو يقول ذلك فى المناسبات القليلة عندما أغامر بكتابة ملحوظة مجانا فيقول : « أطباء مصر لا يكتبون ألف باء دون أن يتلقوا على ذلك أجرا ، وأنت لديك خادمان عليك اطعامهما · لماذا تخجل ؟ فان خجلت من تلقى الأجر ـ فالأفضل لك أن تذهب للجبل أو الصحراء وتصلى صباح مساء » · وأخيرا فانه مبذر فى الحديث عن مصاريف البيت : « خادمك لم يسجل جنيهين ثمن اللحم بالأمس ·· ما هذا الكلام · ألم تقل ليحفظنا الله من خطيئة التبذير » ·

وهو يبتهج بشكل فظ فيقطع سياق الموضوع الذى نقرؤه عندما يحس بالملل : « والآن ، فان الوضوء على سبعة أنواع وهو ينتج ··· هل أنت متزوج ؟ ··· لا ··· والآن حقيقه ينبغى أن يكون لديك ثلاث جوار ، يا عزيزى الشباب ! بقاؤك بلا زوجة ليس من الصواب فالرجال سيقولون عنك ··· استغفر الله ، نستعيذ بالله ونلجأ اليه ··· » والحق أن فمه يخوض فى أعراض زوجات المسلمين ·

ولكنه فى بعض الأحيان يحتار فى بعض الفقرات التى يقرأها ، كما رأيته بعينى رأسى ، فيتجاوزها ، أو يقرأها أكثر من اثنتى عشر مرة بتكاسل مرح ، أو يركز على أكثر المعانى مدعاة للخجل على نحو ما يفعل صبية المدارس (مبديا ملاحظات ذات مغزى Shot) وعندما يحدث ذلك أفقد طبعى ، وأرفع صوتى ، وأصيح قائلا : « حقا لا حول ولا قوة الا بالله العظيم » عندئذ ينظر لى ويهمس بخنوع عابر :

« خاف الله يا رجل » ·

الفصـــل الخـامس

شــهر رمضــان

الصوم فى جو حار ـ الكراكونات فى رمضان ـ مدفع القلعة ـ مدفع العباسية ـ أمسيات رمضان ـ المتسولون ـ المقاهى ـ بوابة النصر ـ القلعة ـ التكايا ـ ميرزا والقنصلية الفارسية ـ حوارى القاهرة القديمة ٠

يقابل شهر رمضان هذا العام شهر يونية بالتـاريخ الميـلادى ، والمشكلة الكبيرة أن هذا الشهر الفضيل يجعل المسلمين غلاظ الطباع غير متسمين باللطف ، وذلك بسبب امتناعنا عن الطعام والشراب والتدخين واستنشاق السعوط (النشوق) ، بل وامتناعنا عن ابتلاع ريقنا عمدا ـ طوال ست عشرة ساعة وربع الساعة ٠ وقد استخدمت كلمة « امتناع » بمعنى أن هذه الأمور « محرمة » على الصائم (١) ، رغم أن الطبقة العليا من الترك وهى الطبقة التى توصف بين عامة الناس بأنها :

« Turco fino Mangica porce e'beve vino ».

قد تخرق هذا المنع الشرعى بشكل شخصى ، فتجاوز أحكام الشريعة أو مخالفتها بشكل علنى لا يمر دون عقاب رادع (٢) ٠ وفى هذه الحال كما فى كل الأمور البشرية ينطبق قول القائل : المذنب فى السر برىء ٠

« Pécher en secret n'est pas pechér
Ce n'est que l'éciat qui fait le crime .. ?

وتراعى الطبقات الدنيا والوسطى شعائر هذا الشهر باخلاص شديد رغم قسوتها ، فلم أجد مريضا واحدا اضطر ليأكل حتى لمجرد الحفاظ على

---

(١) ابتلاع الريق غير محرم على الصائم ، وبيرتون هنا ينقل ما يسمعه من بعض الجهلاء أو العامة ـ (المترجم) ٠

(٢) يذكر بيرتون فى تعليقه أن الشريعة الاسلامية تحث المسلم على الصبر وعلى الرد على الشاغبين بالقول « اللهم انى صائم » وهذا صحيح ـ (المترجم) ٠

(★) يقارب ذلك معنى المثل العامى « حرامى بلا بينه سلطان » ـ (المترجم) ٠

حياته رغم المعاناة الشديدة بسبب هذا الحرمان الشامل (٣) . بل وحتى السفلة والآثمين الذين كانوا قبل رمضان قد اعتادوا على السكر والعربدة حتى فى أوقات الصلاة – قد تركوا ما كانوا فيـه من اثم فصاموا بـل وصـلوا .

والأثر الرئيسى لهذا الشهر الفضيل على المؤمنين الحقيقيين هـو ذلك الحزن الوقور الذى يغلف طباعهم – كما هو الحال فى صيام الايطاليين والكاثوليك والانجليز واليونانيين . فاصوات المسلمين الصائمين التى لم تكن أبدا – قبل رمضان – من بين أرق الأصوات ، قد اكتسبت – خاصة فى فترة ما بعد الظهيرة – بحة مفزعة ونغمة كنغمة صرير الباب . فالرجال يلعن بعضهم بعضا ، ويضربون النساء اما النسوة فيلطمن الأطفال ويسئن معاملتهم ، أما الأطفال فهم بدورهم يتضرعون ويعاملون القطط والكلاب بقسوة . وقلما تستطيع أن تقضى عشر دقائق فى أى حى بالقاهرة دون سماع منازعات عنيفة فالكراكونات Karakun أو المخافر مليئة بالسـادة الذين ضربوا نساءهم ضربا مفرطا . كما انه ملىء بالنسـوة اللائى خربشن أزواجهن بل وعضضنهم بل وجرحن ابدانهم . والمساجد غاصة بالناس العابسين المتذمرين يتربص كل منهم بالآخـر مع انهم يسيرون فى طريق يرضون به الله (*) . وفى الظل عند الجدران الخارجية للمسجد يسلى الأطفال الذين طردوا من المسجد انفسهم – او يتناسون بؤسهم – بانخراطهم فى لعب خال من الروح . وفى الأسواق والشوارع تواجهك وجوه شاحبة زائغة البصر وكأنها فى محنة كبيرة . وقد يواجه الغريب فى هذا الشهر تصرفات فظة ، فعلى سبيل المثال تجد البقال عادة يقول لك فى غير رمضان اذا كان عرضك غير مجز : « يفتح الله » أما فى رمضان فانه سيتذمر من غشمك وسيقول لك بحدة ألا تقف هكذا مضيعا للوقت . وعلى أية حال فان الدكاكين فى هذا الشهر اما ان تكون مغلقة او خالية من الباعة ففى هذا الشهر لا يشترى التجار ولا يدرس الطلاب ، وباختصار فان هذا الشهر الفضيل يعد بالنسبة لفئات كثيرة جزءا من اثنى عشر جزءا من السنة لا انتاج فيـه .

وفيما يلى نذكر ما يحدث فى أحد أيام الصيام فبعد حوالى نصف ساعة من منتصف الليل ينطلق مدفع السحور منبها المسلمين بوجوب

---

(٣) « ليس على المريض حرج » وتصرفات بعض الناس ترجع لهم لا لاحكام الشريعة (المترجم) .

(★) فى هذا القول مبالغة كبيرة دون شك ، ولكن الكثيرين لا يفطنون للأسف الى المعنى الكريم للصيام من انه مجاهد للنفس ولتدريب لها على الصبر ويظن هؤلاء أن الصيام مجرد امتناع عن الطعام والشراب فتسوء أخلاقهم ويعطون هذا الانطباع السيىء عن هذا الشهر الكريم للأجانب ولمن يعرفون هذا الدين القيم – (المترجم) .

الاستعداد لتناول طعام السحور وهو بمثابة افطار مبكر · وبمجرد سماع المدفع يوقظنى خادمى اذا كنت نائما ويحضر لى الماء للوضوء ويفرش السفرة وهى رداء جلدى ويضع امامى بقايا وجبة المساء (يقصد طعام الافطار الذى تناوله بعد سماع اذان المغرب) · وفى بعض الأحيان يكون ذلك قبل أن تستعد المعدة (لأنها لم تكن قد هضمت الطعام الذى تناولته بعد المغرب) ، لكن التعود هو كل شيء فالشهية وقف على التعود ، ومن دواعى الاحتياط أن يتناول الانسان فى سحوره أكبر قدر من الطعام يستطيعه · وبعدئذ نسمع « السلام » ويقصد به ترديد عبارات الصلاة والسلام على النبى (صلى الله عليه وسلم) كتوطئة لأذان الفجر (٤) ، وأظل أدخن بوهن وضعف كما لو كنت أودع صديقا حميما حتى ينطلق المدفع الثانى فى حوالى الساعة الثانية والنصف معلنا الامساك (٥) · ثم انتظر اذان الفجر الذى يرفع فى شهر رمضان مبكرا شيئا ما عن المعتاد · وبعد الافصاح عن نية الصيام أؤدى الصلاة وأستعد للنوم · وفى السابعة صباحا يبدأ عمال النهار من الطبقات العاملة فى المجتمع ممارسة أعمالهم ، بينما يقضى الأغنياء الليل فى العربدة ويظلون فى حالة خمول من الفجر حتى الظهر ·

وأول ما يفعله المرء عند الاستيقاظ هو الوضوء الذى لابد أن يتبع النوم فى وضع الاستلقاء على الظهر (فى غير جنابة) ، وبدون الوضوء لا يجوز للمرء الصلاة ولا يجوز له دخول المسجد ، ولا يجوز له الاقتراب من أحد العلماء (٦) ، ولا يجوز له مس القرآن الكريم · وعادة يزورنى عدد قليل من المرضى والفقراء فى هذه الساعة فاتفحصهم بشكل عرضى دون تدقيق فى التفاصيل وهذا لا يسعدهم فأتلقى نتيجة ذلك دروسا طازجة · وفى الساعة التاسعة صباحا يدخل الشيخ محمد ومعه « محاضرة » مكتوبة على جبهته المجعدة ، أو أن أصحبه مباشرة الى الجامع الأزهر ، وبعد ثلاث ساعات من القراءة الجادة لا يتخللها الا قليل من المقاطعة من لدن القراء الذين لا يعون ما يقرءون كالذى يتفرج على حادثة دون المشاركة فيها · وتعتبر هذه الساعات الثلاث بمثابة

---

(٤) تلاشى ذلك الآن ، ويكتفى المسلمون باقامة الآذان لصلاة الفجر فقط – (المترجم) ·

(٥) مدفع واحد للامساك فقط – هو مايحدث فى هذه الأيام ، مما يدل على تطور فى صالح التبسيط – (المترجم) ·

(٦) بيرتون مرة أخرى يذكر ما يسمعه من العامة على أنه حقائق ، فغير المتوضىء يجوز له الاقتراب من العلماء وغيرهم ، فالشريعة لم تحظر عليه ذلك ، وانما حظرت عليه فقط الصلاة ومس المصحف (الا لضرورة) – (المترجم) ·

فسحة طويلة (راحة طويلة) فمعظم الطلاب فى هذه الفترة يكونون فى بيوتهم ولا يأتون الا بعد سماع أذان الظهر ، فالاسلام لم يجعل لفترة الصباح الا القليل من العبادات لأنها فترة العمل الرئيسية فى بلاد الشرق أما فى فترة بعد الظهر وفى المساء فالصلوات يتلو بعضها بعضا وتزداد طولا (٧) ، ثم يحين الوقت المناسب لزيارة مرضاى الأثرياء وبعد ذلك أمر على محلات بيع الكتب لساعة أو ساعتين أو اتسكع فى الشوارع ببساطة · وفى الثالثة عصرا أعود لمنزلى فأصلى العصر وأعد نفسى للدراسة · وتلك الفترة هى أصعب فترات النهار · وبشكل عام فان فترات ليالى الصيف وفترات الصباح منه تدعو ــ كما يقال ــ للمسرة ، أما فترة صدر النهار (من الصباح للظهيرة) فتتسم بكونها رطبة جدا ، أما فترة ما بعد الظهر فهى خطيرة Serious فالرياح تحمل الأتربة الناعمة وتنقل من الصحراء حرارة كحرارة التنور فيهبط على القاهرة وابل حرارى ، وليس من سحب أو أبخرة تكسر حدتها ، وليس من وسائل تجب الحرارة وتبعث على الراحة كالحوائل المثقبة بالهند ، ولا توجد منازل يفخر أصحابها بوجود نوافذ زجاجية لها الا قلة قليلة من منازل الأثرياء · لذا فالجو داخل غرفتك أشد حرارة وأعلى سعيرا مما عليه الحال فى الشارع ويزداد الشعور بالحرارة ثلاثة أضعاف الشعور بها فى أى وقت آخر لا صيام فيه · وغالبا ما تؤثر المعدة المضطربة فى المخ ، فكل دقيقة يحسبها الانسان ليقتطعها من هذا الثبات المضجر ليقترب من ساعة المغرب المباركة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يقع على كاهلهم كم هائل من العمل اليدوى فى مثل هذا الفصل الحار ولا تتاح لهم الا فرص قليلة لنسيان متاعبهم بالنوم المتقطع فى فترة ما بعد الظهير ، الا أن معظم الناس يقضون قيلولتهم بعد الظهيرة مباشرة لقناعتهم بضرر النوم حتى وقت متأخر من النهار ·

وتبدو القاهرة عند اقتراب المغرب ــ (ساعة الافطار) ــ وياللبطء حلولها ! ــ وكأنها أفاقت من غشيتها ، فيطل الناس من النوافذ والشرفات ليرقبوا اقتراب ساعة خلاصهم · وبعض الناس يصلون ويبتهلون وآخرون يسبحون بينما آخرون يتجمعون فى جماعات أو يتبادلون الزيارات لقتل الوقت حتى يحين ميعاد الافطار ·

---

(٧) الاسلام دين عالمى وفترة النهار هى فترة العمل الرئيسية فى كل أنحاء العالم · والظهر أربع ركعات وكذلك العصر بينما المغرب ثلاث ركعات ، فتقديرات بيرتون خاطئة ــ (المترجم) ·

يا للسعادة ! أخيرا انطلق مدفع الافطار من القلعة · وفى الحال يجلجل المؤذن بأذانه الجميل داعيا الناس للصلاة وينطلق صوت المدفع الثانى من قصر العباسية · فيصيح الناس « الافطار ! الافطار ! » وتعم همهمة الفرح فى أنحاء القاهرة الصامتة · ولا تعدم أذناك المرهفتان لحظة انتقال احساس الترقب المبهج للسانك الجاف ومعدتك الخاوية وشفتيك الواهنتين · انك تشرب قلة كاملة من الماء عن آخرها مهما كانت كمية الماء بها · وأنت تصفق بكفين عجولتين طالبا الشيشة وتأمر بالقهوة ، وحالما تنتهى منها تجلس وتنتظر بهدوء مباهج المساء ·

والفقراء يأكلون وجبتهم بنهم تام · اما الأغنياء فيفطرون بوجبة خفيفة — قليل من الخبز والفاكهة سواء طازجة او مجففة — ولكنهم يفضلون بشكل خاص البطيخ والحلوى أو بعض الأطباق سهلة الهضم كالمهلبية وهى عبارة عن حليب خفيف هلامى القوام ونشا ومسحوق أرز· ثم يدخنون الشيشة ويشرب الواحد منهم قدح قهوة أو كوب شربات ، ويصلون العشاء ، ويمر الوقت سريعا نظرا للمتع المتاحة فى هذه الفترة خاصة التدخين بعد ست عشرة ساعة من الحرمان · وبعد هذا يجلسون لتناول طعام الفطور Future (الافطار) وهو وجبة لأربع وعشرين ساعة ، لذلك فهم يأكلون بنهم اذا أمنوا الأمراض الناتجة عن ذلك ·

وثمة طرائق عديدة لقضاء أمسيات شهر رمضان · وعند المصريين مثل يماثل المثل الذى عندنا فى مدرسة سالبرن Salirniton وهو :

« اتغدا واتمدى ، ولو للحظتين

واتعشى واتمشى ، ولو خطوتين »

بمعنى أن تتمدد بعد تناول غدائك ولو للحظتين وأن تمشى قليلا ولو خطوتين بعد العشاء ·

وتزدحم الشوارع الآن بحشود من الحواة الممثلين الفكهين (٨) وينخرط كثيرون فى المسرات ، بينما يتخذ عدد قليل طريقه للمسجد لأداء صلاة التراويح فى جماعة ويمشى الناس مشيا وئيدا حاملين فى أيديهم غلايين (ربما أيضا شيش) التدخين المعتادة ويتسوقون — فالأسواق

---

(٨) يقصد القرهقوز والمهرجين — (المترجم) ·

تظل مفتوحة حتى ساعة متأخرة ـ أو يجلسون متزاحمين عند مداخل المقاهى يدخنون الشيش ويثرثرون ويستمعون لحكايات الرواة والمغنين والوعاظ المتجولين · وتجد هنا الفتيات الحافيات يغنين ويصرخن بتهدج وانفعال ، وقد صاحب غناءهن دقات مزعجة على (الرق) وعزف أجش بالمزامير (جمع مزمار) متنافر بغيض ، وكل هذا العزف والغناء على شرف أحد الأولياء الحمقى ، دفنت جثته داخل احدى الدور المهرولة التى يمتلكها رجل ذو مكانة بعد أن اصر صاحب الدار على ذلك · وهذا المنظر يذكرك بشدة بجماعات السونيرز Sonneurs فى بريطانيا والزمبوجنارى Zampognari فى مرتفعات أبروزيا Abruzzia الذين يعـزفون موسيقا مزامير القرب أمام مادونا Madonna · وثمة رجل مغربى طويل وهزيل يعرض على الناس ورقة قذرة مربعة بها عدد من الخطوط والبقع يفترض أنها تمثل رسما للكعبة المشرفة ، ويجمع مقابل ذلك عملات نقدية نحاسية صغيرة ليغطى تكاليف حجه · وتجلس زمر من الذين لا عمل لهم فى ضوء القمر خلال الطرق الرئيسـية المؤدية لحـدائق الأزبكية حيث الحى الأفرنجى ليستمعوا للفرق الموسيقية التركية واليونانية أو ليسعدوا بأكل الكعك وشى الذرة واحتساب القهوة · والمشروبات المحلاة ، ومشاهدة مباهج ومزاحات القرة قوز (وهو الشكل المحلى لمشهد بنش وجودى) · والمنظر هنا أقل اتساما بالروح الشرقية مما عليه الحال فى داخل القاهرة ، الا أن منظر الملابس الأفرنجية بين الأزياء الشرقية المتباينة تحت ضوء القمر ، بالاضافة للعتمة الخفيفة التى تسببها أشجار الأكاسيا ذوات الزهور الصفراء المبيضة المنظر والتى يمكن مقارنتها بشكل عـام بذقن الباشا القديم ـ كل ذلك يشكل منظرا جديدا بأن يكون موضوعـا للوحة فنية ، ويلاحظ المسافر فى الشرق بعجب وجود بعض السيدات ليس لهن من الاحتشام نصيب سوى البرقع the Burka وتراقب الشرطة بعيون متساهلة مظاهر التهتك والانحلال ، لأن المنحلات والمتهتكات كن الى عهد قريب يدفعن للدولة ضرائب عالية ·

واذا عدت لحى المسلمين فانك تصاب بالذهول بسـبب اختـلاف الأصـوات وتباينها ، فالـكل يتحـدث ، وطبقات الصـوت أثناء الحديث متطرفة فهى اما همسا واما صراخا وجلبة ، ولا يستطيع الغرباء اقناع أنفسـهم أن النـاس هنـا يمكنهم أن يتناقشوا دون انفعال ، فكل من فى الشارع يصيح بصوت عال جدا (من طبقـة السوبرانو) فهـا هـو ذا الفلاح يصيح متوسلا للخفير الذى يقوده لمركز الشرطة : « فى عرضك ··

فى عرضك ، وكان يتبعهما (الفلاح والخفير) رتل من النسوة يولولن : « ياخراشى يا حسرتى ! يا ندامتى .. ! » أما الصبية فقد اختاروا احدهم وجعلوه « باشا » وأحاطوا به فى موكب ، وقد حملوا حزم القش لاشعال المشاعل ، وهناك من يسبق الموكب وهم يهتفون ببهجة واندفاع أبناء السنوات العشر ، بينما يصيح جندى مشاه يركض لاهثا أمام عربة الباشا حاملا مشعلا ضخما :

« اوع يمينك .. ! »

« اوع شمالك .. ! »

« اوع وشك .. ! »

« اوع رجلك .. ! »

« اوع ضهرك .. ! »

« صل على النبى ووسع الطريق »

فيرد المسلمون الطيبون :

« اللهم صل وسلم عليك يا نبى » .

وينكمش بعض الناس ملتصقين بالجدران لتجنب الضرب بالعصا ، وآخرون يندفعون عبر الطريق وكأنهم يتعمدون الوقوع فى الخطر . ويضرب صبى شقى بغل الجندى بجريدة نخل سميكة ، وهو لا يخشى فى هذا الموقف أن يضرب بالفلكة ، فينهره الجندى بأعلى صوته قائلا : « يا عرص .. يا قواد .. يا يهودى .. يا ابن الأعور .. لعنة الله عليك .. » ويغنى بائع الحبوب المشوية وهو يهز بضاعته سيئة المذاق لتحدث خشخشة فى سلته : « يا حمص .. يا بذر (يا لب) » ويصيح السقاؤون وهم يحملون قربا مليئة بالماء : « وسع الطريق ... وحد الله .. مية حلوة .. انعش روحك .. ! يا عصير الليمون ! » أما عن الشيش فان بائعها يضرب أجزاءها النحاسية بعضها ببعض لتحدث صوتا . ثم يأتى دور المتسولين المنتشرين فى بلاد الشرق : « عشانا عليك يارب (٩) عشانا عليك يا الله ... مين قدم شىء بيداه التقاه » .

---

(٩) يبدو أن الأمور اختلطت عند بيرتون لهذا القول الذى يقوله الشحاذون فى غير رمضان ، أما فى رمضان حيث الصيام فهم يقولون عادة : (فطر أخوك المسلم) أو (سحر المسلم) أو (حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة) أو (شهر الاحسان) .. الخ — (المترجم).

وأحد الباعة الجائلين الهرمين ـ ربما تضم سلاله (جمع سلة) بضائع أكثر من تلك التى تضمها سلال صاحب محل ذى شأن · ينادى على بضاعته ·

ويرد بعض اليونانيين الوقحين على مجرد لمسة من عكاز رجل عجوز قائلين : « يلعن أبوك ·· يا أخو القحبة ·· » (١٠) وتغنى امرأة عمياء وهى تضرب عكازيها أحدهما بالآخر ، برفق : « القبر ضلمة والحسنة تنوره » أى القبر مظلم ومصباحه الصدقات ، فيقول العابرون : « على الله ·· على الله يا بنتى ·· » وذلك عندما تتشبث « البنت » (١١) اللحوح ذات الستين ربيعا بأيديهم رافضة تركها دون الحصول على عملات نحاسية صغيرة · ويصيح ألبانى ذو حاجبين مخيفين وشارب طويل ، صيحة اصطلاحية لا يفهم أحد معناها الا استنتاجا : « أحضر الحلويات » ويقصد النار وخذ الكوب « المليان » ويقصد الفارغ ، بينما يكون صاحب المقهى جالسا بين الزبائن وقد دخل معهم فى « قافية » تنساب ذكية سريعة من شفاههم · وقد تكون الاجابة على طلب هذا الألبانى الراغب فى الصدام : « هنيئا » فيجيب : « أنت تشرب شرب عشرة » بدلا من الرد الدينى « هناك الله » · ويقول أحدهم فى القافية : « أنا الديك وانت الفرخة » فيرد عليه المتحدث الأول : « لا أنا التخين ، وانت ابره مصدية على الكوم مرمية » ·· وهكذا حتى قالوا تعبيرات غامضة يصعب نقل صوت هذا مرمية » ·· وهكذا حتى قالوا تعبيرات غامضة يصعب نقل معانيها حرفيا للانجليزية ·

وفى بعض الأحيان يعلو صوت هذا الضجيج والصخب على الصوت الشجى للمؤذن الأعمى منبعثا من شرفة المئذنة « حى على الصلاة ·· حى على الصلاة ·· حى على الفلاح ·· حى على الفلاح » وفى أذان الفجر تضاف عبارة « الصلاة خير من النوم ·· الصلاة خير من النوم » وعندئذ يهب المسلمون الأتقياء واقفين متمتمين : « لبينا دعوتك يا ربنا ·· لبينا دعوتك يا ربنا » ·

---

(١٠) من الواضح ان هذا ليس أسلوبا مصريا فى الشتائم فاضافة صفة سيئة للأخت أسلوب شامى ، ويبدو ان هؤلاء اليونانيين عاشوا فترة فى الشام ـ (المترجم) ·

(١١) فى مصر تتوقع المرأة أن تناديها بعبارة « يا ست » أو « يا حاجة » أو « يا عروسة » أو « يا بنت » رغم انها قد تكون فوق الخمسين ، اما فى سورية وشبه الجزيرة العربية فتناديها بقولك « يا مرة » أو « يالمرة » لكنك ان قلت هذه العبارة فى بلاد النيل أتاك الرد : « مرة فى عينك » أما ان أردت معركة حامية فقل لها : « يا عجوز » ـ (بيرتون) ·

وفى بعض الأحيان كنت أسير مع صديقى الى القلعة ونجلس فوق سور مرتفع حيث مسجد محمد على ـ وهو أحد انجازاته المتميزة ، لنستمتع بالمشهد الذى يبدو رائعا بالليل عندما يكون القمر قريبا من التمام فى فصل الصيف فيعطى سحرا وفتنة تعجز اللغة فى التعبير عنهما . وفى أحيان أخرى كنت أهرب من جو القاهرة الخانق فأمر مع صديقى عبر بوابة النصر لنصل الى القفر الكائن خلف المقابر لنستنشق هواء الصحراء النقى ونحن جلوس فوق بعض أكوام الخرائب ، وكأنما كنا نستقبل هذا القفر بود شديد عندما يشكل ضوء النجوم ورذاذ الندى المشهد المنبسط أمامنا والذى تعتريه مرتفعات صغيرة من الأحجار الطباشيرية (أحجار من رواسب رملية) وقد غطتها طبقة رقيقة من رمال راحت تمور كاشفة عن الصخور ، بفعل الرياح التى تهب ساخنة بالنهار . وهناك على مدى ميل غاص بمختلف أنواع الحياة كلها مهجورة لم يندمج فيها انسان ، فأسوار القاهرة تبدو مفتتة يوشك فتاتها على الانهيار ، والعرائش (جمع عريشة) غير مأهولة بالبشر والممرات غير مطروقة ، فالبرية تقبع خلفك وتمتد أمام ناظريك الآن القبور بشواهدها وببياضها الشاحب المروع ، بينما تنتصب خلفها أشباح طويلة قاتمة لأبراج السلاطين المماليك تطل برأسها من الأرض المنخفضة الخربة وكأنها أرواح سلاطين تحرس رعايا من الأشباح فى سلطنة من ظلال . أما الأصوات المنبعثة من هذه المشاهد فلا تقل ايحاء بأفكار الموت والفناء عما تراه العين . فأصوات الضباع ونباح الكلاب البرية ونعيق البوم الذى يطير على ارتفاعات منخفضة ـ كل ذلك لا ينسى .

وأحيانا كنا نقضى المساء فى أحد التكايا (جمع تكية) التى يفضل تسميتها بالمجلشانى Gulshani بالقرب من مسجد المؤيد خارج بوابة المتولى ذات القداسة (المباركة) وليس من شىء يلفت النظر فى مظهرها . ويجب عليك أن تصعد بخطى وئيدة وأن تدخل شرفة منخفضة حيث ضريح مخصص لأحد الأولياء . ويضم الطابقان غرفا صغيرة مظلمة يسكن بها الدراويش ، وتفتح أبواب الطابق الأرضى على الشرفة . وقلما يعقد الذكر Zikrs (١٢) خلال شهر رمضان فى التكايا . وثمة خليط عجيب من

(١٢) المقصود الذكر بمعناه الاصطلاحى عند الدراويش وهو ما يسميه الاوربيون « رقص دينى » . انظر « العثمانيون فى أوربا » تاليف بول كولز . ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ . الالف كتاب الثانى ـ ١٢٦ ـ (المترجم) .

البشر يتكون من متشردين مختارين من مختلف امم الاسلام · وبالاضافة لذلك فانه يجب على ألا أصف التكية وما يتم فيها لأن « طريقة » الدراويش ليست سهلة الفهم على أولئك الذين يسارعون بالتجديف او الانكار ·

ومن المثير أن ترى بعض امور اصدقائى الفرس القدامى ، فقد دعيت أنا والحاج والى الى بيت ميرزا حسين Mirza Hussayn الذى كان يعد ــ بسبب وقاره شهبندر ، وكان هو يسمى نفسه « القنصل العام » اذ كان يعتبر من بين اثنى عشر شخصا من اشباه الدبلوماسيين الصغار بالقاهرة ، وقد علق على بوابة بيته الضخمة شارة الأسد والشمس (وهي شارة فارسية فيها غطرسة) الا ان بعض الرسامين المصريين قد مسخوا الأسد الى مجرد قطة عتابية (رمادية الوبر ومنقطة بالسواد) ممسكة بسيف معقوف مع فتاة شابة مرحة ذات وجه ممتلىء وقد عقصت شعرها تماما واستراحت بشغف فوق ظهر حيوانها المدلل · لقد كانت غرفة الاستقبال فى الغاية من الفخامة مما يجعلها جديرة أن تكون قاعة · ففى مواجهة الباب توجد كنبات ووسائد مشكلة الصــدر او المكان الذى يجلس فيه ذوو المكانة ، وصفوف متوازية من الديوانات Diwans فى موضع أقل ارتفاعا من الصدر ، ويوجد صف من الموائد العارية · أما اكثر المقاعد انخفاضا فمصفوفة بمحاذاة الجدار الذى به الباب · وفى الوسط ثلاث مناضد صغيرة وثلاث مشكاوات (جمع مشكاه) ضخام تناظر فى فخامتها ووقارها فخامة مالكها ووقاره ، وتحوى كل مشكاة ثلاثا من أضخم الشموع العنبرية Spermaceti Candles .

لقد دخلت انا والحاج والى واتخذنا مجلسنا على الكنبات الجانبية بتواضع ، وتبادلنا التحية مع الرجل العظيم الجالس فى الصدر · وعندما أخذت مراسم الاستقبال حقها نهض الميرزا وئيدا وهب الجميــع وقوفــا لنهوضه ، بينما كان هو يتخلص من حذائه وبكل وقار اعتلى وسادته · انه رجل قصير ونحيل فى حوالى الخامسة والثلاثين من العمر ، ذو ملامح متناسقة وعلى رأسه غطاء من فرو خروف وله لحية ، وكلاهمــا (غطاء الرأس واللحية) منافيان للفطرة والذوق ، وكلاهما اسود كما أنهما مخروطيان (مستدقان) ويبلغ طول لحيته وغطاء رأسه اربعة أقدام على الأقل اذا قسناها من نهايتيهما (الغطاء واللحية) الى بدايتهمــا على قاعدة نحيلة لوجه اصفر شاحب · وبعد ربع ساعة من التشريفات واحاديث المجاملة والانحناءات مع وضع كف اليد اليمنى على الصدر من جهة اليسار قدموا النرجيلة للميرزا أولا نظرا لمقامه الرفيع ــ وربما كان هذا الميرزا فى طهران مجرد مساعد كاتب فى احــدى الادارات

الحكومية · وفى الوقت المناسب قدم لنا الخدم النراجيل (الشيش) الفارسية والقهوة ، وكان الخدم ينحنون باحترام انحناءات ملكية كلما مروا بالميرزا · كما أن أكثر من واحد من أتباعه يتمنطقون بالأحزمة ويحملون السيوف المعقوفة يدخلون القاعة لبث الهيبة والرعب فى نفوسنا ·

وكان حديثنا عن الأمور الشرقية المعتادة ، فمن المعروف أنك ترى فى بلاد الغربة أمورا تثير دهشتك ·.وقال الميرزا : « الترحال انتصار » وهو قول دارج مبتذل ومع هذا فقد أكده وتوقف عنده وضغط على مخارجه بطريقة ملكية مهيبة ، فتجيبه قائلا بالطريقة ذاتها :

« اذا غادرنا ديارنا تعلمنا الحياة حتى لو كانت الرحلة قطعة من جهنم » ·

واذا كنت طبيبا فان الرد البديل هو :

« بالقليل من العلم قد يدمر الأطباء الأبدان » ·

أو « بالقليل من العلم قد يحطم الكهان الأرواح »

وقد تجيب اذا أنست فى محدثك الماما بالآداب ـ بالسطور المشهورة التالية :

« حقيقة الأمر أن قدرة الطبيب فيما يقدمه من دواء ،

وقد يشفى الدواء المريض ان كان أجله لم يحن ،

لكن قصة أيامنا تروى فى حينها ،

فالطبيب أحمق ودواؤه يضله عن الطريق القويم » ·

وبعد أن جلسنا بوقار كبقية الضيوف استأذنت فى الانصراف بعد أن متعت عينى بالأثاث وغيره مما قدم لى مشهدا فارسيا حقيقيا · ولا يتقاضى الميرزا راتبا وانما يعيش من الرسوم التى يتقاضاها من رعاياه الذين يفضلون الدفع على فقدانهم للحماية ولأن دليل الميرزا (أو مترجمه) سيبيع مصالحهم دون أدنى خجل مقابل مبلغ معلوم (رسوم مقابلة يتقاضاها من خصومهم) · والميرزا فى كبريائه كأنه نبيل من حيث دمائه الزرقاء ووقاره المفتعل وفقره · وليس من قصاصة ورق تتم كتابتها فى القنصلية الا واخرجها الميرزا فى عربة قديمة تجرها خيول تركض بسرعة مجنونة مع أربعة من المرافقين الراكبين منهم اثنان يرتديان غطاء رأس مرتفعا أمام العربة ، واثنان يتبعانها · ويضحك المصريون من الأعماق

عند رؤية هذا المشهد فقد كان محمد على متعودا على مثل هذه العروض التي تستخدم فيها أزياء غريبة ٠

وقبل منتصف الليل بحوالى نصف ساعة ينادى المؤذن « بالأبرار » Abrar وهو دعوة للصلاة ، ففى مثل هذا الوقت يعود الناس الذين تعودوا السهر الى بيوتهم استعدادا للسحور ٠ ولابد أن تكــون منتبهــا لتحية كل خفير (حارس) بقولك : « السلام عليكم » خاصة اذا لم يكن معك « فانوس » اضاءة والا كنت عرضة للمبيت فى مركز الحراس ، ولا وجه للمقارنة بين الحارات هنا والشوارع التى يعرفها الأوربيون المتحضرون فالفارق بينهما كالفارق بين معبد مصرى (فرعونى) ومبنى برلمانى حديث ٠

وثمة مناظر بعينها تفرض نفســها على الذاكرة وتظــل لصيقــة بها كما يلتصق منظر السحب الرعادة فوق جبال الألب وليل الظلمــة العاصفة فى رأس الرجاء الصالح والأعاصير القمعية الأفريقية ، وربمــا كانت رحلة للصحارى الرملية هى اكثرها جميعا اثارة للرهبة فى النفس ٠

ومن بين هذه الأمور التى تفرض نفسها على الذاكرة تجول الانسان فى شوارع القاهرة القديمة ليلا ٠ فكل النــاس يبدون غير نظيفين فى ضوء القمر ، ففى العتمة لا ترى شيئا سوى الصور الظلية السلويتية (نسبة الى فن السلويت وهو الرسم بقص الأوراق) ٠ وعلى أية حال فعندما يكون القمر مرتفعا فى السماء ، ونجوم الصيف تمطر نورا على أرض الله فليس ثمة منظر يعادل هذا المنظر فى بهائه ٠ ونظرة من فــوق اطار النافذة ــ الذى لا يزيد عن ثلاثة اذرع ــ على شريط من السماء ذات الزرقة الشاحبة ، وفى أماكن كثيرة يكون الفاصل بين كل نافذة وأخرى أقل ، وهنا أفاريز (جمع افريز) وهناك ركائز البيوت تبدو متشابكة (مضفرة على شكل مشبكات) ، وقد تم الآن تمييز بعضها عن بعضها الآخــر بخطوط لامعة ذوات لون أبيض يحــاكى لون الثلج ثم بفيض من اللون الفضى بالغ الروعة بينما تحت الطنفــات (الكرانيش) النــاتئة والمشربيات المعلقة ذوات الأشكال الخشبية الرائعة تدعمها زوايا حاملة ودعائم عملاقة ، وتحت الشرفات وأقواس البوابات الواسعة لدرجة تسمح بمرور أفراس البحر ، توجد بقع كثيفة من الظلمة بسبب انطفاء مصابيح الزيت ، وللأقواس ملامح محببة ففى مواضع ترى القوس مجرد هيكل ، وفى موضع آخر تراه زاخرا بالأحجار المنقوشة والأشــكال الزخرفيــة المحفورة على الخشب ٠ ولم تبد الخطوط مستقيمة فجدران المسجد العالية

الصماء تميل على دعائمها الضخمة وتبدو المآذن النحيلة وكأنها على وشك السقوط فى طريقك ، والطنف (الكرانيش) تنتأ بشكل معقوف من المنازل بينما تقوم الجمالونات الضخمة بمجرد تدعيم لقوة الالتصاق (١٣) وقد يكون هذا الخط الجمالى غير مطلوب فالانثناء الرشيق الذى تبديه النخلة وسعفها الكائن فى قمتها يرتعش فى برد الليل ، وأشعة القمر تتلألأ خلال الهضاب الصغيرة أو خلال ظلمة البيوت اللصيقة بالأرض ٠ وباختصار فان المنظر برمته فى الغاية من الغرابة ، وفى الغاية من الخيال وفى الغاية من الروحانية ، لدرجة أنه يبدو من غير المعقول أن نتخيل انه فى مثل هذه الأماكن يمكن أن يولد بشر مثلنا يعيشون فى هذه الدنيـا ويتمون دورة الحياة فيتزايدون ويتضاعفون ويموتون ٠

---

(١٣) بمعنى ان ثقلها فوق دعائمها دون روابط اخرى هو أساس ثباتها فى مواضعها ٠ مواضعها ـ (المترجم) ٠

الفصل السادس

المســـجد

الأثر البيزنطى فى العمارة الاسلامية ـ المسجد النبوى ـ الاروقة فى المسجد ومعابد الحضارات الاخرى ـ المسجد الحرام كنموذج لحتذيه المساجد الاخرى ـ المساجد فى القاهرة القديمة ـ تدهور العمارة المصرية ـ مسجد ابن طولون ـ مسجد السلطان حسن ـ مسجد محمد على ـ الجامع الأزهر ـ مناهج التعليم ونظامه بالأزهر ـ رأى المصريين فى الشعوب الأوربية ·

بعد أن حطم البيزنطيون المسيحيون معابد الوثنية اعتزموا اعادة بنائها واعادة تشكيلها الا أن افتقارهم للروح الابداعية ، وجمودهم الفنى فرضا عليهم تلفيق العناصر المعمارية والحضارية التى سلبوها من غيرهم ، وتجميعها بشكل غير متناسق (١) · ولم تكن المواد لتعوز المعماريين فموانىء مصر وسهول سوريا وجبالها تزخر بأعمدة من جرانيت وصخر أسوانى ومرمر نفيس ، كما تزخر بتماثيل فرعونية واغريقية ورومانية ـ عامرة (الأعمدة والتماثيل) بكل التكوينات التشكيلية (٢) ، فالنزعة التوفيقية Syncretism للمعماريين والتى هى نتاج للصدفة والاندفاع ، والغلو واللامبالاة ـ لاقت أعينا جاهلة غاية الجهل بحيث لا يجرحها أن تقع على كل مخلط هجين يعوزه التناسق · لقد قام هؤلاء المعماريون بتخليد العناصر المعمارية المتنافرة فيما يسمى بالنمط العربى أو الاسلامى Saracenic Style مع أن جميع عناصر هذا النمط منتحلة

(١) كما تجلى ذلك فى تيجان الاعمدة على سبيل المثال · (بيرتون) ·

(٢) يحاول بيرتون فى هذا الفصل ارجاع كل عناصر العمارة الاسلامية الى حضارات سابقة أو معاصرة ـ أو على أقل تقدير يحاول اثبات وحدة الفكر المعمارى البشرى من حيث ان الوظيفة أو الحاجة هى التى تؤدى الى ايجاد الوحدة المعمارية أو المبانى ذات الوظائف المختلفة وهو ما يعرف بالوظيفة · وهذا ليس غريبا على بيرتون الذى لا تخلو صفحة من كتابة من استدعاء تشبيهات وأمثلة من حضارة الهند وأوربا وأفريقيا ، واستدعاء تشبيهات وتمثيلات من حضارات قديمة (اغريقية ومصرية مثلا) وحضارات معاصرة · قد تختلف أو تتفق معه ، لكن المكاره جديرة بالنظر ـ (المترجم) ·

من الأنماط المعمارية البيزنطية (٣) ومكررة معادة فى النمط المعمارى القوطى الذى هو فرع من النمط الاسلامى (٤) · وهذه الحقيقة تتجلى فى الأسلوب القوطى لتعدد عناصره المعمارية المتنافرة ، ولأن هذه الظاهرة فى أكثر حقبها كلاسية كانت مرادفة للفوضى المعمارية (عدم الاتساق المعمارى) فى أوضح صوره · ولم تكن هذه الفوضى (عدم الاتساق المعمارى) مقتصرة على المبانى التى تم انشاؤها خلال فترات زمنية طويلة ·

ان مثل هذا التدنى المعمارى الذى يستخف بعنصر التناسق (السيمترية) ، والناتج – فيما أعتقد – عن قصور فى الدمج أو الاستيعاب والخصوبة الفنية ، قد يجد – بلا شك – من يدافع عنه على أساس الأسباب التى أدت اليه والأثر الناتج عنه فالعمارة فن قائم على المحاكاة والمزاج لكن الألوف المؤلفة فى كل مكان تبتهج بالتغيير ولا تمقت شيئا مقتها للتشابه الكامل والتماثل الدقيق · ومن هنا ، فلكى ننسخ نموذجا معماريا (أو نحاكيه بدقة) يجب أن نبحث عن التناظر الوظيفى العام ونجعله منسجما مع الفروق الفردية ، وفى الحقيقة فانه يتحتم علينا أن نتجنب المبالغة فى اظهار الاتساق والنظام · ومرة أخرى فربما نؤكد أنه مهما كان عدم اتساق هذه الأشكال فانها قد تبدو للعين التى ألفتها واعتادت عليها – جميلة متسقة ، فاننا نجد من السهولة أن نتغلب على احساسنا المبدئى بعدم الارتياح لهذه العناصر المتعارضة وربما انتهى بنا الأمر الى الاعجاب بها ، فما دمنا نحب ، فان حبنا هذا يعوضنا عن عدم الاتساق بما فيه من تعدد وتباين وحدة فى التعبير ·

وأعتقد أنه لا جديد فى المسجد العربى (الاسلامى) فهو مجرد احياء غير واع للأشكال المعمارية التى استخدمت منذ عصور ممعنة فى القدم ، فهذه الأشكال المعمارية القديمة كانت تدل بالرمز على عبادة آلهة مولدة أو خلاقة · وسيعذرنى القارىء اذا ألقيت مجرد نظرة على موضوع قد

---

(٣) يقول بيرتون فى تعليقه ان هذا الاقتباس المباشر من الانماط المعمارية البيزنطية واضح تماما فى مساجد القاهرة القديمة · ولا ننكر تاثير الحضارات بعضها فى بعضها الاخر ، لكن انكار « خصوصية » كل حضارة فيه تجاوز شديد ، فهل أخذ المسلمون من الحضارة البيزنطية فكرة (الميضاة) أو مكان الوضوء ؟ بالطبع لان الوضوء خاصية اسلامية · وفكرة الأروقة الأربعة فرضها وجود مذاهب اسلامية أربعة ، ولو كانت خمسة لكانت الأروقة خمسة ·· وهكذا · ما دخل الحضارة البيزنطية بعدد المذاهب الاسلامية ؟ (المترجم)

(٤) يقول بيرتون ان الاسقف المحمولة على اقواس (عقود) تحملها أعمدة لم تعرف فى الآثار التقليدية ولا فى المساجد الاسلامية فى عصورها الباكرة ·

يتطلب البحث فيه مجلدا ، كما أن مناقشته بالتفصيل ليست موضوع هذا الكتاب ٠

لقد كان أول مسجد فى الاسلام هو الذى أسسه محمد (صلى الله عليه وسلم) فى قباء بالقرب من المدينة (المنورة) ٠ وقد حطم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعـد ذلك بوقت يسـير ثلاثمائة وستين صنمـا كان العرب يعبدونها ، وطهر الكعبة (المشرفة) من هذه الأوثان بعد فتح مكة (المكرمة) ٠ وربما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد لاحظ قبل ذلك فى بصرى Bostra بالشام التصميمين المعماريين المناسبين للعبادة المسيحية » (٥) ، وهما : الصليب والباسيلقا متوازية الأضلاع Parallelogramic Basilicia (٦) ومن هنا فقد فضل محمد (صلى الله عليه وسلم) للمصلين المسلمين الشكل المربع دون رواق معمد مسـقوف كما يذكر بعض المؤلفين أو برواق معمد مسقوق كما يذكر مؤلفون آخرون ٠ وأخيرا — فى عهد الوليد بن عبد الملك (٩٠ هـ) ظهرت القبة والمحراب والمئذنة واتخذت مظهرها المعروف وظهر بالتالى ما يطلق عليه النمط العربى أو الاسلامى الذى ظل بعد ذلك نظاما معمـاريا أبديا للعـالم الاسلامى ٠

واعتقد أن الهندوس هم أول من ربطوا عبادتهم برمز ، هو المثلث المتساوى الأضلاع ، فاليونى لنجـا Yoni-Linga فى عمارة معابدها أصبحت اما مخروطية أو هرمية كاملة ٠ أما مصر فقد ميزت عقيدتهـا بالمسلة وهى وحدة فنية اختصت بها ، وان ظهـرت فى أنحـاء مختلفـة من العالم ، وهى — أى المسلة — فى انجلترا مجرد عمود حجرى ، وفى أيرلندا مجرد برج أسطوانى وقد تابع دانسرفيل D'Hancarville وبروتير Brotier بنجاح العبادات ذاتها فى مختلف معانيها ومتغيراتها عند كل

---

(٥) لقد بنى الرسول صلى الله عليه وسلم المسجد النبوى بالمدينة المنورة ، وكذلك المسجد الحرام بمكة المكرمة ببساطة شديدة ، حكمتها مساحة الأرض المتوفرة ، فمسجد مكة المكرمة كانت تتداخل فيه البيوت مثلا ، كما حكمه المواد المتوفرة وهى الأحجار وسعف النخيل وجريده وجذوعه ٠ ومن التنطع أن نقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قلد نمطا بيزنطيا أو غير بيزنطى ، أو تحاشى تقليد النمط البيزنطى أو غير البيزنطى ، وكان مسجد الرسول بالمدينة ، والمسجد الحرام بمكة المكرمة على أيام الرسول بلا مآذن ، ولا محراب منحوت ٠ أليس من الغريب أن يقع بيرتون — وهو بلا شك رحالة بارع وعالم قدير ، بل ومتعاطف مع العرب والمسلمين فى هذا الخطأ ؟ ! — (المترجم) ٠

(٦) الباسيلقا مبنى رومانى فى أحد طرفيه جزء ناتىء نصف دائرى ، وقد تعنى كاتدرائية كاثوليكية ٠ وهذا ليس المقصود هنا ، كما قد تعنى كنيسة قديمة مبنية على هذا الطراز — (المترجم) ٠

الشعوب ، فالرمز يوجد فى كل مكان · فالمئذنة العربية الباكرة برج أسطوانى أملس أو مضلع دون شرفات أو منصات ، ثم اتسع الاختلاف بين المآذن عند الأتراك والمصريين وأهل الحجاز — من ناحية الأسطوانة والموشور Prism · وقد قارن رحالة فرنسى بين أشكال المآذن وأشكال الشموع Un Chandelle Coiffeé وأخيرا فالمآذن الأولى كانت صلدة مثلها فى ذلك مثل كل العناصر المعمارية القوطية ، وزودت — أى المآذن بأبراج هى نفسها القمة المستدقة والبرج الداخلى لدى أجدادنا الأوربيين ·

ومنذ عصور سحيقة كان الصحن المكشوف اما مربعا أو مستديرا يحاط بأروقة مسقوفة فى المناطق الحارة والممطرة — وكان يستخدم — أى الصحن — لغرضين من أغراض الكنيسة والسوق على سواء وهما عبادة الله وعبادة الشيطان ، لكل دوره · وفى بعض الأماكن وجدنا حلقات من الحجارة كمعابد النار الفارسية ، وفى أماكن أخرى مبنى دائرى مقعر يمثل القبة السماوية حيث تعبد النار وغيرها من الرموز المقدسة ، وفى شبه الجزيرة العربية أروقة معمدة تعلوها قبة زرقاء بهية تشبه بستان النخيل · وقد تبنى اليونانيون هذه الفكرة فى هياكل الاله باخوس Creator Baccus (اله الخمر عند اليونان) وفى بوزولى Pozzuoli بالقرب من نابلس ، ويمكن مشاهدة ذلك فى المبنى الذى يسميه العامة معبد سيرابيس Serapis · وهذا التكوين المعمارى معروف تماما للكلتيين kelts ففى بعض الأماكن جعلوا التيمينو دائريا وفى أماكن أخرى جعلوه رباعى الزوايا · والصحن فى مساجد الاسلام لا يختلف عن الصحن فى المبانى الدينية آنفة الذكر فى الحضارات غير الاسلامية وحتى الرواق وهو الجزء المسقوف الذى يحيط بالصحن هو احياء لأفكار معمارية أقدم عهدا · فالجزء من المبنى المربع الذى يضم معبد سيرابيس ليس جزءا من الهيكل وفقا للرأى الشائع وانما هو سكن للكهنة وموضع لتقديم الأضحيات وحفظ البقايا والأدوات المقدسة ، كما أنه مصلى مكرس للآلهة الثانوية التى كانت نتاج عبادات محرفة وأكثر تعقيدا · فالأروقة فى المسجد أصبحت بمثابة خلايا تستخدم كقاعات لالقاء الدروس ومكتبات لحفظ الكتب الموقوفة على المعهد · وهذه الأروقة غير متساوية فى مساحاتها اذ أن المطلوب أن يكون أحد الأروقة أوسع من غيره ، والسبب ذاته يكمن وراء اختلاف المساحات عندما يكون المبنى مكونا من أربع مساحات معمدة تنتهى الى صحن المسجد · فرواق القبلة — حيث يحتشد المصلون غالبا — لابد أن يكون أوسع من سواه من الأروقة الثلاثة الأخرى · كما أن الجناحين (الرواقين الجانبيين) عادة ما يكونان غير متساويين اما لنقص فى مواد البناء واما لأن متطلبات استخدامهما

لا تتطلب أن يكونا على درجة واحدة من الاتساع ، أما أعمدة الرواق فمن مواد مختلفة ، فبعضها من الرخام الجميل وبعضها الآخر من الأحجار الخشنة ، وتيجانها غير متشابهة ، أما اسطواناتها فنحتت بطريقة فجة وهى مختلفة الحجوم ، وتوجد قوصرات Pediment هنا وتنعدم هناك ، وتقلب ـ أى القوصرات ـ رأسا على عقب حينا ثم تتصل معا من انصافها ، وغالبا ما يتم ذلك بعدم اتساق بسبب الجهل بقواعد توزيع المسافات بين الأعمدة · كل ذلك نتيجة النزعة التوفيقية البيزنطية التى طعمت الفكر العربى بالاهمال والجهل ، فحب العظمة أو الفخامة والاعجاب بها ، بالاضافة الى ضخامة الخطة المبدئية (التخطيط المبدئى) وطموحها أديا بهم الى قلة الاهتمام بتنفيذ التفاصيل المجردة ، لقد أعوزتهم الفطنة فلم يدركوا الأثر الذى يتركه العمل غير المتقن والخطوط المعوجة والتوصيلات المكشوفة ··· مما سينطبع على المبنى ككل متكامل · واستخدامهم للألوان يدل على ذوق سقيم ، وهذا الذوق السقيم فى الألوان يظهر فى المبانى الدينية وفى تماثيل الآلهة عند الشعوب المختلفة ، فالهندوس يطلون معابدهم متعددة الأدوار (باجوداتهم Pagodas من الداخل والخارج بأن يحكوها بصبغ كبريتور الزئبقيك (القرمزى) وكذلك تماثيل الهتهم توقيرا لها · ومعبد قيومار الفارسى وشبيهه فى طريق بلخ ، وكذلك أبو الهول فى مصر والمعابد الفرعونية على النيل ـ جميعها لا زال يبدو عليها آثار تعقيدات غير طبيعية (يقصد أصباغا) ، والهياكل فى المبانى الاغريقية الكلاسية كانت مسبوقة · وفى مبانى المنتديات الرومانية العامة لازالت تحمل آثار الصبغ الأرجوانى · ونضرب مثالا اخيرا ، ففى الكنائس وأبراجها فى ايطاليا الحديثة نرى أشرطة (نطاقات) من الوان بيضاء وسوداء وكأنها قد صممت ـ لتعطى مظهر الحمر الوحشية الضخمة · وأصل الزخارف العربية Arabesque يرجع الى أحد مبادىء الاسلام فالمسلمون ممنوعون بحكم الشريعة من تزيين مساجدهم بالتماثيل والصور ، لذا فقد زخرفوا مساجدهم بكتابات قرآنية وبفنون تشكيلية ميتافيزيقية معقدة للغاية (تبعث على الحيرة والارباك) وقد استخدم المسلمون أبجديتهم العربية لتحقيق هذا الغرض · وهنا ربما نشأت تباينات لا يمكن تخيلها فى النقوش المتشابكة وتباينات فى الطبقة الخارجية (القشرة) وفى الزخارف العربية وفى الورود الهندسية (التى تتخذ أشكالا هندسية) فتبتهج العين بحيرتها فيها (تضيع العين فيها) ·

لقد أصبح المسجد الحرام بمكة المكرمة نموذجا يحتذى فى العالم الاسلامى ، فالشعوب التى اعتنقت هذه العقيدة الجديدة (الاسلام) قد بنت مساجدها على نسقه ، تماما كما قلدت الشعوب المسيحية المذبح المقدس • فمسجد عمر بن الخطاب فى القدس ومسجد عمرو بن العاص فى بابليون على النيل ومسجد ابن طولون فى القاهرة ، قد تم انشاؤها جميعا — مع بعض التحسينات الطفيفة — على نسق الأروقة ذوات العقود والأفاريز المزينة بأشرطة من كتابات عربية على نسق (كسوة) الكعبة (المشرفة) • ومن مصر وفلسطين انتشر المرتسم الأفقى ichnography طولا وعرضا • وقد تم تكييفه — كما هو متوقع — وفقا لأذواق الأمم ، فما كان فى شبه الجزيرة العربية أنيقا بسيطا ، أصبح فى اسبانيا مفعما بالمزينات (٧) ، وأصبح مزخرفا منمقا فى تركيا ، وأصبح ثابتا قويا فى سوريا ، وأصبح ذا طابع أنثوى فى الهند • ان اختلاف التفاصيل لم يغير من الناحية العملية التكوين الأساسى للمسجد رغم انقضاء اثنى عشر قرنا •

وربما لا توجد مدينة شرقية فى امكانها أن تقدم لنا نماذج متعددة أو نماذج متاحة لعمارة المسجد — مثل القاهرة ، ففيها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة مكان للعبادة ، بعضها كركائز شامخة وبعضها مكشوف مخرب وكثير منها جديد ، وأكثر من الجديد تلك المبانى الخربة التى ضربتها الزلازل ، ومآذنها تضارع فى ميلها برج بيزا — وجميع هذه المساجد يمكن للرحالة دخولها • وقد أمكن للأوربيين الذين اتبعوا نصائح أصحاب الفنادق التى يقيمون فيها أن يتوغلوا فى هذه المساجد ، فذلك أمر متاح • واذا كانت عمارة هذه المساجد تعود بالفعل للعصر الذى تنتسب اليه — وهو ما أعتقد فى صحته — فانها تدل على أقصى درجات الاحساس الفنى للشعب • وتتيح هذه المساجد مقارنة العمارة فى العهود المختلفة لملاحظة كيف أن كل دولة قد بنت مساجدها ومآذنها باطلاق اسمها عليها ، كما تتيح هذه المقارنة متابعة التدهور فى فن العمارة حقبة حقبة طوال ألف ومائتى عام حتى أيامنا هذه • وهو أمر ليس من المعتاد أن يهتم به الشرقيون • وعلى أية حا لفان حدود برنامجى قد أجبرتنى على أن أشير للقضايا الأساسية فقط ، وقد يدفع هذا بعض الرحالة العلماء لبحث الموضوع بالطريقة المناسبة لاهتماماتهم • فجامع ابن طولون المهمل (القرن التاسع) بسيط وفخم بل ويتسم بالعظمة وبه خصوصية فى بعض

---

(٧) انظر الوصف المعجب لمسجد قرطبة الذى قدمه Theophile Gautier (بيرتون) •

تفاصيله ، ولا يزال أحد صفوف الأعمدة الأربعة باقية ، ولا يقبع تحتها المساكين لترينا – أى صفوف الأعمدة – عظمة المبنى بعد تشييده ، أما أروقة المسجد الأخرى فمسورة ويقطنها الناس · وصحن المسجد مربع طول ضلعه مائة خطوة وفى وسطه مبنى له قبة منبثق من موضع متوسط ، كموضع الكعبة فى وسط صحن المسجد الحرام · وهذا المسجد (الكاتدرائية) مثير للانتباه باعتباره نقطة فارقة (يمثل مجالا للمقارنة) فاذا كان مشيده يريد أن يجعل منه نسخة طبق الأصل من المسجد الحرام بمكة المكرمة سنة ٨٧٩ للميلاد ، فان مبنى المسجد الحرام قد تغير كثيرا فى أيامنا هذه عما كان قبل ذلك ·

ويلى مسجد ابن طولون تاريخيا ، مسجد السلطان الحاكم ثالث الخلفاء الفاطميين ومؤسس العقائد الدرزية الغامضة ، فالمآذن – هنا – تلفت النظر بأشكالها واحجامها ، فليست مزودة بالشرفات الخارجية المعتادة كما أنها قائمة على مبنى مكعب ، وبها نوافذ يتضح بجلاء أنه لا معنى لها · وقد اخبرنى القاهريون المتعلمون أن هذه القمم المستدقة او العساليج (جمع عسلوج) قد ابتكرها ملوك شواذ لنشر دخان البخور فوق القاهرة اثناء اداء الصلوات فهى بمثابة مباخر ضخمة · أما الجامع الأزهر ومسجد الحسنين فيعدان من المساجد البسيطة وأعمدتهما خالية من الفن ، وهما مسجدان مشهوران بالطهارة والقداسة ، وان كان من الملاحظ خلوهما من الأعمال الفنية · وعلى أية حال فليس هناك مبنى من المبانى التى تتسم بالفخامة فى مظهرها أو توحى بأفكار اكثر نبلا عن مؤسسيها ، أو مهندسيها – يفوق مبنى المسجد الذى يحمل اسم السلطان حسن · فالغريب يقف مبهورا أمام جدرانه الشاهقة دون ثغرة واحدة ، وأمام صحنه القاسى ذى الجمال الرجولى ، وأمام بوابته التى قد تكون ملائمة لأحد قصور التيتان (الجبابرة) ، وأمام مئذنته السامقة التى تنم عن عظمة جبارة · وهذا المسجد (تم الانتهاء منه سنة ١٣٦٣ للميلاد) الذى يمثل حصنا فى أحد جوانب تكوينه المعمارى – لا علاقة بينه وبين الجهود المعمارية التى تمت فى الحقبة الأخيرة ، الا كالعلاقة بين كاتدرائية كانتربرى والطرز المعمارية الانجليزية «الهندية القوطية» (!!) ويعتبر مسجد السلطان حسن ، بالاضافة الى قبر قايتباى وغيره من قبور السلاطين المماليك – من المبانى التى تدعو للاعجاب وتعطى احساسا بالفخامة رغم تربعها على الخرائب · وقلما يرى الرحالة ما هو اكثر جمالا من الأضواء المنبعثة من الزجاج الملون والتى تلقى بنورها على الأرض الرخامية عندما يحل المساء ·

ويجب على الرحالة أن يزور المساجد الحديثة فى مصر ليرى العمارة المصرية فى مرحلة تدهورها ، فمسجد السيدة زينت (ستنا زينب) الذى أسسه مراد بك المملوك الذى واجهته الحملة الفرنسية يظهر حتى بعد اتمامه بعض شواهد التخلف فى الذوق المعمارى ٠ وليس هناك ما هو أكثر دعوة للغثيان من ذلك المبنى الذى يحث كل سائح حماره ليراه (السائح وليس الحمار) ألا وهو مسجد محمد على ذو التكاليف الباهظة ، فمهندسه اليونانى قد بذل قصارى جهده فى المبالغة ليجعل المسجد يضاهى عظمة مبنانا الانجليزى الموسوم باسم المقصورة الشرقية oriental pavilion أما من الخارج فكما يغنى منكتون ملنر :

« المآذن المتلألئة نحيلة وسامقة »

فمآذن المسجد نحيلة جدا وتشمخ مرتفعة جدا فوق مستوى القباب المتكتلة معا لدرجة أنها (أى المآذن) تبدو كمغازل العجائز الشمطاوات ، وقد جعلت فى مواجهة كاملة ، مع مسجد السلطان حسن العملاق ، مما يظهر التناقض بكل عيوبه ٠ أنسى المهندس القوس المستدق the pointed arch ذلك أن هذا المبنى (مسجد محمد على) ذا الطالع السيىء لابد أن يلحقه الخزى بسبب هذه النوافذ المصنوعة من خشب وزجاج ، على هيئة متوازيات أضلاع صغيرة وكبيرة ، وضعها المهندس وشكلها ليعطى مظهرها الخارجى مظهر المسرح الأوربى بقباب شرقية ؟ وقد أنفقت النقود بتبذير على المرمر الملىء بالشقوق والعيوب والذى يكسو بعض جوانب المسجد من داخله وخارجه ٠ وحول قواعد الأعمدة وضعت عقد مذهبة ، وفى بعض المواضع زخرفت الجدران بخطوط لتبدو كأنها من رخام أما الأشغال الخشبية فقد كسوها بصفائح ذهبية لامعة٠ وبعد القاء نظرة على هذا المبنى غير الجميل ، لا يعجب المرء من قول كبار السن من المصريين من أنه رغم التعليم الأوربى ورغم النفقات التى تم انفاقها لتشجيع الهندسة والعمارة ، الا أن الفن الحديث يقدم لهم ما يبعث على الانقباض ، مناقضا فى ذلك الأعمال المعمارية والفنية القديمة ٠ ويقال ان صاحب السمو عباس باشا ينوى اقامة مسجد له يتخطى طموح الجيل الأخير ٠ وأود أن أتجرأ فآمل أن يشعل مهندسه « النار المقدسة » من مسجد السلطان حسن ، لا من مسجد محمد على ذى الفخامة التركية اليونانية ٠ فمسجد السلطان حسن يشبه فى أصالته العثمانية غير الزائفة فى الأزمنة العثمانية الأولى ، أزمنة القوة والرزانة والتكوينات الوقورة التى تشير لعقل قوى ـ والتى تدل على عظمة الانسان وعناده ٠ أما مسجد محمد على ففيه أناقة الأتراك وضعفهم بعد أن لبسوا البنطلونات وسترات الفراك Frock Coats (السترات

التى تبلغ الركبتين ولونها أسود) والطرابيش ـ لباس سقيم وأحوال سقيمة ، ونسل سقيم غير طبيعى شكلا ومضمونا (بدنا وروحا) ٠

وسندخل الآن الجامع الأزهر ٠ لقد خلعنا صنادلنا وأخفافنا عند سور خشبى منخفض ، وأمسك كل منا صندله (أو خفه) بيده اليسرى بحيث يكون نعل كل (فردة) ملاصقا لنعل (الفردة) الأخرى حتى لا تتساقط منها القاذورات ، وعبرنا العتبة بأقدامنا اليمنى ونحن نقول : « بسم الله » ثم دلفنا الى الميضة Mayza'ah وهى خزان ماء للوضوء ، اذ أن الشريعة الاسلامية لا تقر دخول المسجد بغير وضوء (*) وبعدئذ فتشنا عن مكان ملائم للصلاة ووضعنا صنادلنا وأخفافنا فى موضع آخر أمامنا لنحذر المتسكعين ، وصلينا ركعتين « تحية المسجد » ولما أتممنا ذلك رحنا نجول باحثين عن المواضع والأشياء المثيرة للفضول ٠

القمر يسطع ببهائه على صحن المسجد المرصوف (أى الصحن) بالأحجار التى نعمتها كثرة أقدام المصلين التى تمر عليها ، فجعلتها براقة لامعة كالزجاج ٠ وثمة ظلمة داخل مبنى المسجد ، وهو مساحة مستطيلة ضخمة تشكل غابة من الأعمدة النحيلة ذوات المنظر المتواضع ٠ انها صفوف من الأعمدة الرخامية الماثلة (أى الصفوف) التى نصبت كالأشجار المصفوفة على جانبى طريق ريفى ، وقد فرشت الأرض بحصير بال وغير نظيف ٠ وثمة بعض المصابيح القليلة تلقى بضوئها الواهن على مجموعات قليلة يناقشون بعض مسائل النحو أو يستمعون الى الكلمات الحكيمة التى تتساقط من فم أحد الوعاظ ٠ وسرعان ما غادروا البناء المعمد (ذا الأعمدة) وتناثروا على أحجار الصحن لينعموا بالهواء الطلق ويتجنبوا بعض البراغيث ٠ اننا الآن فى وقت « اجازة طويلة » لذا فقد تحول المسجد الى مكان كالخان يرتاده المسافرون ، وربما كانت امم لا حصر لها تلتقى به ، فثمة خليط من اللغات فى المسجد ، وثمة ضجيج يصم الآذان فى أوقات ٠ وحول الصحن تدور صفوف الأعمدة (فى الأروقة) جيدة البناء وقد زين طبان (محمول) (٨) هذه الأعمدة بالرقش العربى القرمزى ، وتقضى الجدران الداخلية لغرف مغلقة الآن بأبواب ذوات الواح خشبية سميكة ، ويحوى الأزهر أربعة وعشرين رواقا ؛ رواق

---

(٨) الطبان أو المحمول entablature هو كل ما فوق العمود : التاج ، والساكف والافريز (وتكون عليه الزخارف ، والطنف وهو ما فوق الافريز ٠ عن معجم مصطلحات الفنون لعفيف البهنسى ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ (المترجم) ٠

(★) الشريعة الاسلامية لا تقر الصلاة بغير وضوء أما مجرد دخول المسجد فلا يشترط فيه الوضوء ـ (المترجم) ٠

لكل أمة من أمم الاسلام المعترف بها ، ومن بين هذه الأروقة لا يزال أربعة عشر رواقا مشغولة بالطلاب ، ولا نجد داخل هذه الاروقــة الا الحصر وعددا من الصناديق الخشبية الكبيرة الداكنة ، كانت ذات يوم تمثــــل مكتبة الجامعة (يقصد الجامع) الا أن هذه الصناديق فارغة الآن ، وفقا للأقوال الســـائدة ٠

لا شيء يستحق أن يراه المرء فى مجموعة الغرف المظلمة التى تشكل بقايا الأزهر ، فحتى زاوية العميان التى كانت تخرج أعدادا كبيرة من الطلاب والأساتذة قد أصبحت مكانا ليس به ما يثير سوى تعصب النازلين فيها ، والحقيقة أننا اذا تعرفنــا على ما فى هذه المعتزلات ، فســـنلقى بالقفاز تحت عصى مالكيه ــ العميان الغاضبين ٠

والأزهر هو الجامع والجامعة فى القاهرة ، وكان ذات يوم مشهورا فى العالم الاسلامى كله ٠ وقد بناه القائد جوهر الذى كان عبدا لتاجر مراكشى ــ كما أخبرونى ــ أثر رؤيا منامية تلقى فيها أمرا بأن ينشىء مسجدا يشع نور العلم على الاسلام » ٠

واتسع الجامع الأزهر بالتدريج بفضل الأوقاف من أراض وأموال وكتب ، وعمل الحكام الصالحون على توسيعه واثرائه ٠ الا أن أحواله قد تدهورت فى الأعوام الأخيرة نتيجة التشتت Sequestration ونتيجة تدنى قيمة العلوم الاسلامية الخالصة فى مصر الآن ٠ ومع هذا ففى الأزهر الآن ما بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ طالب من مختلف الأمم والأعمار يتلقون العلم مجانا ٠ بل ويقــدم لهم الخبز بكميات تتقرر حسب عدد النزلاء من أمة الطلاب فى رواقهم ــ وبعض الملابس فى الأعياد ، وقروش قليلة مرة كل عام ٠ أما الأساتذة (العلماء) الذين يبلغ عددهم ١٥٠ فقد لا يأخذون رسوما (أجــرا) من طلابهم ويلقى بعضــهم محــاضرات (دروسا) ابتغاء مرضاة الله ، بينما يبغى آخرون الحصول على شرف أن يكون « استاذا بالأزهر » ٠ ويتلقى ستة موظفين رواتب من الحكومة هم : شيخ الجامع وهو بمثابة العميد ، وشيخ السقا (شيخ السقائين) الذى ينظم امداد المسجد بالماء للوضوء ، والباقون هم بمثابة رؤساء أقسام ٠

وفيما يلى طريقة الدراسة فى الأزهــر ٠ فالولد يظل لمدة أربــع سنوات أو خمس يتعلم ترتيل القرآن (الكريم) ضربا بالعصا ، وفقا للحكمة الشائعة « عصا المعلم الخضراء من شجر الجنة » دون أن يفهــم معناه (أى القرآن الكريم) ، كما يدرس مبادىء الحساب ، واذا ما اعتزم أن يدخل فى زمرة العلماء ، تعلم فن الكتابة ثم يسجل اسمه فى الأزهر ،

ويعد نفسه لدراسة العلوم ذات الجذور العميقة فى الاسلام وهى النحو والفقه والحديث والتفسير ٠

ويقرأ الشاب المصرى فى الوقت نفسه فى الصرف والنحو ، ولكن لأن العربية هى لغته الأم فليس من الضرورى دراسة الصرف بتعمق كما يفعل الأتراك والفرس والهنود عندما يدرسون العربية واذا رغب — على أية حال — أن يكون متخصصا كفئا فان عليه أن يتابع دراسة خمسة كتب فى الصرف وستة فى النحو ٠

وبعد أن أصبح الطالب متخصصا بارعا فى النحو ، فانه يخصص نفسه بعد ذلك للهدف النهائى وهو الدين ٠ وتوجد أربعة مذاهب هى مذهب أبى حنيفة ومذهب الشافعى وهما مذهبان شائعان فى القاهرة ، أما اتباع مذهب الامام مالك فيوجدون فقط فى صعيد مصر وفى بربرة Berberah أما المذهب الحنبلى فغير معروف غالبا ، وتبدأ دراسة التوحيد والفقه بما يسمى دراسة المتن وهو نص موجز وجاف وغامض فى الغالب ، وفى الحقيقة فان المتن لا يتعدى أن يكون هيكلا للموضوع لا يضم سوى رؤوس الموضوعات ويتعلم الطالب المتن بتكرار قراءته حتى يستطيع تكرار كل فقرة فيه حرفيا ، ثم يبدأ فى دراسة الشرح وقد ألفه — بشكل عام عالم آخر غير الذى ألف المتن ، ويقدم الشرح توضيحا لبعض ما غمض فى المتن ٠ انه مجرد توسيع للمتن ، ويعرض المسائل الشاذة أو الاستثنائية والأسباب (التعليلات) ومجرد عرض للمبادىء العامة ٠ واذا كان المتن صعبا زود فى بعض الأحيان بالحواشى ، لكن هذه الحواشى المعينة لا تحظى بالقبول فثمة قول هزلى شائع مؤداه :

القراءة بالحواشى ،

لكن التعليم بالصم (الحفظ دون فهم) (٩) ٠

وذلك يرجع لعدم تنمية قدرات الطالب على التعليل أو معرفة الأسباب بالتدريبات فهو يتعلم أن يعتمد على أقوال أستاذه اكثر من اعتماده على

---

(٩) النص : Who readeth with note But Learneth by rote.

ولابد أن المقابل العربى كان مسجوعا منغوما ، لكننى اكتفيت بنقل المعنى كما هو واضح — (المترجم) ٠

أن يفكر بنفسه . كما يؤدى هذا الى اهمال ممارسة أخرى يدافع عنها معلمو الشرق بشدة ، تتجلى فى قولهم :

المحاضرة واحدة

والآراء (حول موضوع المحاضرة) ألف .

فلكى تصبح فقيها أو عالم توحيد ذا شهرة فان كنت حنفى المذهب لابد أن تدرس حوالى عشرة مجلدات - بعضها ضخم ، ومكتوب باسهاب ، أما القراءة في المذهب الشافعى فليست شديدة التوسع بهذا الشكل . ولابد من دراسة الفقه والتوحيد بتعمق لأنه يؤدى بدراسة مباشرة الى اكتساب الرزق يوميا (أكل العيش) باعتباره واعظا أو معلما ، أما العلوم الأخرى فمهملة لسبب عكس الذى ذكرناه آنفا .

وعلماء الفقه والتوحيد فى مصر - مثلهم فى ذلك مثل أقرانهم فى سائر العالم الاسلامى . يجب أن يلموا الماما كبيرا بحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسيرته . وفى هذا المجال توجد ثمانى مجموعات مشهورة ، وان كانت الأعمال الثلاثة الأولى منها هى التى تقرأ بشكل عام .

وفى مرحلة باكرة يتعلم الأطفال قراءة القرآن ، اما فى المرحلة الجامعية (عندما يلتحقون بالأزهر) فيتعلمون مزيدا من القراءات . واسلوب التعليم فى هذا المجال هو الحفظ وهوالأسلوب التعليمى الشائع فى مصر ، بل والعالم الاسلامى كله . وبعد أن يتعلم الطالب كيف يرتل القرآن الكريم ، يكون لدى بعض العلماء الطموح الكافى للرغبة فى فهمه. وفى هذه الحال عليهم أن يطرقوا باب علم التفسير .

لقد أصبح طالبنا الآن بعد درس كل هذا وحفظه فقيها كاملا أو ملا (*) Mulla ، ولكن اذا لم تهيأ للطالب الفقير منحه دراسية واشراف علمى ، فليس عليه أن يتطلع لحياة رغدة . وبعد أن يكون قد أضاع سبع سنوات أو ضعفها فى دراسته ، وقرأ حتى دار عقله وفقد صوابه وأصبح نصف أعمى ، فان عليه اما أن يتهالك على الصدقات المقدمة للكلية (الجامع) أو أن يجثم فى دكان عطارة مثل شيخى العجوز محمود أو أن يعظ ويعلم فى بعض القرى والبلدان مقابل ثمانية جنيهات استرلينية فى العام . وفى ظل هذه الظروف ، يعجب المرء كيف يقدم الأزهر أى دافع للدراسة به ، لكن رجل الجنوب (ربما يقصد العالم الثالث ، أو أهل الصعيد ، والمعنى الأول هو الأقرب) عاطل كسول بشكل

(★) ملا - بضم الميم وتشديد اللام وفتحها - (المترجم) .

أساسى ، وبذلك يتخرج كثيرون من الأزهر ويصبحون علماء لا يفعلون شيئا ، مثلهم فى ذلك مثل الرهبان الكابوشيين Capuchians · والقلة الموهوبة تصل الى درجة مدرس ومن ثم يصبحون قضاة ومفتين ، وهـذا دافع آخر للالتحاق بالأزهر ، فكل طالب لم يتخرج فى الأزهر بعد وقد وضع عينيه على منصب القاضى مع أن فرصة وصوله لهذا المنصب لا تزيد عن فرصة كاهن الابرشـية فى أن يصـبح كاردينـالا · وبعض خريجى الأزهر يحطون من قدر أنفسهم ليعملوا كوكلاء Wakils (محامون) أو يجربون حظهم فى الأعمال الكتابية ـ كمحاسبين حكوميين ، أو لدى أفراد ·

وقبل أن أنهى الحديث فى هذا الموضوع أقول اننى لا أسـتطيع أن أتفق مع الدكتور بورنج Bowring الذى يقول ـ بقسوة ـ عن التعليم الاسلامى : « ان المقررات الدراسية التى يقدمها أساتذة الشريعة فى المدارس الدينية لاعداد علماء المسلمين ـ لا قيمة لها على الاطلاق » فرأيه هذا يواجه بنفس القدر من الاعتراضات التى توجه لأولئك الذين يقللون من شأن الشريعة ذاتها ، فمثل هذه الآراء تتناول الوصايا الشكلية أكثر مما تتناول الأساسيات ، وتتناول الشعائر والطقوس أكثر مما تتناول الأخلاقيات والمعانى الكامنة وراء الظواهر · (الشكل دون المضمون) فكلا الجانبين (العقائد والممارسات) كانا دائما كلا واحدا ـ بشكل واضح ـ فى العقل الشرقى · فعندما يتعلم الناس أن يقدروا الأخلاق وأن يفهموا النفس ويحسوا بالجمال ، فان الحاجة الى ذلك ستخلق الوسيلة (الأداة) · ففى الوقت الحاضر نجدهم قد تخلوا عن الفكر المجرد لشعرائهم وفلاسفتهم ، وشغلوا أنفسهم بالاستعداد للقاء الله بممارسة الجانب المادى من دينهم ، وهو الجانب الوحيد الذى يفهمونه الآن ·

فليس من المفترض أن أمة فى هذه المرحلة الحضـارية ، كالأمـة المصرية تؤمن ايمانا متحمسا دون أن يمتزج ايمانها بالتعصب · فلسانهم الذى يسبحون به الله هو نفسه اللسان الذى يلعنون به أعداء الله · وعلى هذا فالكافر ملعون من كل جنس وعمر وطبقة وفى كل الظروف ، وملعون من المجربين والمتحررين ، وهو ملعـون من قبل صـبية المدارس وخارج المساجد وداخلها · فاذا سألت صديقك من هو هذا الشخص ذو العمامة السوداء ؟ فانه يجيب : « انه مسيحى ـ زرق الله سحنته » وان تسأل خادمك : من هم الذين يغنون فى المنزل المجاور ؟ ستأتيك الاجابة غالبا (بنسبة ٩ الى ١٠) كالتالى : « يهود · عسى يزجون فى جهنم » · ويبدو من غير المفـهوم أن المصريين الذين عاشـوا كخـدم لسـنوات فى ظل

الأوربيين – لازالوا يشمئزون بوضوح من عادات أسيادهم وتقاليدهم ، والأوربيون قليلون – باستثناء الذين اختلطوا بالمصريين تحت قناع شرقى – هم الذين يدركون اشمئزاز المصريين منهم واحتقارهم لهم ، وما سوى ذلك فمجرد غطاء من كياسة فطرية ، أو مجرد قشرة من المجاملة وسرعان ما تتكشف مشاعرهم الحقيقية اذا أثير نقاش عن الأديان الغربية · لقد أتيحت لى فرصة طيبة لتأكيد صدق هذا وذلك عندما سرت الاشاعة الأولى عن الحرب الروسية فقد تنادى كل القادرين بدنيا بالجهاد (الحرب المقدسة) وكان الشىء الوحيد الواضح فى مداركهم هو التقليل بشدة من شأن أعدائهم · وبدا الجميع مبتهجين بفكرة التعاون مع الفرنسيين فالفرنسى – بشكل أو آخر – له شعبية فى كل مكان · وعند الحديث عن انجلترا فانهم لا يكونون متساهلين بالقدر نفسه فيلوون رؤوسهم ويمتمون بعبارات دينية ، وأخيرا تأتى الصيحة الشرقية القديمة « الحق أن هؤلاء الانجليز شياطين » أما النمساويون فهم محتقرون لأن أهل الشرق الشرق لا يعرفون شيئا عنهم منذ حصار العثمانيين لبوابات فينا · واليونانيون مكروهون باعتبارهم أنذالا (أوغادا) ماهرين يلحقون الأذى بالاسلام ، وينظر المصريون لأهل مالطا باحتقار بالغ ، أما الايطاليون فمعروفون بشكل أساسى أنهم istraturi-distruttori – أطباء وصيادلة ومعلمون · فطبيعة المصريين – كالطبيعة البشرية فى كل مكان – تتسم بالتناقض · انهم يكرهون الأوربيين ويحتقرونهم ومع ذلك فقد استكانوا طويلا للحكم الأوربى (١٠) فهذا الشعب يبدى اعجابا باليد الحديدية والحكم المطلق الشجاع ،ويكره الحكم الاستبدادى الرعديد الذى يسحقهم سحقا · ومن بين الأجانب جميعا يفضل المصريون القيد الفرنسى French Yoke وهذا يرجع للمهارة السياسية والعظمة الوطنية لجيراننا عبر القنال الانجليزى · لكن أى دولة تضمن السيطرة على مصر ، تكون قد ربحت كنزا فمصر تحيطها البحار من الشمال والجنوب (١١) وتحيطها

---

(١٠) قام بيرتون برحلته سنة ١٨٥٣ أى فى عهد عباس الأول ، وكتب رحلته فى عهد سعيد باشا (١٨٥٤–١٨٦٣) فماذا يعنى بخضوع المصريين للحكم الاوربى طويلا · فالحملة الفرنسية (١٧٩٨–١٨٠١) لم تمكث فى مصر طويلا ، والقوات الانجليزية التى أدت للمساعدة فى اخراج الحملن الفرنسية تلكأت قليلا لكنها سرعان ما خرجت ، وحملة فريزر ١٨٠٧ على مصر باءت بالفشل · وربما يقصد تغلغل النفوذ الاوربى فى مصر بعد مؤتمر لندن ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ – (المترجم) ·

(١١) كانت الدولة المصرية فى عهد محمد على تضم السودان وشبه جزيرة العرب ، وفى عهد اسماعيل شملت القرن الافريقى بالاضافة للسودان · وهذا يفسر عبارة بيرتون هذه – (المترجم) ·

الصحراء التى لا يمكن اجتيازها من الشرق والغرب ، ومصر قادرة على تجهين ۱۸۰٫۰۰۰ مقاتل ، وقادرة على دفع ضرائب ثقيلة ، ويمكن أن تقدم فائضا كبيرا ، فلو وقعت مصر فى أيدى الغرب سهلت السيطرة على الهند ، ومكنت من فتح أفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس ٠

وليس من خوف كثير من تعصب المصريين ، فقليل من التدبير يكفى للسيطرة على المسجد ٠ فرؤساء المؤسسات (ركائز العصب) ـ نظرا لميل الشعور العالم لهم ـ سيضعون عقبات أمام الغزاة أو الحاكم الأجنبى ـ أقل بكثير مما يضعه العلماء (۱۲) ٠ وباختصار فمصر هى أكثر الجوائز اغراء بحيث تجعل الشرق يبعدها عن أطماع أوربا ـ انها أهم حتى من القرن الذهبى ٠

---

(۱۲) يقصد بيرتون كما هو واضح أن الدراويش والطرق الصوفية لا خطر منها ، وليس لها كبير جهد فى الدفاع عن استقلال البلاد ، وانما الخرف كل الخرف من العلماء الواعين المتمسكين بالدين بوجهه الصحيح ـ (المترجم) ٠

الفصل السابع

الاستعداد لمغادرة القاهرة

مظاهر عيد الفطر ـ التعامل فى مراكز الشرطة ـ باشا الليل ـ الامتيازات الأجنبية ـ زنانيرى ـ نورى ـ محمد البسيونى ـ تدبير المال لاستكمال الرحلة ـ كيفية تخبئة النقود خوفا من اللصوص ـ رئيس رواق الأفغان بالأزهر ـ اليوزباشى الألبانى ·

وأخيرا ، ولى رمضان شهر البركات ، وكم كانت أيامه طويلة ، فغمرتنا البهجة على نحـو ما كانت البهجة تغمر الرومان بعد انهـاء الكارزما Quaresima، فانطلقت المدافع من القلعة معلنة انتهاء متاعبنا مع هذا الصوم الكبير Lenten Woes · وقد قدم جميع الناس زكاة الفطر فى اليوم الأخير من شهر رمضان للفقراء بواقع قرش ونصف القرش عن كل فرد من أفراد الأسرة ، بما فى ذلك العبيد والخدم كرب الأسرة سواء بسواء · وفى اليوم التالى وهو أحد أيام ثلاثة يقال لها أيام العيد الصغير (أو عيد الفطر) ، استيقظنا قبل الفجر فاغتسلنا وتوضأنا ، واتخذنا سبيلنا للمسجد لأداء صلاة العيد والاستماع الى الخطبة التى حثتنا على المرح لكن برزانة ووقار · وبعد ذلك أكلنا وشربنا باسراف ، وحملنا فى أيدينا الغلايين وأكياس التمباك ورحنا نمشى بخطوات وئيدة لنستمتع برؤية الوجوه الباشة ومظاهر الفرح والسعادة فى الشوارع ·

والمكان الأثير فى هذه المناسبة هو المقبرة الواسعة خلف باب النصر ، وهو بوابة متينة وعتيقة تفتح على الطريق المؤدى للسويس · وقد وجدنا فى هذه المقبرة مظاهر ابتهاج صاخبة · فالخيام والمقاهى التى أعدت على عجل زاخرة بالرجال فى أروع ملابسهم ، وهم يستمعون الى المغنين والعازفين ، ويدخنون ويثرثرون ، ويشاهدون الحواة والمهرجين وسحرة الأفاعى Snake-Charmers والدراويش والقرداتية (أو مدربى

القرود) والصبية الذين يرقصون وقد ارتدوا أزياء نسائية · وقد حفت الطرقا تبموائد الطعام ، ومحـلات بيـع الحـلوى (الكراميل) والسقائف (الشوادر) المليئة بأدوات اللعب ، والظلل التى يباع تحتها شراب الليمون والشربات ، ويتـداخل كل هذا مع الأرجـوحات (المراجيح) ولعب الدوامة (المدورة) merry-go--round التى هى محط أنظار الصغار والصغيرات · والمعلم الرئيسى فى هذا الزحام ، أن القاهريين ذوى الوسامة ، يحملون فى أيديهم الخواص النخيل الطويلة ليجعلوا منها زينة لقبور آبائهم وأصدقائهم · الا أنه حتى فى هذه المناسبة الوقورة ، يوجد ، كما يقولون ، حالات غير قليلة من الغزل بالحسان ، بل وممارسات الجنس love-making ، لذا فثمة فرق من الشرطة مفوضة بمنع كل خروج عن الآداب ، ويحمل أفراد هذه الفرق عصيا طويلة ، الا أن طاقتهم أقل من المسئولية المنوطة بهم · فلم استطع ملاحقة الجماعات التى تتوغل زوجا زوجا (مثنى مثنى) لمسافات غير معتادة بين تلال الرمال ، حيث كانت أصوات الضرب بالفلقة (على الأقدام) تصك الآذان · وعلى أية حال ، فان هذه السفاسف لم تكن ـ بأية حال ـ لتعـكر جو السرور السائد · فكل امرىء قد ارتدى شيئا جديدا ، فمعظم الناس كانوا يختالون فى حلل مزركشة جديدة يزمعون الاحتفاظ بها خلال العام ، وياله من خيلاء (١) شخصى عارم ، ذلك الذى يعتمل فى صدور الشرقيين رجالا ونساء ، شبابا وشيبا ، فمن القاهرة الى كلكتا قد يكون من الصعب أن تجد قلبا حزينا تحت معطف أنيق فالرجال يمشون فى الأرض مرحا ، والنساء يضربن بأرجلهن متبخترات ، ولا يغضضن أبصارهن ، معناجات (جمع : مغناجة) بكل ما فى الغنج والدلال من معان رغم رءوسهن التى يغلفها الخمار · والصغار يتباهون بشكل قبيح على أولاد الجيران اذا كانت حلة الواحد منهم أفضل من حلة جاره · والبنات الصغيرات يرمقن يلحظهن العاشق كل عابر رمق ذات النزوة الشبقة ، كما ينظرن بتحد واحتقار للأخريات اللائى ينافسنهن ·

لقد تجولت أنا والحاج حول المدينة ، وتبادلنا الزيارات كما يحدث عندنا فى أوربا بمناسبة العام الجديد · ويمكننى أن أصف الزيارات فى فى مصر بأنها مجرد مناقشة عن النرجيلة والقهوة فى مكان ، ومناقشة عن النرجيلة والقهوة فى مكان آخر · الا أنه فى هذه المناسبة فاننا

---

(١) استخدم بيرتون لفظ Vanity وقد يعنى خواء القلب أو (روقان البال) أو ما شابه ذلك ، فى هذا السياق ـ (المترجم) ·

اذا التقينا بصديق القى الواحد منا بنفسه بين أحضان الآخر ، واضعا ذراعه اليمنى فوق كتفه اليسرى ، والعكس بالعكس and vice versa ويعصـــر الواحـد منـا الآخـر ، وكأننا مصـارعان ، فى عنـاق غير منقطع ، ثم يلتصق خدانا برقة ، ثم نشبع الهواء بأصوات قبلاتنـا ٠ والتحية فى مناسبة العيد هى : « كل عام وانتم بخير » ثم يأتى دور الأمنيات الطيبة الوافرة والتوقعات الطيبة ، وبالنسبة للشخص المتدين فان المرء يتوقع منه البركة ودعاء موجزا ٠ ولتوضيح أوجه الشبه بين الأعياد الاسلامية والأعياد المسيحية ، أذكر أننا نتناول أطباقا ارتبطت **بهذا اليوم هى أطباق السمك والشريك** Shurayk وكعك الصليب Cross bun خاصة الكعك العسير هضمه والذى يسمونه فى مصر الكحك Kahk الذى يعدونه حلوى الاسـلام ٠

. the plum-pudding of Al-Islam

لقد كان العيد هذا العام كئيبا نظرا للأحوال السياسية اذا قورنت الأحاديث فيه بأحاديث الأعياد الخوالى ، فأخبار الحرب مع روسيا ، ومع فرنسا ، ومع انجلترا التى كانت بصدد انزال ثلاثة ملايين رجل فى السويس ، ومع دولة الكفر بشكل عام ، كلها تلقى صـــدى فى مصر ، فمدينة المريخ أو اله الحرب the city of Mars (يقصد القاهرة) أصبحت على غير العادة مدينة أساسـية ٠ فالتحصـينات الحـكومية والترسانات والمصـانع ، كلهـا جميعـا ازدحمت بالعمـال المخطوفين (المسخرين) ٠ وبالنسبة لأولئك الذين قصدوا الحج ، فقد اعتراهم خوف من الاحتجاز القسرى ٠ فحيثما يتجمع الناس فى المساجد مثلا أو فى المقاهى، سارعت الشرطة فغلقت الأبواب وقبضت عنوة على القادرين بدنيا وهذا الاجراء بربرى مماثل فىبربريته لقانون الاجبار على الخدمةالعسكرية عندنا ، فقد ملأ الشوارع الرئيسية بكتائب من البؤساء الذين يستحق منظرهم الشفقة ، وقد ساقوهم ليجعلوا منهم جنودا ، وقد طوقوا رقابهم بالأطواق المعدنية والتفت السلاسل المعدنية حول أرساغهم ٠ وزاد من كآبة المنظـر ، زحام النسوة وهن يتبعن أبنـاءهن واخـوانهن وأزواجهن مولولات نائحات ، واضعات الطين والتراب فوق ملابسهن المشقوقة، وهى أمور معتادة فى حالة الحزن والولولة عند الموت ، طريقة خاصة للتعبير عن اللوعة بسبب الفراق ، وأصل هذه العادة من السمات المميزة للناس ٠ وبالنسبة للنساء الشرقيات ، فان المناسبات الترفيهية العامة ، المسموح لهن بحضورها هى الاحتفالات بمناسبة المولود الجديد ، وحفلات الزواج ، وحضور الجنازات ، فهذه المناسبات جميعا تعد بالنسبة للنسـاء مجالا

للترفيه أو ما يطلق عليه بشكل عام مجالا للفنتظة (أو الفنتظية) (٢) وفى حالات كثيرة ، كانت حروب أسرة محمد على الباكرة فى الشام والحجاز ، قد حرمت النساء من حقهن الأنثوى فى النواح على الميت ، فانهن الآن مصممات ألا يضعن الفرصة ، وأن يستمتعن بترف النواح على حياة المتوفى والبكاء عند جثته ٠

وثمة سحابة أخرى معلقة فى سماء القاهرة ، فالشائعات عن المؤامرات والمتآمرين تملأ كل مكان ٠ فاليهود والمسيحيون هنا ، مستعدون لمواجهة الخطر (آخذون حذرهم) كالانجليز فى ايطاليا — ترتعد فرائصهم خوفا من الاستعدادات المرعبة للعصيان المسلح والسلب ٠ وحتى المسلمون يتهامسون بأن بضع مئات من المجرمين الخطرين قد أزمعوا احراق القاهرة مبتدئين بحى البنوك ، كما يزمعون نهب المصريين الأثرياء ٠ وعلى أية حال فان سمو عباس باشا كان غائبا فى ذلك الوقت ، وحتى لو كان فى القاهرة ، فان حضوره لم يكن يغنى كثيرا ، فالحاكم لا يستطيع أن يفعل شيئا نحو اعادة الثقة للأمة الشرقية (لشعوب الشرق) المفعمة ذعرا (التى ينخر الذعر والخوف فيها) ٠

وعند نهاية هذه الفورة — كان ثمة رد فعل مضاد من السلطة السياسية ، فقد بدأ قادة الشرطة فى التنمر ، فصدرت الأوامر المشددة فى مدن مصر الرئيسية بأن كل من يخرج من بيته بعد حلول الظلام دون أن يحمل معه فانوسا ، سيقضى ليلته فى مركز الشرطة وان كان هناك — عادة — بعض التراخى فى تطبيق ذلك فى القاهرة فى أحياء بعينها ، كحى الأزبكية على سبيل المثال ٠ وقبل أن أغادر القاهرة سحبوا منى الترخيص ، وقد أدت هذه الصرامة المفاجئة الى كثير من المشاهد المثيرة للسخرية ٠

فاذا أنت أرسلت — بالصدفة — فانوسك مع خادمك الى بيت صديق ، ثم لحقت به على سبيل المجاملة بعد الساعة الثامنة بدقائق خمس (بزيك الشرقى) فكن واثقا أن العسس (الشرطة) سيقابلونك ، ويوقفونك ويطوقونك ، ويستجوبونك ، ويقبضون عليك ، وربما أفلت من ثلاثة منهم أو أربعة ، لكنك ستجد اثنى عشر منهم (دستة) من القوة بحيث لا يمكنك الافلات ، فيمسكون بشدة أكمامك ، وذيل جلبابك ، ويطوقونك من فوق

---

(٢) لا يخفى على القارىء أن العامة ينطقونها بالطاء : الفنطظة أو الفنطظية Fantasia بالمعنى الذى أشار له بيرتون فالمقصود اذن هنا أن هذه المناسبات مجال (للفرفشة) أو (المسخرة) — (المترجم) ٠

عباءتك الفضفاضة ، فتجد نفسك طائرا فوق سطح الأرض بقرابة تسع بوصات ، فلا تجد قدماك شيئا تلامسه غير الهواء · وستجد نفسك مسحوبا وقد أمسكوا بتلابيبك بسرعة قلما تسمح لك بالاجابة عن سيل أسئلتهم عن اسمك وجنسيتك وسكنك ودينك ومهنتك وعن سائر أمرك بشكل عام ـ خصوصا عن الوضع الحالى لكيس نقودك · فان استجبت للطلب المغرى المتمثل فى أن تدفع قطعة نقدية فضية (كرون) سرعان ما تقل تدريجيا الى بنسين أو نصف بنس ـ مقابل اطلاق سراحك ـ فانك تكون قد وقعت فى شرك صغير ، اذ سيصوبون اليك البندقية قديمة الطراز ويستولون على كل مالك متهمين اياك بالعناد وتضييع الوقت · لكن اذا تظاهرت بأنك نسيت كيس نقودك ـ وهذا هو الأقرب للعقل ـ فانهم سيسبونك ويسحبونك بعنف متزايد الى مكتب ضابط الشرطة Zabit وهناك يدفعونك بعنف فى ممر مقنطر يؤدى الى ساحة ، وقد صف العسكر على جانبى هذا الممر ، وكلما مررت بواحد منهم أعطاك (قفا Kafa) أى ضربك على قفاك · ورغم غضبك فسيدفعونك فوق سلالم تفضى الى ممر طويل ممتلىء بكثيرين وقعوا فى الورطة نفسها التى وقعت فيها · ومرة أخرى يسألك كاتب ذو نظرات مرعبة عن اسمك ، وجنسيتك ، وأنا أفترض هنا أنك متنكر أو تدعى شخصية غير شخصيتك ـ وتهمتك ، ويدون كل هذا بدقة فى سجل ، فاذا لم توفق فى الاجابة فانهم يدفعون بك الى زنزانة المدانين (الهاسيل Hasil ?) لتقضى ليلتك مع النشالين أو اللصوص أو خليط من المجرمين · لكن ان كنت خبيرا بمثل هذه المواقف فانك تصر على مثولك أمام باشا الليل Pasha of the Night ، ففى هذه الحال يخشى الكاتب أن يرفض طلبك فيسرعون بك الى مكتب الرجل العظيم (باشا الليل) وأنت تأمل تحقيق العدل ، والأخذ بثأرك من آسريك أو معتقليك ـ أى الشرطة · وهنا تجد صاحب المقام الرفيع جالسا ـ وأمامه قلم ومحبرة وأوراق ، وفى يديه شيشة وفنجان قهوة ـ على ديوان (كنبة) عريض عليه قماش قطنى قذر فى غرفة واسعة تنقصها الاضاءة الكافية ، وعن جانبه حارسان ، وأمامه وقف ـ فى نصف دائرة ـ المعتقلون الجدد ، يصخبون بأقوالهم · وعندما يأتى دورك فانهم يطوقونك جيدا لتمثل فى حضرته ـ مخافة أن تنتهز اللحظة المواتية لتعتدى عليه أو تقتله ، فينظر لك الباشا نظرة ازدراء قاسية ، ويشمخ بأنفه ، ويقول بعنف : « هل أنت عجمى ـ أى فارسى ؟! » ويأمر باحضار الفلكة · لقد لاحظت أن مجرد ذكرك لحقيقة كونك « عجميا » (فارسيا) لم يعط بشرا حقا فى القبض عليك وسجنك

وعقابك (٣) فتعلن مرة أخرى أنك لست أعجميا (فارسيا) وانما هندى تحت الحماية البريطانية · عندئذ يحدق فيك الباشا – وهو رجل تعود على الطاعة – ليخيفك ، فتقوم أنت – كما هو مفترض – بالتحديق فيه ، حتى يقنعه قسمك ، فيستدير الى الشرطة ويسألهم عن تهمتك ، فيقسمون جميعا فى الحال ، بالله أنهم وجدوك بدون (فانوس) ، ثملا ، تضرب الناس المحترمين ، وتعتدى على البيوت وتنتهك الحرمات فتقوم أنت باخبار الباشا بوضوح أنهم يأكلون السحت ، فيقوم الباشا بالايعاز لأحد حراسه بشم أنفاسك لمعرفة ان كنت ثملا ، فيتقدم الحارس – وهو زميل للذين قبضوا عليك – ويقرب أنفه من شفتيك ، وكما هو متوقع ، فانه يصيح « كخ » kich ويبدى على وجهه تقطيبات تنم عن الاشمئزاز ، ثم يجيب مقسما بلحية « أفندينا) أنه يشم الرائحة المثيرة للمياه المستقطرة (الخمر) وربما أدى هذا الاعلان الى ابتسامة شرسة تتبدى على وجه « باشا الليل » الذى يحب مشروب الكوراسو Curacoa ، ويفتن بالكونياك · لذا فان باشا الليل يتدخل لصالحك ، فيسمح لك بقضاء ساعات الليل على (دكة) خشبية بالقرب من الممر الطويل ، الى جانب شلة من الطفيليين الذين لا تسعفنى اللغة المهذبة فى ايجاد اسم لهم · وفى الصباح يستدعون انكشارية قنصليتك (٤) فيأتى مسئول منها ، ويطالب بك ، ويستهلون عملهم بذكر جريمتك ، ومرة أخرى تذكر اسمك وعنوانك ، واذا كانت تهمتك مجرد استحضار « الفانوس » الخاص بك ، فسيطلقون سراحك مع نصيحة أن تكون أكثر حذرا فى القادم من أيامك · ومن المؤكد أن أول شىء تفعله بعد اطلاق سراحك · هو الذهاب للحمام ·

ومن ناحية أخرى فانك ان ذكرت لهم أنك أوربى فاما انهم يطلقون سراحك مباشرة ، أو يرسلونك لقنصل بلدك ، فهو الذى يحكم فى هذا الموقف فهو المحلف Jury ، وهو السجان (٥) ، فالسلطات المصرية فقدت نصف سطوتها فى الأعوام الأخيرة · وعندما استقر السيد لين Lane للمرة الأولى فى القاهرة فان كل الأوربيين الذين اتهموا بالعدوان على المسلمين ، قد أحيلوا – كما ذكر السيد لين – للمسئولين الأتراك ، أما الآن فان السلطات الوطنية ليس لها سلطة قضائية على الغرباء (٦) ، ولا تدخل الشرطة بيوتهم · واذا أردت دول الغرب أن

---

(٣) السخرية واضحة هنا ، والمقصود « يعطى الحق » – (المترجم) ·

(٤) السخرية واضحة – (المترجم) ·

(٥) المقصود : « هو الخصم والحكم » – (المترجم) ·

(٦) المقصود : على غير المصريين – (المترجم) ·

تقوى من عزم المسيحيين الشرقيين المشاركين لها فى العقيدة ـ فيمكنها أن تفرض نظاما أشد مما هو عليـه الآن (٧) ، بالسـماح لكل الرعايا المسيحيين الشرقيين حسنى الاعتقاد بأن يسجلوا أسماءهم فى القنصليات المختلفة التى قد يفضلون الحصول على حمايتها (٨) • وهذا هو ما حاولته روسيا بشكل غير « مشروع ولا مبرر له » • اننا نقيد أنفسنا بعدالة منقوصة مستقاة من أن الدول الشرقية باعتبارها دولا مسـتقلة ، فمن حقها أن تقبض على الأجانب ـ الذين استقروا تحت سيادة هذه الدول بحكم المصلحة أو الظروف ـ وتحيلهم للمحاكمة • بينما لا تزال ترتعد فرائصنا ازاء أى حق ادعاء لنا على السـادة الاقطـاعيين من مواليد الأمم الشرقية • وعلى أية حال ، فما هى النتيجـة اذا خولت بريطانيـا العظمى لأبنائها المقيمين فى باريس أو فلورنسا ، أن يرفضوا المثول أمام المحاكم الفرنسية أو الايطالية ، والمطالبة بألا تداهم الشرطة بيوت الرعايا الانجـليز ؟ • اننى أقـدم هـذه التسـاؤلات لأولئـك الذين « يثرثرون ـ بلا معنى ـ عن الحقوق النظرية » اذا كان يعنيهم مصالح الآخرين وتقدمهم ، ولأولئك الذين يتمتعون بقدر بسيط من التسامح والتحرر ، وقدر بسيط من التعصب اذا ما كان رخاؤهم وكبرياؤهم الوطنى مهددا •

وبالاضافة للمرضى ـ فقد تعرفت فى القاهرة ببعض المعارف الذين كانوا سببا فى سرورى • فأنطون زنانيرى Zananire شاب سورى ، أحرز تفوقا كلغوى تفضل على بأن منحنى فرصة النظر الى وجه زوجته بدون خمار (وجه حرمه) ، والسيد هاتشادور نورى Hatchadur Nury وهو سيد أرمنى ـ معروف جيدا فى بمبـاى الذى قدمنى لواحـد من مواطنيه هو المعلم (الخواجا) يوسف الذى كانت نصائحه هى الأكثر فائدة بالنسبة لى ـ بالاضافة لتفضله على (السيد نورى) بأفضال رقيقة اخرى • لقد جال الخواجا (المعلم) يوسف بالطول والعرض ، وجمع من كل مكان باقة من المعلومات الطريفة ، وتاريخ هذا الخواجا ذو طابع رومانسى حالم • فقد طرد من القاهرة بسبب هفوة من هفوات الشباب ، فبدأ رحلاته ، وطهر نفسه بزيارة مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ،

(٧) يقصد الامتيازات الأجنبية • راجع مقدمة المترجم ـ (المترجم) •

(٨) رفض المسيحيون المصريون الارتماء فى أحضان الأجانب ، وتجلى ذلك بوضوح تام بعد ذلك فى الربع الأول من القرن العشرين فى ثورة ١٩١٩ التى شاركت فيها كل عناصر الأمة كما هو معروف حتى ان الاستعمار البريطانى حار فى تفسيرها • ولما عجز عن اتهامها ـ أى الثورة ـ بالتعصب اتهمها بالبلشفية ، ولكن التهمة سقطت أيضا ـ (المترجم)

وأصبح درويشا (٩) فى بغداد ، ودرس الفرنسية فى باريس، وأخيرا استقر كأستاذ للغات فى القاهرة بعد العفو عنه ٠ وقد شهدت فى بيته زواجا أرمنيا ٠ وكانت ذكرى لا تنسى ، فقد كان على نسق حفلات زواج المسلمين من حيث الكآبة ، فلا شيء يمكن أن يبعث السعادة والسرور فى نفس المرء من وجوه النساء الجميلات غير المحجبات ٠ وكانت بعض الضيفات نساء سمراوات جذابات بشكل رائع ، لهن عيون أروع مما يتصور الانسان ، وخصلات شعر سوداء سوادا خالصا ٠ وكان ثمة فتاة جميلة واحدة ترتدى الزى الوطنى٠ وكانت كل النسوة تدخن الشيبوك ويجلسن على الكنب (الديوان) ، وكلما دخلت احداهن الغرفة ، قبلت أيدى الكاهن وكبار السن الحاضرين ـ ببساطة حلوة ٠

ومن بين عدد معارفى كان الولد المكى محمد البسيونى الذى اشتريت منه ملابس الاحرام الخاصة بى ، والكفن (١٠) التى يتحتم على المسلم ـ عادة ـ أن يبدأ بها رحلة الحج ٠ لقد كان قلقا ـ وهو فى طريقه لبلده قادما من اسطنبول ـ أن يصطحبنى كرفيق ، وان كان قد سبق له السفر كثيرا بحيث يمكنه أن يكون صنوا لمرافقتى ، فقد سبق له أن زار الهند ، ورأى الانجليز كما عاش مع نواب بلو Nawab Balu فى سورات Surat ٠ وكان يزورنى بانتظام حتى عالجت احد أصدقائه من الرمد ، فقدم لى عنوانه فى مكة (المكرمة) وبعدها لم أعد أراه ٠ وقد وصف الحاج والى هذا الولد وجماعته بأنهم ناس جرارين (أى مبتزين) (١١) Nas jarrar ومن المؤكد أنه لم يسىء الحكم عليهم ، ولكن ما حدث بعد ذلك سيبرهن كيف أن :

der Mensch denkt und Gott lenkt

وطالما أن الولد محمدا حدث وأصبح رفيقى فى رحلة الحج ، فسأعرض من أمره على القارىء شيئا موجزا قدر الامكان ٠

فهو شاب لا لحية له ، فى حوالى الثامنة عشرة من عمره ، وبشرته بنية كالشيكولاته ، وملامحه بارزة ، وهى أن نظرنا اليها من الجانب

---

(٩) النص : شحاذا أو متسولا دينيا a religious beggar (المترجم) ٠

(١٠) لا يتحتم على المسلم أن يحمل كفنه معه من الناحية الشرعية ، رغم أن هذه عادة متبعة ـ (المترجم) ٠

(١١) أو على حد التعبير الشعبى « ناس نحيتة » أى ينحتون منك حتى يجعلوك مفلسا ، والنحت هنا يعنى الاستيلاء على كل شيء منك بصبر وهدوء ٠ وهو المعنى المقصود ـ (المترجم) ٠

قوية جسورة ، وعظام وجهه وملامحه المكية المؤكدة تضيؤها عينان ذوا خاصية مصرية يبدو أنهما انحدرتا اليه جيلا من بعد جيل وهو قصير وعريض يميل للسمنة نتيجة قوة معدته وقدرته على النوم فى وقت الحذر، وهو يستطيع القراءة قليلا، كما يستطيع كتابة اسمه، وهو ماهر فى المساومة مهارة غير مألوفة • وقد علمته مكة (المكرمة) أن يتحدث العربية بشكل ممتاز وأن يفهم الأساليب الأدبية ، وأن يكون فصيحا وان أساء استعمال فصاحته ، وأن يكون عميق الصوت عند اداء الصلاة ، وعند الدعاء فى الحج • وقد أعطته اسطنبول طعم الغناء Anacreontic singing والمجتمعات النسائية ذوات الطابع الثرثار ، وحب الشراب الكحولى القوى ، وعندما اقترحت عليه أول مرة — مرافقتى صدم ورمقنى بنظرة مفعمة بالنفاق ، وان كان له أسلوب مرتجل وعفوى ومتسامح على نحو ما فى التعامل مع الموضوعات الجادة بشكل عام • وقد وجدته الابن الأصغر لأرملة وكانت حماقته تشكل مسلكه ، فقد كان أنانيا رقيقا (حنونا) كما هى عادة الأطفال المدللين ، وهو متقلب من السهل استثارته ، ومن السهل تهدئته (انه الشرقى) ويشتهى ما ليس له ، ويسرف فيما يملك (انه العربى) وبه رزانه تنم عن جراة منقطعة النظير (انه الرحالة) ، كما أنه صفيق ليس أكثر من نصف شجاع ، ذكى داهية محافظ على معنى دقيق للشرف — خاصة فيما يتعلق بذوى قرباه (انه الانسان الفرد) • وقد رأيته فى حالة غضب شديد لأن شخصا ما سب والده ، كما أننى وهو كنا على وشك أن يفارق أحدنا الآخر لأننى فى احدى المناسبات أطلقت عليه لقبا (نعتا) كنت اقصد به الأخ عالى العقل ، وان كان يعنى لدى العامة لا شىء أو لا قيمة له • وكانت مسألة الشرف هذه هى أقوى الجوانب فى الولد محمد •

وخلال شهر رمضان خزنت فى خزائنى استعدادا للرحلة — شايا وبنا وأقماع سكر وأرزا وتمورا وبسكويتا وزيتا وخلا ، وتمباك وفوانيس وأوانى للطبخ وخيمة صغيرة على هيئة جرس ، وكلفنى ذلك اثنى عشر شلنا ، وثلاث قرب ماء لزوم الصحراء • ووضعت هذه المؤن فى قفف (جمع قفة) وفى سحارة خشبية كبيرة يبلغ ضلعها ثلاثة أقدام ، ومغطاة بالجلد ومزودة بغطاء آخر صغير فى أعلاها وقد علقت هذه القفف بالاضافة لصندوقى الأخضر الذى يضم الأدوية والخرج الملىء بالملابس — فى احد جانبى الجمل ، أما السحارة فعلقت على الجانب الآخر• فالبدو — مثلهم فى ذلك مثل البغالين يحتاجون الى مراعاة التوازن دائما • ووضعنا فوق الحمل الشبرية بالعرض ، وجثم الشيخ نور فوقها كالغراب الكبير • وكان هذا يستحق أن يتبختر فى الشوارع

مسلحا بزوج من المسدسات وسيف فى طول قامته • وسرعان ما رصدته عيون صبية القاهرة اللعوبين فبدءوا يصخبون ساخرين من منظر هذا المسلح حتى عاد ركضا الى خان القافلة (الخان الذى ينزل فيه رفاقه فى القافلة) • لقد لاحقوه حتى عاد كالبومة السكرى تطاردها قبرة، انهم صبية سيئون كمتشردى باريس ولندن •

ولأننى أنفقت كل النقود التى كانت تحت يدى فى القاهرة ، فقد كنت مضطرا لتدبير أموال جديدة • وقد نصحنى معارفى من أهل بلدى أن آخذ معى ثمانين جنيها استرلينيا على الأقل ، وقدروا مصاريف السفر الصحراوى بمبلغ بدا غير مفرط ، وقد وجدت بعض الصعوبات فى رفع المبلغ عندما كنت فى الاسكندرية لولا تدخل صديقى جون John Thurburn أما الآن فيؤسفنى أن أقول اننى لا أتوقع زيادة فى المبلغ ،

كما أن السيد شيفرد Shepheard صاحب فندق شيفرد فى القاهرة لم يعد موجودا الآن •• وقد تفحص أصدقائى (أو أتباعى) الهنود ورقة مربعة صغيرة • وهى خطاب ضمان وتساءلوا تساؤلا معقولا : « أيمكن أن تكون هذه الورقة صحيحة ؟ » وذلك بعد أن حدقوا فيها كما يفعل الغراب أحيانا عندما ينظر بطرف عينه داخل عظمة ليتبين ان كان بها مخ أم لا • وأخيرا فقد عرضوا ـ بأدب ـ أن يكتبوا لانجلترا بشأنى ، لسحب الأموال، وارسالها بعد ذلك فى حقيبة مختومة (مشمعة) مباشرة للمدينة (المنورة)• واحتاج للقول ان مثل هذا الأسلوب فى التحويلات لا يدع أية فرصة لوصول التحويلات بشكل آمن فى حالة اذا كان المحول معادن نفيسة •

وعندما انتهت الأزمة اشتريت خمسين جنيها بقيمة الدولارات الألمانية (ماريا تريزا) ، واستثمرت الباقى فى الجنيهات الانجليزية والتركية • أما الذهب فقد كنت أحمله بنفسى ، وبعض الفضة جعلته فى حزام الوسط الجلدى الخاص بالشيخ نور ، وبعضها الآخر فى الصناديق ، والسبب فى ذلك أن البدو عندما يشرعون فى سلب رجل محترم فانهم ان وجدوا قدرا معينا من الأموال فى حقيبته ، فانهم لا يفتشونه هو شخصيا ، واذا لم يجدوا فتشوه تفتيشا ذاتيا ، واذا كان حزام الوسط الخاص به خاويا ، فقد يقتنعون بشق بطنه اعتقادا منهم أنه لابد أن يكون قد ابتدع طريقة خاصة حاذقة لاخفاء الأشياء ذات القيمة • وبمجرد ما عبرت هذه المشكلة ، سرعان ما وقعت فى مشكلة أخرى فجواز سفرى السكندرى الذى حصلت عليه بشق النفس كان يتطلب تأشيرتين : تأشيرة من مكتب الشرطة، وأخرى من مكتب القنصل• وبعد العودة الى مصر عرفت أن ذلك من الاجراءات التى يتبعها المسافرون الذين يطلبون أى خدمة « مساعدة » من الدكتور والن Walne الذى يحيلها الى الموظفين الانجليز فى القاهرة ، ثم تحال

بعد ذلك لتحصل على « التأشيرة » أو الأمــر من وزارة الخــارجية البريطانية ٠

لم آخذ جانب الحذر ، وكان لدى من الأسباب المسهبة للاعتذار عن فعلى هذا ٠ ونظرا لفشلى (فى تحقيق ما أريده) فى القنصلية البريطانية ، ولرغبتى فى ألا أغادر القاهرة الا بوضع قانونى واجراء سليم ، فقد كنت مضطرا للبحث فى أى مكان طلبا لهـذه الحمـاية القانونية والاجرائية فقد حذرنى المصريون من أن الحجاج يواجهون العقبات فى السويس ٠ وكان صديقى الحاج والى هو أول من استشرته ، وبعد مناقشات ضافية عرض أن يصحبنى الى قنصله الفارسى لنعرف المبلغ الذى يتعين على دفعه لأكون ــ لفترة وجيزة ــ أحد رعايا الشاه ٠ وذهبنـا الى مقر « الأسد والشمس » ووجدنا أن ترجمان القنصل رجل ســورى مســيحى ماكـر ، فبعد أن سألنى بشكل فج صارم عن أحوال حافظة نقودى (لم يعر أى اهتمام لجنسيتى) قدمنى للرجل العظيم (القنصل الفارسى) لقد وصفت شخصيته قبل ذلك ٠ وهو لا يستحق أن أفرد له ملاحظة ثانية ٠ لقد كان المشهد ــ حقا ــ مضحكا ويدعو للسخرية ٠ لقد عاملنا بغطرسة زائدة عن الحد ، فاقصانى بعيدا عنه لأجلس فى موضع لا أكاد أسمع فيه ما يقال ، وبعد أن شمخ برأسه وأدارها بصمت عميق زهاء ربــع ساعة تعطف قائلا انه رغم أن أبى قد يكون شيرازيا ، وان أمى قد تكون أفغانية ، الا أنه لم يتشرف بمعرفتى ٠ وقد وجــه الى رفيقه وهــو رجل فــارسى عجــوز مهيب ذو حاجبين كثين ولحية أرجوانية داكنة ــ بعض الأســئلة الفظة وغير المشجعة ٠ لقد اقتبست هذه الأبيات الشعرية :

نعم الصديق فان طلبت معونة

طرحت أمامك دون معرفة السبب

ولم يقبل عوضا ولا مالا طلب ٠

« He is a man who benefits his fellow men.

Not he who Says «why» an «wherefore» and «how much»

---

(١٢) السخرية واضحة ــ بطبيعة الحال فى هذا الاستشهاد الشعرى كما لا يخفى على فطنة القارىء ٠ وربما كان بيرتون يشير الى البيت الشعرى المشهور :

لا يســألون أخــاهم حين يطــلبهم

فى النــائبات على ما قال برهانــا

(المترجم)

وبناء عليه وجهتنى ذراع متعجرفة كالموجة القاسية لأعود للترجمان الذى كان لديه من الوقاحة ما جعله يطلب منى أربعة جنيهات استرلينية مقابل حصولى على جواز سفر فارسى • فقدمت له جنيها واحدا ، فسخر من عرضى ، فانصرفت محتارا مرتبكا • وعند عودتى للقاهرة بعد ذلك ببضعة أشهر أرسل ليقول انه كان يعرف أننى رجل انجليزى ، لذا فقد كان ينبغى أن أحصل على الوثيقة مجانا ــ وهو لطف منه كان يستحق عليه الشكر فى حينه (لو أنه فعل ذلك) •

وأخيرا فان شيخى محمدا ، طرق على الخطة وهى ساخنة فقال لى : « انك أفغانى ، وسأبحث لك عن رئيس رواق الأفغان فى الأزهر ، وهو سيكون صديقك اذا أكرمته » (قال لى ذلك همسا) • لقد كانت الحالة تبدو ميئوسا منها ، فأجبرت معلمى الا يضيع الوقت •

وسرعان ما عاد الشيخ محمد بصحبة رئيس رواق الأفغان فى الأزهر ، وهو رجل ضئيل الحجم نحيل ذو لحية مهوشة ، أعور ، ذو شفتين مشقوقتين ، يرتدى ملابس فى الغاية من القذارة من طراز يصعب وصفه لفرط غرابته • ولد فى مسقط من أبوين أفغانيين ونشأ فى مكة (المكرمة) وله طابع عالمى ، فهو يتحدث خمس لغات بطلاقة ، ويعج بالذكريات والخبرات نتيجة ترحاله ، وكدحه • وقد رفض تناول القهوة أو تدخين الشيشة متظاهرا بالزهد ، الا أنه أكل أكثر من نصف غذائى ، لدرجة أننى خفت من « زهده » هذا على صحته • ثم تحدثنا بغير كلفة بعدة لغات ، وقدمت له بعض الكتب كهدية ، لكنه رفضها (فمثل هذه الهدية لا قيمة لها) وقد عبر الشيخ عبد الوهاب ــ وهذا هو اسمه ــ عن رضاه عن حذرى واهتمامى بأمور نفسى ، وأخبرنى أن أقابله فى الجامع الأزهر فى صبيحة اليوم التالى •

ولذا ، ففى الساعة السادسة مساء ، ذهبت للأزهر مع الشيخ محمد وعبد الله خان ، الذى استعد بلبس عمامة ضخمة ثبت شالها بدبابيس ، لمقابلة طالب التوحيد • ومررنا عبر صحن المسجد المربع ، دخلنا ممرا كبيرا يشكل البناء الرئيسى للمسجد • وفى الجدار الشمالى كان يوجد باب صغير يؤدى بالصعود على درجات خطرة الى غرفة « كبنية » الحمام هى الحجرة التى يدرس فيها الشيخ الأفغانى • وقد وجدناه غارقا وراء أكوام من المخطوطات العتيقة ، ويحيط به الطلبة والنساخون • ولم يكن لديه كثير من الأعمال لانجازها ، ولكنه لم يتفرغ لنا الا بعد وقت طويل ، وقد دفعنا الجو الخانق الى الخروج من غرفة

الدراسة وتوجهنا لساحة المسجد ، وسرعان ما لحق بنا الشيخ الأفغانى ، وركبنا جميعا الى القلعة ، وانتظرنا فى المسجد حتى انتهت ساعات العمل · وعندما فتحت الأبواب ذهبنا الى « الديوان » وجلسنا صابرين حتى وجد الشيخ فرصة للحديث · ولم يكن هناك الا موظفان فقط ، كان احدهما عجوز معتل نحيل ، يرتدى لباسا على النسق التركى الأوربى ، يقبل الدراويش والأتباع يده بقسوة لأنه يقدم لهم بعض الصدقات البسيطة ، أما الآخر فكان كاتبا شابا قويا مهمته أن ينسخ ما يطلب منه لا أن يدع يده ليقبلها الأتباع ·

وقد سألونى عن اسمى وغير ذلك من البيانات الضرورية ، ولم أواجه بأى اعتراض ، فليس هناك من هو أكثر بركة وصلاحا من الشيخ عبد الوهاب بن يونس السليمانى ! لقد ملأ الكاتب الأوراق باللغة التركية ، بطريقة مستعارة ـ بشكل واضح ـ من الطريقة الأوربية التى تهدف لسلب أموال المسافر ، ولقد صدقوا على البيانات الخاصة بى ـ بضمان الشيخ ـ باعتبارى عبد الله بن يوسف ، من كابول ، وكتبوا فى الأوراق صفاتى ، وأعطونى الوثيقة مقابل خمسة قروش ، فاستلمتها بسعادة ·

وغادرنا المكتب ، بعد أن قدمنا انحناءات الشكر ، والدعوات بالبركة وكثيرا من التمنيات والدعوات أن يجعل الله الحج من نصيب الموظفين فى المكتب ، وعدنا فى اتجاه الأزهر · ولما كدنا نصل للجامع (الأزهر) ، تلكأ الشيخ محمد وبدت منه اشارة ، فسحبت نفسى بالقرب من الأفغانى وطلبت يده ، فاستجاب للتلميح ، وتمتم : « شىء بسيط ، لم نفعل الا شيئا بسيطا · لم نفعل شيئا » « غير ضرورى » « والله ، لا لزوم له ·· » ومد أصابعه وهو يقول ذلك ، واستجمع قواه ليقبض بكل ما أوتى من قوة على ثلاثة دولارات ·

انه رجل فقير ! أعتقد انه من الضرورى بالنسبة له أن يوافق على أن أدفع له ، فمثل هذه الأمور شائعة باعتبارها من أعمال الاحسان لدى المسلمين ، فلديه زوجة وأولاد وهو رجل عالم (فقيه) وهو أمر لا يثمن بكثير فى مصر ·

وقد عجلت برحيلى من القاهرة بسبب حدث طارىء ، فقد فقدت شهرتى بسبب قليل من سوء الحظ حدث لى على هذا النحو · ففى غرفة الحاج والى فى الخان قابلت يوزباشى Yuzbashi أو قائد عسكر البانيين غير نظاميين كان فى مصر ، قادما من الحجاز · وكان طويلا ، بارز المعظم ، جبليا عريض الأكتاف ، فى الأربعين تقريبا ، ذو حاجبين كثيفين ،

وعينين ناريتين ، وشفتين نحيلتين ، وفك أعجف ، وذقن ـ كذقون بنى جنسه ـ نابتة · وكان شارباه طويلان للغاية ومفتولان ، أما بقية وجهه فحليق خال من الشعر كرأسه ، اما فستانه Fustan (١٣) فكان فى نظافته لا مثيل له ، وكذلك كابه (غطاء رأسه) الذى وضعه فوق رأسه باهمال وجعله يتدلى على جبهته العابسة فقد كان خاليا تماما من الاوساخ والبقع · ولأنه كان ممنوعا من حمل المسدسات الأثيرة لديه ، فقد اكتفى بغرز يده اليمنى فى حزامه الخالى ، وراح يمشى متشامخا حول الخان وقد بدا عليه المظهر العسكرى كأوضح ما يكون · لقد كان على اغا ـ وهذا هو اسمه ـ كفارس السجادة ، وكان يظهر فى جسده كثير من الندوب المروعة ، وقد كسرت العظمة الرئيسية الأمامية فى احدى ساقيه بسبب رصاصة تركية أصابته بينما كان يناور فى التلال الألبانية مما أدى الى اصابته بالعرج الذى يحاول اخفاءه باستخدام مخصرة ثقيلة (١٤) وصوته أجش ، وله موهبة محزنة فى الشخير ، ولم أره أبدا رزينا كامل كرزانة ·

لقد بدأ على أغا بنوع من العاصفة التى تهب ، وتخلف بعدها طقسا لطيفا · لقد كنت أرى الحاج والى مسدساتى بالبراميل الدمشقية عندما دخل على أغا الغرفة ، فجلس أمامى بابتسامة عريضة ذات معنى واضح بما فيه الكفاية وكأنه يقول : « أى عمل لك بالأسلحة ؟! » ونزع السلاح من يدى وبدأ يتفحصه تفحص خبير · ولما لم يعجبنى منه هذا التصرف ، فقد نزعته منه ، ووجهت حديثى للحاج والى ، وتبادلت وهذا اليوزباشى النظرات ، فأمال كابه (غطاء رأسه) الى جانب رأسه باختيال وأبدى رغبة مثيرة فى المشاكسة والعراك ، فبرمت شاربى لاثارة عاطفة القرابة بينى وبينه (١٥) · ولو كان مسلحا وكنا فى الحجاز لاقتتلنا مباشرة ، فالأرناؤوط (الألبانيون) كما يقول الايطاليون (غضبهم ملتصق بمسدساتهم) terribili Colla pistola وهو قول يعنى أنهم يطلقون

---

(١٣) هو التنورة الالبانية ، وقد تعنى الكلتية ، وهى ـ فيما يذكر صاحب معجم المورد ـ تنورة ذات ثنيات طويلة يرتديها الرجال فى اسكتلندا وأفراد الفرق الاسكتلندية فى الجيش البريطانى ـ ومن الواضح أن الفستان المذكور هنا ذو طابع البانى ، ولا علاقة ـ كما هو واضح ـ للفستان المذكور هنا بفساتين النساء ، وهو المعنى الذى صرفنا الكلمة اليه بعد ذلك ـ (المترجم) ·

(١٤) النص by heavy wagger والمخصرة عصا مكسوة بالجلود يحملها الضابط ، وقد يكون المقصود انه يخفى عرجه تحت ستار من العجرفة الزائدة ، وقد ملنا للترجمة التى اثبتناها فى النص لقربها من معنى السياق ـ (المترجم) ·

(١٥) بمعنى أن لك شاربا ، ولى شارب ، فنحن ـ انا وانت ـ من ذوى الشوارب ، فبحق شاربينا ، لا يجب أن نتعارك ـ او معنى قريبا من ذلك ـ (المترجم) ·

أسلحتهم فى وجه الصديق أو العدو عند أول استفزاز او غضب . وبطبيعة الحال ، فان الطريقة الوحيدة فى ظل هذه الظروف هى أن أستبق الأحداث ، وحتى هذا التصرف اليائس نادرا ما ينقذ الغريب ، فالالبان لا يخرجون الا ازواجا (لا يسيرون فرادى) . لم أواجه ابدا ما هو أكثر يأسا وخطرا فى نتائجه من تصرفى هذا . فالذخيرة ممنوعة على خط كتائب الألبان المشاة ، ولو كان الأمر غير ذلك لحدثت بينهم مبارزات بالسلاح تصل الى ست فى النهار . وهم عندما يتعاركون على أنصبتهم فمن المألوف أن يسحب الواحد منهم مسدسه ويضع فوهته على صدر غريمه . لذلك فالأسلحة تبقى دائما غير عامرة بالذخيرة ، وهم نادرا ما يخطئون التصويب ، واذا سحب أحد المقاتلين منهم زند مسدسه مصوبا سلاحه لمقاتل آخر ، فان شهود الواقعة سرعان ما يطلقون عليه الرصاص . وفى مصر فان هؤلاء الأرناؤوط (الألبان) الذين يستخدمون كجند غير نظاميين ، والذين ينقضون على الفلاحين البائسين اذا كانوا غير قادرين على دفع الضرائب ، أو غير راغبين فى دفعها — فقد كانوا يمثلون بالنسبة للسلطان رعبا . وفى مناسبات كثيرة تعاركوا مع الأجانب وأهانوا نسوة اوربيات . وفى الحجاز طال خطرهم حتى البدو . ويقول أهل المدن عنهم انهم « باعة خروش ، وخدم حمامات فى اسطنبول وفراعنة (١٦) فى شبه جزيرة العرب » ويسلى الأرناؤوط (الألبان) أنفسهم فى جدة باطلاق النار على القنصل الانجليزى — السيد أوجلفى Ogilvie — عندما يسير فى شرفته . ويبدو لهم اطلاق النار على رجل ، رياضة محببة . وتوضح حكايات كثيرة فى القاهرة ما اعتادوه من ايذاء الجمالة ، اذا تجاسر واحد منهم ومر راكبا أمام ثكناتهم . والألبان يتبجحون بمهارتهم فى استخدام الأسلحة ، ويتعالون على العرب والمصريين على نحو سواء . الا اننى لم اجدهم بارعين فى استخدام اى سلاح (باستثناء المسدسات) ، وضباطنا الذين زاروا تلال بلادهم يتحدثون عنهم باعتبارهم ذوى قدرات معقولة ، الا أنهم بلا جدال — أفضل من يستخدم البنادق rifles .

وقد قام اليوزباشى غير النظامى ومشى بعظمة خارج الغرفة بعد أن ابدى حزنا لأنه لم يحقق سعادته باطلاق النار على ، وبعد أن نظر لى بحقد وغل لفترة من الزمن . وبعد ذلك بيوم أو يومين دعوته بلطف كاف فجلس معى وشرب فنجانا من القهوة ودخن الشيشة ، وبدأنا نتحدث . لكن لأنه يعرف حوالى مائة كلمة عربية ، وكلماتى التركية هى الغالبة ، فان الحديث بيننا واجه صعوبات . لكنه سرعان ما طلب منى همسا

---

(١٦) المقصود : غلاظ ومتجبرون — (المترجم) .

« عرقى Araki » فاجبته انه لا أحد فى الخان مما أدى الى اصدار شخير ونفير كنفير الحمار ، وكلمة الحمار هى الكلمة الاصطلاحية العامية التي يطلقها المسلمون المتمسكون بدينهم على السكير · وبعد ان قام ايذانا برحيله حاصرنى بمزاح ، وتفحصنى بعينيه اللتين دلتانى على انه كان يجرب قوتى · لقد عرض نفسه لاحدى حركات المصارعة والتى تسمى اصطلاحا حركة الأرداف المتصالبة (١٨) وجعل رأسه تلامس مباشرة الأرضية الصخرية بدلا من سريرى ، ظنا منه اننى كطبيب هندى ورجل معتدل قد لا أكون خطرا للغاية ، ويبدو أنه لم يكن قد شرب (خمرا) لعدة أيام · وكان لسقطته أثر طيب فى مزاجه ، فقد قفز عاليا ، وربت على رأسى وطلب تدخين شيشة أخرى وجلس ليرينى جروحه ، ليتباهى بأعماله البطولية · ولم أستطع أن أتفحص خاتما من ذهب انجليزى بفص من حجر الدم (عقيق مخضر به بقع حمراء) استقر بشكل غريب فى يده الخشنة التى سفعتها الشمس · وقد صرح أنه اختطفه من احد القناصل فى جدة ، وأرجع تاريخ اكتسابه له — مازحا — بأنه خليط من تاريخ ألبانى وتركى وعربى · وتوسل الى أن أمده بقليل من سم غير مميت لتهدئة عدو يسبب له المشاكل ، فأعطيته خمس حبات من دواء مسهل (كالوميل) لهذا الغرض النبيل » !! فأخفاها بعناية فى جيبه · وقبل أن يستأذن فى الانصراف شدد على دعوتى للشرب معه ، ورفضت أن يكون ذلك بالنهار ، لكننى رغبة منى فى معرفة الطريقة التى يضحى بها هؤلاء الناس للاله باخوس — وعدته — مطاوعا اياه — بأن أشرب معه ليلا · وفى حوالى الساعة التاسعة عندما هدأ الخان أخذت شيشة وكيس تمباك ووضعت خنجرى فى حزامى ، وتسللت الى غرفة على أغا · فوجدته جالسا على فراش فوق الأرض وأمامه أربع شمعات (كل الشرقيين يفضلون الشرب فى النور الساطع) ، وطبق كبير ملىء بالحساء وطبق من اللحم المسلوق البارد ، وطبقان من السلطة من خيار مقطع وروب (زبادى) ، وقارورة عرقى نحيلة وطويلة من زجاج أبيض ، وقارورة أخرى ذات رائحة قوية ، وكلتا القارورتين لفتا فى خرق مبللة ، وهى الوسيلة المعتادة للتبريد ·

وقد رحب على أغا بى بأدب ، ولما رآنى معجبا باستعداداته نبهنى الى أننى كنت أظن أن الألبان لا يعرفون كيف يشربون ، وأجلسنى الى جواره عى الفراش ، وقذف بخنجره عى طول يده ، وهى اشارة الى أن أفعل الشىء نفسه ، وتهيأنا لنبدأ المباراة (المقصود مباراة الشرب

---

(١٧) نوع من الخمور — (المترجم) ·

(١٨) النص : "Cross-buttock" وهى ترجمة اجتهادية — (المترجم) ·

والأكل) · واخذ كاسا صغيرة من النوع الذى يستخدمه الجونيون (المريجية) الفرنسيون لشرب الجوت la goutte وتفحصها ومسحها باصبعه السبابة من الداخل ، وملأها حتى حافتها ، وقدمها لي مع انحناءة. فتقبلتها منه ، بسلام خفيض ، وابتلعت ما بها دفعة واحدة ، وقلبتها دلالة على اننى شربت كل ما بها ، ووضعتها على الأرض ، مع حركة فكهة من ذراعى ، تشبه على نحو ما يفعله الملاكم عند نهاية الجولة ، وانحنيت مرة أخرى،وطلبت منه أن يشرب بدوره · فقام بالاجراءات نفسها التى سبق أن قمت بها · وكنا نشرب جرعات من الماء ونتناول قدر ملعقة من اللحم أو السلطة لتبريد حلوقنا ــ عقب كل كأس من المشروب مباشرة · وعدنا لشيشتنا فنفثنا دخانا كثيفا كون سحابة ضخمة فى الغرفة ، وراح كل واحد منا ينظر للآخر نظرات السرور والتفكه فالشراب عند المسلمين نوع من الخطايا الجالبة للتفكه والسرور ·

لقد كان اليوزباشى الألبانى مخمورا ثملا منذ البداية عندما شرعت فى مباراة الشرب معه ، ومع هذا فقد استمر يملأ كؤوسه ويفرغها فى جوفه دون تبصر للعواقب ·· وكنت اتوقع لفترة ــ عبثا ــ أن يصدر عنه مزاح خشن أو طرائف فاحشة ، وهو ما يصاحب الشرب بشكل عام عند الجنوبيين الشرقيين · لكن على اغا ــ فى الحقيقة ــ لم يزد على ملء كف يده اليمنى بالعطر ينثره فى وجهى ، وكنت أفعل مثل ذلك ·

وبعد ذلك بدأ صديقى مشروعه الكبير ، فطلب منى انه يجب أن اغرى الحاج والى ــ الرجل المحترم ــ بالقدوم للغرفة لنجبره على الشرب · وكانت الفكرة طريفة مضحكة فستجعل قاضى شارع بو الوقور يرقص البولكا (١٩) فى الكازينو (٢٠) · وبدأت افتش عن الحاج (الحاجى) والى، وعندما رجعت وهو معى (اى الحاج والى) وجدت على اغا قد وصل الى مرحلة جديدة من مراحل « انبساط السكارى » فقد اقام فرع شجرة اخضر ، وأوقفه على الأرض (بسناد) وراح يقلب الماء ، ليصدر صوت القرقرة ، وراح يسكب الماء ببطء ليكون مجرى غير عريض من ماء يجرى تحت الخضرة (فرع الشجرة الذى اقامه) ، بينما هو يجلس محدقا متأملا ــ وهو منتفخ فى أبهة زائفة تذكرنا بأوهام دون كيشوت الضعيفة ــ فى ظلال أشجار مزرعة أبيه وبين غدرانها · وربما يكون قد أسكن هذه

(١٩) البولكا رقصة بوهيمية مفعمة بالحيوية (عن معجم المورد) ــ (المترجم) ·

(٢٠) أو فى أحد نوادى القمار وهو ما تفيده أيضا كلمة Casino . (المترجم) ·

الأرض وعمرها « بالبرابرة الشبان » لأننى ـ حقيقة ـ ظننت أن دمعة كانت تتألق فى عينه المتحجرة !!

الا أن ظهور الحاج والى ـ فجأة ـ قد غير المشهد كله ، فقد قفز على اغا ، وحاصر الزائر (المقصود الحاج والى) بكتفه وأجبره على الجلوس وانتهز فرصة فزع الرجل العجوز عند رؤية المنظر ، وملأ كأسا ، وقلب سحنته بشكل خيالى ، وأصر أن يشربه الحاج ، الا أنه رفض بعناد عندئذ وضع على اغا الكأس عند شفتيه وأفرغه فى جوفه ، فتضرر الرجل وتفزز ووبخنا · وقد جعلنا صديقنا غير المرح (الحاج والى) يأخذ بعض انفاس قليلة من الشيشة ، ثم عدنا سيرتنا الأولى · ولم تجد توسلات الحاج بأنه لم يقترف اثم شرب الخمر طول حياته ، كما لم يجد قوله بأنه سيشرب معنا غدا ، ولم يجد استشهاده بآيات القرآن الكريم ، فراح يلاطفنا حينا ، ويهددنا بالشرطة أحيانا أخرى · وأخيرا هب الحاج واندفع خارجا لا يلوى على شيء ، تاركا طربوشه ، وخفه (صندله) وشيشته فى أيدى الأعداء ! ولم يجرؤ على اغا على متابعة الحاج بعد باب الغرفة ، فعاد يسكب السائل الدنس (الخمر) على كابه (غطاء رأسه) وشيشته وحذائه ، وراح يصف الحاج والى بكل اللغات التى يعرفها بأنه حمار ·

ثم هيأنا أنفسنا لتناول العشاء فجهزنا الحساء واللحم المسلوق والسلطة ، وشربنا قليلا من الكئوس ، ودخنا الشيشة قليلا ، لنتحاشى عسر الهضم ، الا أن على أغا هب واقفا بشكل ملوكى مهيب ، وقال انه يريد مجموعة من الراقصات ليمتع ناظريه بالرقص ·

فأعلنت أن هذا الأمر ممنوع فى الخان فسأل بعنف رزين : « من الذى منعه ؟ » فقلت له : « الباشا » وبعد اجابتى هذه حرك على أغا كابه (غطاء رأسه) بهدوء ، وفركه بساعده الأيمن وثبته على جبهته ، وتقدم للأمام ، وبرم شاربيه ، ووضع الشيشة على كتفه ، وتحرك ناحية الباب ، وصرخ قائلا انه سيجعل الباشا نفسه يأتى ليرقص أمامنا ·

لأننى كنت أتوقع حدوث جلبة وعراك · فقد شعرت بالامتنان لأن صديقى المرح (السكران) نسى خنجره · وهتف هاتف الحكمة فى نفسى أن أعود لغرفتى لأغلق بابى وآوى الى فراشى ، الا أن تفكيرى الواعى هدانى الا أترك الألبانى فى وضعه الحالى حيث لا يجدى تقديم أى عون له · لذلك فقد تبعته فى الممر الخارجى وجررته نحو الحجرة ، وتوسلت اليه أن يعود لغرفته ، كما تفعل الزوجة اليائسة لاجبار زوجها المخمور على العودة لبيته ، الا انه ـ مثله فى ذلك مثل الزوج البريطانى ـ غضب

غضبا شديدا بسبب هذه النصيحة غير المحببة ، وضرب – فورا – بأنبوب شيشته أول شخص قابله فى الممر ، وجعله يولى هاربا هابطا السلم ، وراح يصيح صيحات مخيفة قائلا : « يا مصريين · يا ملاعين · يا جنس فرعون يا جنس كلب ·· يا مصريين »

ثم اندفع وفتح بابا بكتفه وترنح داخل الغرفة حيث كانت سيدتان عجوزان تستريحان بهدوء الى جوار زوجيهما اللذين كانا يعملان فى صناعة السلال ، سرعان ما استيقظوا ولما رأوا غريبا فى غرفتهم وسمعوا ألفاظه البذيئة ردوا عليه بوابل حار من الشتائم والتوبيخ ·

لقد حسم لسان العجوزين المعركة ، ورغم كل محاولاتى فان على أغا هبط السلم مترنحا وسقط فوق فراش حارس الليل (بواب الليل) ، ولحسن حظ على أغا فقد كان خادمه وهو صبى ألبانى قوى – منطرحا على حصيرة فى مدخل قريب ، فقام بسبب الجلبة الحادثة ، وقفز ووجد اليوزباشى فى حالة غضب شديد ، وكان من الواضح أن الخادم معتاد على مزاج سيده ، فطلب منا جميعا – دون تأخير – المساعدة ، فمددنا أيدينا للمساعدة وراح نصفنا يجر اليوزباشى الألبانى ، ونصفنا الآخر يحمله حتى وصلنا به لغرفته ، ورغم وضعه الحقير هذا ، فقد صرخ بأعلى صوته ، صرخة الحرب القديمة (التى قالها آنفا) « آه يا مصريين ، يا جنس كلب ، ·· لقد لوثت شرف كل نساء الاسكندرية ، وكل نساء القاهرة ، وكل نساء السويس » ووضعناه على فراشة وهو فى تبجحه هذا · ولا أظن أن طالبا ويلزيا (من ويلز) لم يتخرج فى اكسفورد – فى ظروف مشابهة – يمكن أن يسبب متاعب أكثر من هذا ·

وقابلنى الحاج والى فى صبيحة اليوم التالى بابتسامة صفراء وقال لى : « لقد قمت بأفضل بداية لرحلة حجك ! » ·

وقد كان على حق ، فقد ظل الحديث فى الخان طوال أسبوع تقريبا يكاد يقتصر على ما فعله اليوزباشى غير النظامى ، الألبانى الكريه، وعلى نفاق الطبيب الهندى مدعى الوقار · هذا عزيزى القارىء ما فقدته فى القاهرة ، لقد فقدت سمعتى كرجل محترم جاد ·· اذ كان على أن أبين للجميع – من خلال الخبرة الشخصية – نتيجة شرب المسكر مع ألبانى

ولم أضع الا وقتا يسيرا فى استئذان أصدقائى وأخبرتهم – على سبيل الاحتياط – أن هدفى هو أن أصل الى مكة المكرمة ، عن طريق جدة،

بينما كان هدفي الحقيقي هو الوصول للمدينة المنورة عن طريق ينبع ان امكنني ذلك • فالمثل العربى يقول :

اكتم ذهبك ومذهبك وذهابك ••

(٢١) Conceal Thy Tenets Thy Treasure ané Thy travelling.

---

(٢١) هذا بالتاكيد ليس مثلا عربيا ، وانما هو قول يردده الشيعة الفرس من باب التقية ، وقد راجعت كتاب الامثال للميدانى على سبيل المثال ، فلم اجد هذا المثل ضمن الامثال العربية ، ويبدو ان ثقافة بيرتون الواسعة (العربيـة والفارسـية والهنديـة والاوربية) جعلته يخلط بين عناصر الثقافات المختلفة فالعرب بشكل عام لم يصلوا فى التقية الى حد قول عكس ما ينوون فعـله ، وان كانوا يقولون احيـانا اقوالا على شـاكله « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » أو (دارى على شمعتك) ••• الخ (المترجم)•

الفصـل الثامن

من القاهرة للسويس

الاتفاق مع الشيخ نصار (بدوى من الطور) ــ حضور الشيخ الافغانى للوداع ــ العيون النيلية ــ قبائل سيناء ــ وصف الطريق الصحراوى من القاهرة للسويس ــ لقاء محمد البسيونى مرة اخرى ــ مقام الدكرورى ــ لقاء حجاج مغاربة بائسين فى الطريق ــ جهود محمد على لتامين الطريق ــ قلعة العجرودى ــ بير السويس ــ بوابة السويس ــ خان جرجس الزهر ــ

وافق الشيخ نصار ــ وهو بدوى من الطور (جبل سيناء) كان فى طريقه لبلده ــ أن يعطينى جملين ، مقابل خمسين قرشا (حوالى عشرة شلنات انجليزية) للجمل الواحد · ولأننى كنت أرغب فى أن أبدو بمظهر محترم ، فقد قبلت هذه الشروط : رجل متواضع يسافر راكبا جملا ، ويجر الجمال خلفه · ولكن بالاضافة للتفاخر والتباهى ، فقد أردت لمرافقى (تابعى) أن يكون راكبا ، فقد نضطر للمشى القسرى ، وذلك لأتأكد بالتجربة العملية الى أى مدى أضاعت أربع سنوات من الحياة الأوربية اللينة (المخنثة) قدرتى على التحمل · وقد يعتقد القارىء جازما أن هناك محكات (تجارب) اخرى قليلة أفضل من الركوب فى عز الصيف مسافة أربعة وثمانين ميلا على سرج خشبى يحمله جمل سيىء ، عبر صحراء السويس · انه حتى حامل الدروع القوى التابع للفارس المشهور بصفائحه النحاسية · قد لا يزدرى (يستسهل) تجربة من هذا النوع ·

وقد جعلت صبيى الهندى ، وامتعتى الثقيلة تسبقنى للسويس بيومين · فالجمال المحملة ــ بشكل عام ــ تستغرق خمسا وخمسين ساعة أو ستين ساعة لانجاز هذه الرحلة ، وقد قضيت الفترة ما بين انطلاق صبيى الهندى وامتعتى الثقيلة من ناحية ، ورحيلى من ناحية أخرى مع الحاج والى · وقد نصحنى أن اركب منطلقا فى حوالى الساعة الثالثة عصرا ، فبذلك ربما أصل للسويس فى مساء اليوم التالى ، وساعدنى فى

تجهيز ما أحتاجه للرحلة من ماء وتمباك ومؤن · وفى الصباح الباكر فى يوم رحيلى حضر الشيخ الأفغانى الى الخان ، وتناول طعام افطاره معنا « فهذه ارادة الله » وبعد أن أفطر بشراهة ، وضع يده على فى وضع من يمنح البركة ، وأراد معانقتى ، ولكننى أبعدت يده بتواضع ، وبمجرد أن أعطانا قفاه ، أشار الحاج والى بسبابته وانفجر ضاحكا بشكل ساخر · وحزنت لهذا · وفى الساعة الثالثة حضر نصار البدوى ليعلننى أن الجمال قد أسرجت · فارتديت ملابسى ، ووضعت مسدسى فى حزامى ، وجعلت الخيط الحريرى القرمزى الذى ربطت فيه (الحمايل) أو الكيس الذى يحمل فيه المصحف ـ ظاهرا على كتفى دلالة على أننى حاج · ثم وزعت قليلا من الهدايا البسيطة للأصدقاء والخدم ، وهبطت السلم هبوط الأشخاص المهمين ، مصحوبا بالشيخ محمد والحاج والى · وفى الساحة وجدت الجمال جاثمة ، ووجدت أن الجمال الثانى هو الذى سيصحبنا · وقد اعترضت على هذا لأن البدوى الرئيسى (الجمال الأساسى) كان يتوقع بطبيعة الحال أن أطعمه على نفقتى ، الا أن نصار أقسم أن هذا الرجل (الجمال الثانى) أخوه ، ولما كان من النادر أن تفوز عند الدخول فى أى خلاف مع هؤلاء الناس ، فقد سمحت للجمال الثانى بقيادة جملى ·

ثم أتى وقت الاستعداد للوداع ، فعانقنى الحاج والى بحرارة ، وفعل الشئ نفسه شيخى العجوز الفقير الذى أصر على اصطحابى حتى بوابة القاهرة ، رغم ضعفه ، ورغم اعتراضى · وركبت الجمل ، وعبرت ساقى قبل الحنو (١) (وهو القسم من السرج المقوس المرتفع من قدام السرج ومن مؤخره) والركاب ، وهو أسلوب غير معتاد فى مصر ، وتقدمت صديقى ، وهبطت الشارع المؤدى للصحراء · ولما برزنا من البوابة الضخمة للخان فان كل المشاهدين ـ ما عدا البواب ـ الذين كانوا يعتقدون أننى فارسى ، والذين كانوا قد رأونى مع اليوزباشى الألبانى السكير ، قد صاحوا قائلين : « الله يبارك فيك يا الحاج (٢) ، ويعيدك لبلدك وأحبابك ! » ولما مررت عبر بوابة النصر ألقيت السلام على الخفير ، والضابط المسئول عن الحراسة ، فدعيا لى بالتوسيق بحرارة فمباركة الحاج والدعاء له فى آسيا ـ كدعوات النسوة العجائز فى

---

(١) أو القربوس

(٢) يا حاج ، واضافة الألف واللام فى مثل هذه الصياغة لا تزال مستخدمة حتى الآن فى شبه الجزيرة العربية ·· « يا المدرس يا الحاج ·· يا السائق ·· وهكذا » ـ (المترجم)

أوربا ، من المفترض أن لها تأثيرا خاصا · وخـارج البوابة ودعنى أصدقائى الوداع النهائى ، ولا أنكر أننى شعرت بالأسى لفراق وجوههم الأمينة التى بدأت تختفى عن ناظرى كلما ابتعدت ·

لكن الشيخ نصارا غمز كتف جمله ، وبدا أنه يميل لأخذ زمام المبادرة · أنها تجربة لاختبار التحمل والرجولة ، فلا وقت للعواطف ، ولا يمكن اضاعة لحظة أو استبدالها بلحظة أخرى حتى لو كان ذلك لتذكر ما جرى ، فركلت جملى الذى هرول بسبب وكزة قدمى · وحاول البدوى بضحكة مدوية أن يمر بجانبى ليطمئننى ، الا أننى قاومت ، واستمررنا – كالأطفال – نعدو حتى وصلت الجمال لأقصى سرعتها ، مع أنه مازال أمامنا أربعة وثمانين ميلا ، كما أن الجو كان ملتهبا كنفخ الأتون وكان الطريق خاليا فى هذه الساعة ، والا لأنبنا المسافرون من المسلمين الجادين (لارهاق الجمال بالسرعة الشديدة فى هـذا الجو القائظ) معتقدين أن الشرطة هى التى تصلح مع أمثالنا ·

وسرعان ما أرخينا العنان وغيرنا خطو الجمال بما هو أكثر ملاءمة لموسم الصيف ، بينما كانت الشمس قد بدأت تنم عن ضعف الانسـان والحيوان (الجمـل والجمـال) ، فالحرارة المنعكسة تصفعنا بشـكل محسوس والوهج المنبعث من حصباء الطريق يكيل لنا مزيدا من الحرارة · وبدأ البدو يدخنون لانعاش أنفسهم ، وملأوا الشيبوك (ما يشبه الشيشة) الخاص بى وأوقدوه بالقدح (ضرب حجر الصوان بقطعة من الصلب) ، وقطعة قطن مغروسة فى محلول البارود (٣) ، ومرروه لى (الشيبوك) · وبعد بضعة أنفاس قليلة أعدته اليهم ، فأداروه بينهم · ثم بدءوا – دفعـا للملل فى توجيه الأسئلة التى بدت مع مرور الوقت ، وكأنها لا تنتهى ، لأنهم لا يرضون الا اذا عرفوا منك ، أكثر مما تعرفه عن نفسك · ثم عادوا بعد ذلك للحديث عن الأكل ، فالطعام مع هذا الجنس الجائع يحل فى النقاش محل النقود فى البلاد الأسعد حظا ، وأخيرا ، وحتى بعد استنفاد الحديث فى هذا الموضوع (الأكل) ، لجأوا للغنـاء · وغناؤهم their Modinha – برتابته وملله – يخلو من « الشجن الفنى » ·

فاذا استمعت للكلمات ، فكأنك بالتأكيد تسمع ايحاءات بالخضرة النضرة ، والظل المنعش ، والغدران ذوات الخرير أو شىء بعيد عن المنال تتمناه النفس ·

---

(٣) and Cotton dipped in Solution of Gunpowder.

والآن ـ بينما ناصر وأخوه ـ يغنيان معا لحنا ثنائيا ـ فان اللازمة (العبارة المكررة بعد كل مقطع من مقاطع الأغنية) هي :

والأرض يبللها المطر

« والأرض مبلول بمطر » (٤) ٠

وأود أن اترك استطرادى هذا ، لأتحدث بايجاز عن القبائل العربية فى سيناء ، رغم انه موضوع ممل ٠

فبالاضافة للقبائل التى تشغل الأجزاء الشمالية من شبه جزيرة سيناء ، عدد بوركهارت خمس عشائر رئيسية ٠ وقد قسم تصار ، ومصادر أخرى في السويس هذه العشائر الى ست ، هى :

١ ـ قرشى ـ مثلهم مثل الجارا Gara (؟ !) فى شرق شبه الجزيرة العربية يدعون الانتساب الى قبيلة قريش العظيمة ـ وهو انتساب مشكوك فيه ٠

٢ ـ صالحى Salihi وهى الأسرة الرئيسية بين بدو سيناء ٠

٣ ـ عارفى : ووفقا لما ذكره بوركهارت فان هذه العشيرة مجرد فرع من الصوالحة Sawalihahs ٠

٤ ـ سعيدى : وقد أسماهم بوركهارت أولاد سعد (ولاد سعد أو ولد سعد) وجعلهم أيضا فرعا من الصوالحة ٠

٥ ـ العليقى Aliqi . :

٦ ـ واخيرا : مزينة Muzaynah وتنطق بشكل عام مزينة Mzaynah وتدعى أنها فرع من قبيلة جهينة الكبيرة ، التى تسكن الساحل عند ينبع الى الداخل قليلا منها ٠ ووفقا لما تقوله المرويات الشفهية ، فان الثأر ألجأ جدود مزينة الحالية ، وكانو خمسة الى ترك وطنهم الأصلى (نجد وما حولها) ، فحطوا رحالهم عند الشروم

---

(٤) النص :

Wa'al arz mablul bi matar

ولا شك أن بيرتون أساء السمع ، فالبدو ، والعرب عامة لا يذكرون الأرض ، فيقولون الأرض (مبلولة) وليس (مبلول) ٠ وعلى أية حال فان بيرتون نقل المعنى للانجليزية صحيحا :

'And the earth wet with rain.

(جمع شرم) وانتشروا الآن فى الأجزاء الشرقية لشبه جزيرة سيناء • ومزينة فى الحجاز ، قبيلة عــريقة ونبيلة • فقد أنجبت كعب الأحبار الشاعر الشهير ، الذى قدم له محمد (صلى الله عليه وسلم) خلعة يعتقد العثمانيون أن السلطان سليم قد أخــذها من مصر ، وأصبح اسمها الخرقة الشريفة ، وأصبحت رمزا ومصدر الهام للعثمانيين فى حروبهم الوطنية •

وثمة بعض الملاحظات الاثنوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) المشوقة المتعلقة بعشائر سيناء وهى ـ أى هذه الملاحظات ـ مشوقة على الأقل بالنسبة لمن قد يتتبعون أنساب القبائل العربية الكبرى • فكل من يعرف البدو يمكنه أن يرى أن مزينة قبيلة ذات دم نقى (تشكل عرقا) فجباههم عريضــة ووجوههم نحيلة (ضــيقة) وملامحهــم منتظمة وعيــونهم ذوات حجم معتدل ، بينما عشائر **الطواره** Tawarah الآخرين (أى باقى أهل سيناء) فيشبهون المصريين بشــكل واضح • فلا يحتفظون باســتدارة وجوههم التى ربما لا تزال تتجلى فى وجه أبى الهول ، وفى وجوه الأقباط المحدثين ، كما أن لعيونهم ذلك الحجم المميز ، والشكل المميز ، والنظرة المميزة ، التى حاول الفنان المصرى القديم التعبير عنها برسمها على جانب الوجه بشكل كامل • وقد كان على أن أركز بشدة على هذا الملمح الذى يعد أحد خصائص الجنس النيلى Nilotic race فليس من رحالة ألف العيوف المصرية الحقيقية يمكن أن يخطىء تميزها فهى طويلة ، تشبه حبة اللوز ، عميقة الأهداب ، ترتفع ارتفاعا طفيفا عند ركنها الخارجى ، وتنخفض من الأمام (من واجهتها) كالعين الصينية • وترى هذه العيون عند العناصر المولدة (الهجنة) فقد سبق لى أن رأيت هذه العيون تزين وجــوه أسر اســتقرت لأجيال فى الأراضى المقــدسة بالحجاز وترجع فى أصولها لضفاف النيل •

لكل هذا فاننى أعتقد أن بدو الطور (بدو ســيناء) ليســوا بدوا خلصا ، انهم عناصر مصرية شامية مختلطة ، بينما جيرانهم من بدو الحجاز عناصر شامية أو عراقية خالصة •

لقد حدث تغييــر مدهش فى قبــائل **الطواره** Tawarah (قبائل شبه جزيرة سيناء) ، ففيما مضى وصفهم السير جون ماندفيل Mandeville بأنهم قطعان شريرة ، وكتب نيبور عن المشاكل التى سببوها له ، وميلهم الشديد للقتل والنهب • وحتى فى أوائل عهد الراحل محمد على ، لم يكن أى مدير للسويس يجرؤ على أن يضرب بالسياط أى طورى (سيناوى) ولا أن يجبره على رفع يديه ، وكل ما كان يمكنه عمله ازاءه هو التحفظ عليه داخل أسوار السويس ، أما الآن فان السلطات تأخــذ سيف الطورى من منه •

(المتوحش) قبل أن تسمح له بدخول البوابات . وكان جعفر بك أحد معارفي القدماء يظن أنه ليس أكثر من مهاجمة البدو الا ضرب الفلاحين بالسياط . تلك هي نتيجة سياسة مخمد على النشطة وهذا هو الأثر الذى تتركه حتى الوسائل نصف المتحضرة عند توجيه جل اهتمامها وحشد كل طاقاتها لاصلاح الجماعات المتبربرة .

ولأنهى هذا الموضوع ، أذكر أن الطواره (أهل سيناء) لازالوا يحتفظون بكثير من خصائص البدو (٥) فهم اجتماعيون ومحبون للدعابة ، وهم يبتهجون لسماع النكات (الدعابات) وقد يمكن توجيههم وادارتهم باللطف والكياسة . بل انهم قوم يمكن استثارتهم بالأمور المتعلقة بالشرف ، وهم محبون للانتقام ، ومن السهل اغضابهم اذا أسيء فهم ارائهم واحكامهم المسبقة . وقد وجدتهم رفاقا ودودين يستحقون الاحترام لقلوبهم الطيبة وشجاعتهم التى لا يتطرق اليها الشك . أما هؤلاء الرحالة الذين يشكون من عجرفتهم وابتزازهم فاما أنهم يجهلون لغتهم أو يستثيرونهم بتعاليهم أو أن أشكالهم (لباسهم مثلا) غير مناسب ، لا يدفع البدو لاحترامهم .

لقد استمررنا فى رحلتنا حتى قرب الغروب خلال البرارى المقفرة دون أن يعترينا الملل . انه لأمر غريب أن ينشغل العقل ويسعد بمشهد لا يضم الا عناصر قليلة . الا أن كل شكل بسيط ، وكل لون يلفت الانتباه ، فالحواس مرهفة ، والقدرة على الادراك تتوهج عندما تستثيرها القدرة على استيعاب كل التفاصيل . وأكثر من هذا فالمناظر الصحراوية ببروزها وضخامتها الهائلة ، مناظر موحية مثيرة . انها مناظر تحتكم للمستقبل لا الى الماضى انها توقظ العقل والشعور لأنها بلا شك ــ لا تنسى . وبالنسبة لعابر السبيل الذى يسافر وحيدا فانه يجد متعة فى القفار لا يجدها فى الرءوس (الأراضى الداخلة فى البحر أو المحيط) ولا فى أنهار الجليد الألبية (نسبة الى جبال الألب الأوربية) ولا حتى فى البرارى الشاسعة ــ فالاثارة المستمرة تصل بطاقات العقل وقدراته الى ذروتها . وفوق ذلك فان السماء كانت رهيبة رغم صفائها الجميل ، فسناها القاسى يعمى الأبصار ، ورياح السموم تداعبك ، كما يداعب الأسد فريسته بأنفاسه الحارة . وحولنا تتجمع أكوام الرمال التى ذرتها الرياح فتركت كل هبة منها أثرا واضحا على هيئة موجات قاسية ممثلة فى الصخور المنحوتة والمخدوشة والجبال التى أثرت فيها الرياح فجعلتها كالهياكل العظمية ، والهول الصلدة التى تجعل من يركب دابة فيها تلح عليه فكرة انفجار قربة الماء أو آلام حادة فى خف الجمل تعوقه عن المسير ، فهذه أو تلك

---

(٥) النص : الجنس البدوى Badawi race

تؤدى الى موت شنيع مؤكد ٠٠ فهذه الأرض الشرسة قد ابتليت بالحيوانات المتوحشة ، والبشر الأكثر توحشا ، انها أرض تتمتم عيون الماء فيها بهذه الكلمات التحذيرية « اشرب وابتعد » أو « اشرب وغادر المكان فورا » ٠ أى شيء يمكن أن يكون أكثر اثارة من هذا ؟ وأى شيء يمكن أن يكون مهيبا مروعا أكثر من هذا ؟ فقلب المرء مقيد فى صدره بفكرة أنه ضئيل أمام اتساع الصحراء ، كما أنه مشغول بالخروج من تجربة السفر فيها منتصرا ٠ وهذا يفسر المثل العربى (السفر انتصار) أو (الرحلة نصر) ٠ وفى الصحراء تجد الموت حاضرا – أكثر حتى مما لو كنت تسافر فى المحيط – فالصعوبات هناك ، واحتمالات سلبك قائمة ، بالاضافة الى أنه يمكن أن تضل الطريق ، وكل هذا يوردك موارد التهلكة ، فتموت وحيدا منعزلا ، مما يضيع عليك فرصة الموت وحولك جمع غفير ، فالموت كما يقول الفرس « مهرجان » Death's Festival وكل هذه الأخطار المفعمة بالمعانى لا تغيب أبدا ٠

دع المسافر الذى يظن فى قولنا مبالغة يغادر طريق السويس لساعة أو ساعتين ، ويتجه شمالا فوق الرمال ، حيث الصمت الموحش ، والوحدة القاتلة ، والعزلة الخيالية – ساعتها سيشعر بمعنى الصحراء ٠

ثم وصلنا الى الواحات ، وبعض المناطق القليلة ذوات الخصوبة ، التى كانت ناعمة وجميلة ، فحتى «وادى الورد» رغم أنه مجرد اسم يطلق على بعض المناطق الكالحة التى ينمو فيها قليل من الأشجار المزهرة التى تكافح لتبقى على قيد الحياة خلال موسم الشتاء ، الا أن العقل عند رؤية هذه المشاهد يتأثر بفعل تأثر جسده بالمشهد فرغم أن فمك يكاد يحترق ، ورغم أن جسدك يكاد يشوى فانك تشعر بانتعاش ، وتحس أن الحرارة قد تخللتها الرطوبة ، فتنتعش رئتاك ، ويبتهج بصرك ، وتستعيد ذاكرتك نشاطها ، وتصبح روحك يقظة مفعمة بالحياة ، وينشط خيالك وينطلق كأشد ما يكون النشاط والانطلاق ، كما أن الروح البرية للمناظر وعظمتها تحرك كل طاقات روحك – سواء بالاحساس بالاجهاد أو الخطر أو الرغبة فى الكفاح ؛ فروحك المعنوية تؤكد أنك أصبحت واضحا صريحا لا لبس فيك ولا غموض ، وأنك أصبحت ودودا محبا كريما متفرد العقل ، ولا غرو فقد خلفت خلفك فى المدينة روح الرياء وعبودية الحضارة ، وتحس أن كل حواسك قد اسرعت واشرأبت للانطلاق فهى لا تحتاج لما يحفزها أكثر من الهواء والحركة – انهما كئوس الانعاش الصحراوى ٠ والسعادة – كل السعادة – فى مجرد وجود حيوانات الصحراء ، ويقبل الانسان بشهية حتى على أكثر الأطعمة عسرا فى هضمها ، وترى الرمال أنعم وأكثر راحة من أى فراش ، ونقاء الهواء

يذب عنك فجأة جيوشا من الأمراض · ولهذا فان كل البشر ، رجالا ونساء ، شيبا وشبابا ، ذوى الخيال المنطلق والحالمين ، بل وأكثر الخلق جنوحا للمادية ، والكهنة ، وأهل المدن الوديعين ، والخادمة العجوز ، والطالب المسالم ، والطفل المدلل الذى أفسدته الحضارة · كل أولئك يشعرون وهم ينظرون من فوق جمالهم للصحراء العظيمة أن قلوبهم تتمدد ، وأن نبضهم يزداد قوة ، فأين سمعنا عن مسافر خيبت الصحراء رجاءه ؟ انه تفسير آخر للصدق القديم الذى قدمته الطبيعة للانسان · وصدقنى أنك اذا ما ألفت مثل هذه الرحلات ، فانك ستعانى معاناة حقيقية عند العودة لصخب الحضارة وازعاجاتها · وستنظر باشمئزاز للتوتر الذى تسببه هذه الحضارات ، واضطراباتها ، وحياتها المصطنعة ومسرتها الزائفة ، وستظل ـ لفترة ـ بعد عودتك تشعر بعدم قدرتك على تحمل الاجهاد العقلى أو البدنى ، نتيجة الضغوط الواقعة على روحك · فهواء المدن سيصيبك بالاكتئاب ، وتأنق أهل المدن وشحوب سحنتهم سيلازمانك كأنهما قدر لا فكاك منه ·

وحالما اعتلى الظل الأسود السماء الشرقية ، انحرفت عن الطريق ، وتلقيت ـ فجأة ـ تحية من شخص لم أتبين ملامحه : « السلام عليكم » وقالها بلسان عربى مبين ، ونظرت لمن ألقى على التحية للحظة دون أن أتعرف عليه · فتقدم وملامح السعادة والمزاح على وجهه ودعانى للشرب ، وأمسك بلجام جملى دون انتظار اجابتى ، وأناخه ، وجعلنى أسرع الى بساط افترشه على الرمال ، وتخلصت من خفى (صندلى) وقدم لى ماء باردا للوضوء ، وأخبرنى أنه أخطأ التعرف على من بعد ، فقد ظننى شريفا (أميرا) أو شيخا للعرب ، ولكنه أحس بالسعادة عندما اكتشف أنه كان على خطأ وحثنى على الاسراع فى الوضوء ، والا أدركنا الليل قبل أداء الصلاة · لقد كان هو محمد البسيونى ، المفتى المكى الذى كنت قد اشتريت منه ملابس الاحرام فى القاهرة · وقد كنت قد رفضت هناك (فى القاهرة) صحبته ، ولكن هنا ـ ولأسباب تخصه ، منها الحاجة الشديدة للمال · فانه لم يطلب الاذن · وعندما صلى وقف ورائى مما يدل على مرونة فى ضميره (قابليته للتكيف مع الظروف) لأنه شك فى منذ البداية شكا جعله يظن ـ على الأقل ـ أننى غير صحيح الاعتقاد ·

وبعد الصلاة أوقد الشيشة ، وقدم لى ليها (خرطومها) الشبيه بالثعبان واضعا اياه فى يدى ، وهو اغراء قلما يستطيع المسافر المرهق مقاومته ، ثم بدأ يبحث بدقة فى خرجى بعيرى ، وسحب منه مخزون مؤنى ، لفافات وبطيخ وبيض مسلوق وتمور ، وأثناء اشعال النار واعداد القهوة ، دبر أمر توزيع المؤن الخاصة به ـ ولم تكن وفيرة ولا جيدة ـ

على الجمالة · ونظر الشيخ نصار وأخوه بذعر لهذه « الحركة » ولكن الولد محمدا كان عنيدا · وقد لمح الشيخ نصار وأخوه تلميحات فظة ، فتحاشاها الولد محمد بغناء مقطع من أغنية هندوستانية مما يؤكد استهزاءه برءوسهم المدهونة بزيت الياسمين ، وقد تشككوا فى قدرته على الشم ، فراح يسخر منهم قائلا : « لقد سمعت عن أناس يتسمون باسم نصر ، وآخرون باسم ناصر ، أو منصور ، ولكن ان شاء الله يبدلنى من هو خير من نصار » لقد قال ذلك واثقا من تأييدى له · وقد حثثته على الاستمرار لرغبتى فى أن أرى كيف يعامل عرب المدينة (لا يقصد المدينة المنورة) الريفى · وبمجرد أن أحس بتشجيعى له أخذ كيس التمباك الخاص بى من البدوى الغاضب ووبخنى همسا لثقتى فى أمثال هؤلاء اللصوص ، وأصر فى الوقت نفسه — على شرب القهوة كلها حتى يضطر هؤلاء الأدلاء (الجمالة) الفقراء لاعداد بعض القهوة لأنفسهم لقد كان الولد محمد يبرهن فى كل مناسبة على انه مصدر ازعاج · وصاح نصار : « لقد أكلنا بطيخة » وربت على بطنه دلالة الشبع · فقال الولد محمد : « أسمعت يا سيدى ما يقوله هذا المتوحش ·· انه يقول : لقد أكلنا بطيخة ، لذلك يجب أن نأكل لحما » · فقال له البدوى وقد بلغ به الحنق مبلغه : « لا تثق بنفسك هكذا بين تلالنا » · فنزع الولد محمد سيفه وبدأ يقفز على نسق قفزات أهل شرق الهند وهم يحملون أسلحتهم ، وتباهى انه يستطيع أن يهاجم بيد واحدة عشيرة كاملة ، فانتزع قوله هذا من سامعيه سخرية عبروا عنها بقولهم : « الله ! الله » ·

وبعد قضاء ساعة كانت اكثر ساعات الطريق طرافة وتسلية ، نهضت مصرا على ركوب بعيرى مما سبب سخط أدلائى كثيرا لرغبتهم المبيت هناك · فقد كان الشيخ نصار وأخوه قد رتبوا أمورهم على المعيشة مجانا على حسابى ، ظنا منهم أننى باعتبارى (أفندى) لم يتعود التقشف من غير المحتمل أن أتعجل السفر · ولما رأيا الأمل يتلاشى ، بدءا فى الاحتيال لتحقيق هدفهم فأوعزا للجمال الذى كان يجرى الى جانب جمل الولد محمد أن يسبق الجمل (يبتعد عنه) ، وهى مناورة مفضلة لمنعنا من الاسراع ، ولما أمرت الجمال بالعودة للسير الى جانب جمل محمد تعلل بالتعب وعدم قدرته على المشى · وسرعان ما سألنى الولد محمد ان كان لدى اعتراض على نزول أحد دليلى ، على أن يركب الجمال المتعب لساعة أو نحوها ، ووافقت على ذلك مباشرة وأطاعنى البدوى وهو يتمتم متذمرا · وعندما استأنفنا مسيرنا لم يجد العرب (البدو) الساخطون أى أغنية يغنونها ، بينما راح الولد محمد يرفع صوته بصخب واختار كلمات هندوستانية سيئة وأخرى فارسية أسوأ منها ، حتى فرض الصمت جبروته عليه · وتلكأ الجمالون وتخلفوا عنى فى المسير لمنع جملى من الاسراع كثيرا ،

أما دليل (أو جمال) الولر محمد بعد أن أنزل من فوق الجمل، فقد راح يمشى بخطى واسعة أمامنا بحجة أنه يرينا الطريق · ولهذا فقد كنـا نعـدو بجمالنا ، وأصبحنا الآن نمشى ، وأحيانا نهرول حتى بدأت الجمال تتلكأ نتيجة التعب وراح العرب (البدو) يثيرون الجلبة طالبين التوقف ·

وفى منتصف الليل وصلنا لمحطة التوقف الوسـطى فترجلنـا عن جمالنا لنرتاح قليلا عند أسوارها · لقد كان الندى يتساقط كثيفـا ، فبلل أغطيتنا ، لكن من يهتم بهذه الأمور البسيطة فى الصحراء ؟! فالقمـر يتألق والنسائم تهب باردة ، وغنى ابن آوى أغنيته التى تغرى بالنـوم العميق · ونهضنا حـالما ظهـر ذيل الذئب فى السـماء وأعطى الضـباب الرقيق الذى كان يغلف التلال الشمالية ، (دار البيداء) ــ وهو الاسم الذى يطلقونه على قصر الباشا فى هذه الانحاء ــ منظر بعض قلاع الاقطاع القديمة (فى أوربا) · لقد كان الضباب الرقيق يغلف الجو ، وكان جميلا رغم أنه زاد من الاحساس باقفار المكان ، وانطلقت طيور القطا الرشيقة فى أسراب محدثة أصواتا ، وخطت الغزلان الشاردة برشاقة وجمال فى السهل الصخرى · وحالما مررنا بشجرة الحجاج ، وضعت دثارا آخر فوق معطفى البالى ، ثم طلبنا البركة متوسلين من قبر الولى الصالح الدكرورى ، وهو (أى القبر) مطلى باللون الاصفر الشاحب (الكريمى) ، ثم ركبنا جمالنا واستأنفنا المسـير بجـد حقيقى · وانقضى الفجر ببرودته اللطيفة وأقبـل الصبح بحرارته الشديدة ، ثم تألق النهار بحرارته الملتهبة وجعلت شمس الظهيرة ، السهل يتوهج بحرارة مرعبة · ولازلنا نتقدم باصرار ·

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر انحرفنا تاركين الطريق لندخل فى مجرى مائى جاف لا يبعد عن المحطة رقم ١٣ ، حيث تناثرت أوراق نبات الداتورا Datura الجـافة ، ونبـات الشيح ذو الرائحة النفاذة وهـو أحلى عشب صـحراوى · وأشـجار الميموزا Mimosa (السـنط غالبا) توجد هنا ، ورغم أن ظلها فى هذا الموسم كان قليلا فانه أفضـل من ظـل أشـجار الكاكاو ، ولم يكن من الممكن أن يتجـاهل البـدو ظـل أشجار السنط هذه ، فانطرحنا على الأرض لنسـتريح مع جمـاعة من الحجاج المغاربة كانوا فى طريقهم للسويس ، ويبدو فقراء وكان عـددهم حوالى اثنى عشر حاجا ، ويبدون من أدنى الطبقات الاجتماعية ، وكان لباس الواحد منهم عبارة عن برنس Burnus وخف (صندل) وسلاحهم الوحيد عبارة عن سكين طويلة ولا تزيد مؤونة الواحد منهم عن حقيبـة (كيس) من الذواشف (الأطعمة المجففة) ومع كل واحد منهم آنيـة خشبية كبيرة ، ولا يحمل أى واحد منهم ماء معه · وكان من المستحيل مساعدتهم فى مثل حالتهم التى تدعو للاشفاق ، كما لم أكن أستطيع أن آكل أمامهم

وأنا أراهم جوعى وعطشى ، أضناهم السفر . لذا فان نصارا قدم لكل واحد منهم رشفة ماء وقليلا من الخبز ، فطلبوا مزيدا فلم نعط أحدا منهم مزيدا ، فصاحوا طالبين مالا ، فقررت أن أكون كريما فى حدود بنسات قليلة . وقد جرت العادة على تقديم الصدقات ، بالاضافة للميل الطبيعى لذلك ، لكن عندما نقدم الصدقات بناء على طلبها ، وان يكون طلبها مدعما بنظرات نارية ، وشخير ساخر ، أو تحت تهديد سكاكينهم ، فخذ حذرك وانج بنفسك . وقد جعلتهم مسدساتى فى مأزق فلم يبذلوا سوى محاولة لاخافتى ، ورغم انى اتخذت حذرى فجلست بعيدا عنهم فلم يكن منهم خطر حقيقى . لقد أصبح طريق السويس بفضل الاجراءات الحكيمة التى اتخذها محمد على طريقا آمنا للمسافرين الأوربيين كالطريق بين همبستيد Hampstead وهايجيت Highgate ، بل آمنا للمسافرين الشرقيين ، فلم يعد فيه ما يخيفهم سوى ما تخلقه مخاوفهم هم . ولأن خادمى الهندى كان ممتلئا رعبا ، فقد جرى مبتعدا ، وعلى أية حال فاننى لم أثق فى هؤلاء المغاربة . وقد سمعت بعد ذلك أن هذا المكان شهد محاولة المغاربة اخافة (افزاع) ما ظنوه تركيا رعديدا كان مشهورا بالسلب والقتل . ويتقابل ــ هنا ــ أنفا (رعنسا) جبلين متواجهين فى سهل ، يعد مكانا أثيرا لنصب الكمائن البدوية . وسوق يكون لدى كثير مما يمكننى قوله عن هؤلاء المغاربة عند حديثى عن رحلتى فى سفينة الحج . فقد كانوا هم المسافرين الوحيدين الذين لاقينا منهم أكبر قدر من الازعاج ، فالجماعات الأخرى العديدة من ترك وعرب وأفغان وقلة من أهل شرق الهند كانوا جميعا ، لا يقصدون ــ مثلنا ــ الا الحج . فجميعهم كانوا يقرؤوننا السلام كلما مررنا بهم ، ذلك السلام الذى يذكر الانسان بواجبه الدينى .

وقبل غروب الشمس بحوالى نصف ساعة خرجت عن الطريق نحو الشمال بحجة تدبير ماء للجمال ، وركبت لأبحث عن قلعة العجرودى Al-Ajrudi انها مبنى رباعى الزوايا ذو أبراج أسطوانية عند بوابته ، وأركانه قد بنيت ــ مجددا ــ بالأحجار والملاط ، وهى مليئة الآن بالشقوق بحيث لا تصمد أمام قذائف المدفعية زنة اثنى عشر رطلا . وليس بالقلعة مدافع أو مدفعيون وانما يشغلها حوالى اثنى عشر فلاحا يعملون كخفراء Ghaffirs ، وكانوا يتوقعون فى ذلك الوقت أن يأتيهم من القاهرة تعزيز بمجموعة من الباش بوزوق (الجنود غير النظاميين) . وهناك من أقنع أهل المنطقة بأن الأسطول الانجليزى سيظهر قريبا جدا فى البحر الأحمر ، وان هذه القلعة بفضل جهودهم تعتبر مفتاح السويس . وهو قول يدعو للسخرية . وكما هو المعتاد فى هذه الأراضى التى تنقصها موارد مائية دائمة فان البئر التى يمد القلعة بالماء تقع فى مبنى بعيد ومنعزل ،

يستطيع العدو أن يتسلل اليه بأمان كامل · وفوق بوابة القلعة كتابات قديمة مقلوبة · وكان الماء تعتريه الملوحة ومن نوعية سيئة ·

واستأنفنا طريقنا ، فالسويس – الآن – غدت قريبة ، فعلى البعد حيث الزرقة : ترتفع قمم جبال Rahah ذوات القلاع ... أصقاع رملية يظهر عليها الطريق المؤدى للحجاز ، وتجلى أمامنا منظر عزيز على العيون الانجليزية – انه قطاع من بحر ذى زرقة سماوية رائعة ، تمخر عبابه باخرة أنيقة · وعن أيماننا المنحدرات العريضة لجبل المقطم Mukattam (٦) (؟) مسلسلة من التلال على جانبى الطريق من القاهرة للسويس ، وهو (المقطم) (٧) يشكل فى هذه الساعة مشهدا لا يمكن نسيانه بسهولة · فالسلسلة الغربية من صخور طباشيرية ورملية ترتدى حلة خمرية (ذات لون أسمر محمر ؟ فاذا ما سقطت عليه أشعة الشمس عند الغروب غدت مذهبة ، بينما تظلل كهوفها العميقة باللون الأرجوانى كأثرى ما يكون اللون الأرجوانى ، ويشكل جبل الطوارة Tawari – المعروف عموما باسم جبل (أبو دراج) الذى بدا أزرق سماويا ، مخططا بلون برقوقى فاتح – خلفية للتلال الأكثر ارتفاعا من سواها · واتجهنا صاعدين الى مبنى صغير (بير السويس) Bir Suways بحجة سقى الدواب وجلست نصف ساعة أمتع نفسى بمنظر الصحراء الرائع · ان العين لا تشبع من هذه الألوان المتدرجة فى بهاء ، كما أن الذاكرة لا تنسى بشاعة منظر هذه التلال اذا كشفت الشمس عن ملامحها الكالحة الجرداء ، لكن منظرها فى المساء يعطيها جاذبية ·

لقد مررنا عبر بوابة السويس ذات النوافذ الست المقلوبة (؟) عندما حل الليل ولا زال باقيا أن أبحث عن خادمى وممتلكاتى الشخصية المنقولة · وبعد البحث عنه فى كل الوكالات بالقرية ، وخلال ذلك أثبت الولد محمد أنه مفيد جدا مما جعلنى أقبل مرافقته لى متجاوزا عن كل المخاطر الناتجة عن ذلك ، وقد سمعنا أن هنديا قد احتجز مكانا فى خان يحمل اسم « خان جرجس الزهر » Jirjis al-zahar وعند وصولنا الى هذا الخان تلاشى أملنا لأن الأخبار أتتنا أن هذا الهندى نفسه قد أغلق حجرته وخرج مع أصدقائه الى الميناء ، وفى الحقيقة أنه قد اتخذ العدة للهرب ، فترجلت عن بعيرى وحاولت أن أفتح باب غرفته الخشبى بالكسر ولكن البواب رفض بشدة وهددنى بابلاغ الشرطة ، وفى هذه الأثناء وجد الولد محمد مجموعة أصدقاء ، رجال من أهل المدينة

---

(٦) ما الذى أتى بالمقطم هنا ؟! – (المترجم) ·

(٧) التعليق السابق ؟!

(المنورة) عائدين لأداء الحج بعد أن قاموا بجولة تسول فى مصر وتركيا ·
وكان لقاؤه بهم لقاء مميزا حيث الاستفسارات المتلهفة والقهقهة الصاخبة والأحضان الحارة · ودعائى الولد محمد لمشاركتهم عشاءهم ومهجعهم ـ وهو عبارة عن صالة غير مغطاة متفرعة من الممر الكائن فوق الصالة المربعة فى الطابق الأرضى ـ ولم يكن لدى الشهية أو الروح العالية لهذه المشاركة الاجتماعية فأرانى البواب ـ بعد أن بذلت جهدا فى اقناعه ـ غرفة خالية ففرشت فيها بساطى · لقد كانت ليلة حزينة ، فقد كانت عظامى كلها تؤلمنى نتيجة الركوب طوال أربعة وثمانين ميلا · لقد فقدت بشرتى الطبيعية.فأحرقت الشمس كل جزء من جسدى تعرض لها· لذا ، فقد رحت أندب أيام انحلالى (انحرافى) والأثر السيىء الذى تركته الاقامة بأوربا أربع سنوات على بدنى ، كما انشغل عقلى بمصير مقتنياتى ، لذا فقد رحت فى نوم قلق غير مريح ·

الفصل التاسع

السويس

البحث عن الأمتعة الضائعة ـ مقابلة المدير ـ عمر افندى الداغستانى (من مكة) ـ سعد الجنى ـ حامد السمان ـ صالح شكار ـ بيرتون يربح من تحويل العملن ـ طريق الحج بالابحار من السويس ـ طريق الحج البرى ـ طريق القصير ـ بقاء نظام الاحتكار فى ميناء السويس ـ فطومة ـ الجوارى ـ تجارة الرقيق ـ تقرير عن السويس وتجارتها ـ صفات المصرى ٠

لقد استيقظت مبكرا فى صباح اليوم التالى لوصولى ، وتناقشت مع معارفى الجدد عن الوسائل التى يجب اتخاذها لاعادة مقتنياتى الضائعة ، فنصحونى جميعا بزيارة المدير (المحافظ) مع أنهم وصفوه بأنه (كلب ابن كلب) لا يرد سلام المسلمين ويظن أن كل الناس أوساخ لابد أن يدوسهم الأتراك باقدامهم ٠ لقد اظهر الولد محمد لباقة اجتماعية فأخرج من سحارته (صندوقه الكبير) طاقية جميلة مطرزة ومعطفا قرنفليا ، فلبستهما على الفور ، كما اتخذ هو زينته بلباس بهى كاللباس الذى قدمه لى ، ثم خرجنا قاصدين قصر المدير ٠

لقد كان جعفر بك يشغل منصب القاضى والقائد العسكرى ، وجامع المكوس (الجمارك) وحاكم السويس ٠ لقد كان جعفر بك أمير لواء (مير لوا Mir-Liwa) وحقق بعض الشهرة كعسكرى بالاضافة لمعرفته السطحية باللغات والعلوم الأوربية ٠ واستقبلنى هذا التركى العجوز بكبر شديد وترفع عن رد السلام ، وحملق فى بعينين صغيرتين كأنهما مثقابان وسألنى عن طلبى ، فقلت ان شخصا اسمه الشيخ نور وهو خادمى الهندى قد خدعنى وانى أطلب اذنا لأكسر باب غرفته وأدخلها لأنى أظن أن بها مقتنياتى ، فسألنى عن مهنتى ، فأجبت أننى طبيب ، فجعله هذا يسألنى أن كان لدى أى دواء للعيون ، فأكدت له ذلك فأرسل معى

مندوبا لالزام البواب بالطاعة وتنفيذ الأمر · وعلى أية حال فان هذا الاجراء البغيض كان غير ضرورى ، فحالما دخلنا الخان ظهر عند الباب وجه الشيخ نور الأسود ناظرا بفزع كما لو كان يتوقع – بل ويستحق – أن يضرب بالخيزرانة ، رغم وجوده بين عدد كبير من اهل بلده · لقد كان – وفقا لروايته – قد أجبر على حضور مهرجان فى باخرة نقل فحم عمل بحاروها على جمع الرجال لحضوره · وكنت قد عقدت العزم على عقابه ، لكن شدة احساسه بالذنب أنقذه من عقابى ·

ويجب أن أصف الآن باختصار جماعة رجال مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) الذين ساقهم القدر فى طريقى · وستظهر أسماؤهم متتابعة فى الصفحات التاليات ، لكن بضع كلمات عن طبائعهم لا تخلو من فائدة ·

فأول هؤلاء هو **عمر افندى** وتطلق عليه من باب التشريف الداغستانى (من الجراكسة الشرقيين) حفيد المفتى الحنفى فى المدينة (المنورة) وابن الشيخ رجب Rakb (؟) الضابط المسئول عن قيادة قوافل الجمال · انه يجلس فوق سرير خفيف وهو قصير وضئيل وممتلىء الجسم ، أصفر البشرة ، صفراوى المزاج ، عيونه رمادية ، وملامحه ناعمة (رقيقة) وهو أمرد لا لحية له – وهذا ينعكس على احساسه ويبدو فى الخامسة عشرة من عمره مع أنه فى الثامنة والعشرين · ويتصرف كالتلاميذ ، وملابسه محترمة ،ويؤدى الصلوات فى مواقيتها ويكره الجنس اللطيف ، مثله فى ذلك مثل العرب يتسمون بالتطرف فى حبهم وفى كرههم دائما ، وهو رجل (جاد) ذو سلوك معتدل ، ومشية متواضعة وصوته رقيق خفيض · فاذا ما استثاره أحد غضب غضبا عارما كنمر بنغالى وقد أجبره والداه على الزواج ، ولكنه – مثله فى ذلك مثل قمر الزمان – أخبر والده أنه شخص « كبير السن قليل الفهم » ، وأكثر من هذا فقد ترك موطن والديه وجعل من نفسه « طالب علم » فقيرا فى الجامع الأزهر ، لأن والده أراد أن يجبره على التفرغ للدراسة فى المدينة (المنورة) · وأرسل أصدقاؤه الذين انفطرت قلوبهم لفراقه ، وكذلك أقاربه المفجوعون لبعده عنهم – رجلا ليتحدث اليه بصفة شخصية ويعيده لأهله ، بالقوة اذا لزم الأمر ، وقد استسلم للضغط الواقع عليه ، وهو الآن فى انتظار أول فرصة تسنح ليسافر – مجانا – الى المدينة المنورة ·

وذلك الشخص الموثوق به الذى أرسلوه لاقناع عمر افندى بالعودة هو خادم زنجى اسمه سعد مشهور بين أهل بلده (المدينة المنورة) باسم

الجنى Al-Jinni . (١) · وقد ولد وترعرع كعبد بين أفراد أسرة عمر أفندى ، وحصل على حريته اذ اعتقته الأسرة فأصبح جنديا فى الحجاز ولكنه استاء من تأخر دفع المعاشـات (الرواتب) المسـتحقة ، فعمـل بالتجارة ، وجال البلاد طولا وعرضا ، فارتحل الى روسيا والى جبل طارق ، والى بغداد · وهو أفريقى خالص يبدو سعيدا ذا صخب فى لحظة ، ويبدو صامتا متجهما فى لحظة أخرى ، ويبدو حنونا رقيقا ثم ينقلب على حين غرة بذيئا فاحشا ، ويكون شجاعا متبجحا ، واذا به طائش ، وسرعان ما تجده ماكرا وهو مشاكس ، ومنعدم الضمير تماما · والجانب المضيء فى شخصيته هو حبه واحترامه لسيده الشاب عمر أفندى حتى اذا وبخه فى نوبة غضب ، وهو يسرق منه (من سيده عمر أفندى) كل ما تطوله يداه · وهو سخى بما لديه ، لكنه دائما يقترض ولا يرد مـا أخـذه ، أما عن لباسه فهو يلبس كالمتسولين ويضع على رأسه التى تتدلى من مؤخرتها خصلات شعره ، أقذر طربوش يمـكن تصـوره ، ولا يستر جلده الأسود القاتم الا قميص من قطن – فى الوقت الذى يمتلىء صندوقاه بالملابس الجميلة الخاصة به وبزوجاته الثلاث فى المدينـة (المنورة) · وهو لا يخاف على شىء خوفه على هذين الصندوقين ، وقد فرض نفسه على حضرة جعفر بك حيث حط من قدر نفسه بصفاقته ، حتى اننا توقعنا أن نراه يعرج نتيجة ضرب قدميه (بالفلكة) · وعلى أية حال فان صفاقته لم تؤد الا الى التسرية عن جعفر بك · وتراه طوال اليوم يتجول فى السوق ، يتحدث عن الشحن والمرور ، لأنه كان قد قرر أن يسافر مجانا ، والحق أنه لابد أن ينجح فى تحقيق هدفه هذا ، مادام يمتلك هذا القدر الكبير من العناد والصفاقة ·

أما الشيخ حامد السمان – ويعنى لقبه بائع السمن – فيرجع فى نسبه الى الولى والصوفى القادرى (نسبة للطريقة القادرية) الشهير ، الذى ترك ذرية كثيرة من الأولياء والصوفية فى المدينة المنورة · والشيخ حامد السمان يجثم فوق صندوق ملىء بالهدايا لابنة عمه (زوجته) وهو مثال حى لعرب المدن · فقذاله (مؤخرة رأسه) مزدحمة (بشوشة)

---

(١) جعل بيرتون مقابلا لكلمة Al-Jinni ، اللفظ الانجليزى Demon وقد يكون هذا غير صحيح . والاقرب الى الصحة ان الجنى نسبة الى مدينة (جنى) فى نيجيريا . والنسبة للموطن معروفة فى شبه الجـزيرة العربيـة وغيرها (التكرورى) التمبكتو – نسبة لتمبكتو – الكنوى – نسبة الى كانوا . الداغستانى – نسبة لداغستان ··· وهكذا) – (المترجم) ·

Shushah غير مهذبة (مهوشة) أما وجهه فقذر ، وهو بنى اللون ، وأما لحيته الصغيرة التى تشبه لحية العنز سغير مهذبة ، وهو حافى القدمين ، وعباءته الوحيدة التى لها لون العملات الذهبية ففى الغاية من القذارة ، وهو لن يصلى لأنه لا يرغب فى اخراج ملابس (طاهرة) من صندوقه ، ولكنه يدخن اذا استطاع أن يحصل على تمباك الناس وهو يكح ويئن بين كل نفخة وأخرى (بين كل نفس وآخر) وهو ذو عقل نشط لذلك فهو يقضى يومه كاملا فى تصريف الأفعال (٢) وهو يستطيع أن يميز بين الحروف ، ويحمل فى صدره مخطوطا صغيرا مطويا أثر الاهمال فيه ، مملوءا بالقصص الجادة والدعوات الغبية ، والمخطوط قديم ومكتوب بخط ردىء ، وهو يخرجه من صدره فى بعض الأوقات ، ويتمتم بصوت واهن قارئا ما به للحظة ، ثم يقبله بتبجيل ويعيده لمكانه فى صدره بتوقير كتوقير العامة لكتاب • وهو يستطيع أن يغنى ، ويستطيع ذبح الشاة ببراعة ، ويدعوه الناس للصلاة بحرارة ، ويستطيع أن يحلق ويطبخ ويحارب ، وهو بارع فى « علم » الهجاء • وهو مثل سعد لا يؤدى الصلاة أبدا الا عند الضرورة للحفاظ على المظاهر والشكليات • ورغم أنه أقسم أن يموت قبل أن ينسى نذره (وعده) لابنة عمه الا أننى أشك كثيرا أنه لن يكون أفضل مما هو عليه • واذا ما ذكر لفظ النبيذ تجعد جبينه ، وتلمظ بفمه ، وقد عاش فى استانبول بضعة أشهر دون أن يتعلم عشر كلمات من اللغة التركية ، مع أن استانبول مدينة شهيرة بقدرتها على تغيير سلوك من يعيش فيها • وأخيرا فليس فى جيبه أكثر من قرش أو قرشين لأنه بدد المبالغ الكبيرة التى وهبتها له سيدات الطبقة الراقية فى القاهرة واستانبول باعتباره رئيسا للشعائر حول قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) •

أما صالح شكار Shakkar فتراه ممددا على البساط ، يدخن طوال النهار الشليون العجمى (شيشة عجمى) ، وهو من مواليد المدينة (المنورة) من أب تركى وأم عربية • وهو شاب طويل ونحيل وبه هزال ، ربما كان فى السادسة عشرة من عمره لكن أفكاره أفكار رجل فى السادسة والأربعين ، وهو طماع الى أقصى حدود الطمع ، وأنانى ، ولا يعرف الكرم ، ومتكبر كالأتراك ، وجشع نشيط فى جشعه كالعرب • وهو يصلى الفروض والسنة غالبا ، ويلبس لباسا أكثر احتراما من لباس آل السمان (الذين أشرنا لواحد منهم آنفا) ويفضل أسلوب أهل استانبول عند

---

(٢) السخرية واضحة فى التعبير — (المترجم) •

قضاء حاجته (التواليت) وهيئته ، ولونه الأصفر المشرق يجعل الناس يعتبرونه شخصا غير عادى · وقد كانت بيننا صداقة حميمة بدرجة كافية أثناء الطريق عندما اقترض منى مبلغا ضئيلا · لكنه فى المدينة (المنورة) قاطعني بقسوة ، كما يفعل أهل المدن الذين تعارفوا بالصدفة فى حديقة الهيد بارك Hyde Park كما أنه بالطبع حاول ــ عبثا ــ أن يروغ من رد ما عليه من دين · ولديه لون من ألوان الثقافة ، ويبدو أنه درس دراسة نقدية موضوع السخاء · وهو لا يكف عن ترديد مثل هذا القول الجليل : « الكريم حبيب الرحمن ، نعم ، حتى لو كان آثما ، والبخيل عدو الله ! أى نعم ! حتى لو كان قديسا » وقد أخبرنى أيضا أن فرعون ــ رغم أنه كافر قد ذكره الله بالاسم فى القرآن الكريم بسبب كرمه وتحرره بينما نمرود وهو كافر ظالم فان الله سبحانه اكتفى بالاشارة اليه لأنه كان طاغية شديد الطغيان (*) · ولم يكن ثمة حاجة غالبا للقول ان صالح شكار كان ــ كما يقول أهل شرق الهند ــ « ذبابة مصاصة » (١) بكل ما يعنيه هذا القول من معنى · وكان هناك رجلان آخران من أهل المدينة المنورة فى وكالة جرجس ، لكننى أهملت وصفهما ، وقد كانا مفلسين عندما غادرنا السويس · وكان أحدهما هو محمد شقلبها قابلته بعد ذلك فى مكة (المكرمة) وقلما رأيت من هو أكثر أمانة ، وأشد حرارة فى الصداقة ، فعندما ركبنا سفينتنا فى السويس وجدته يلقى بنفسه على صدر حامد ، وراح كلاهما يبكى بمرارة لأنهما سيفترقان ــ حتى ولو كان هذا الفراق لأيام قلائل ·

ولم يضع كل هؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم وقتا فى فتح باب الأسئلة عن الفوائد والقروض · لقد كان درسا فى الميتافيزيقا المشرقية لأرى أحوالهم ، لقد كان أمامهم اثنا عشر يوما وأربعة أيام عليهم أن يواجهوا فيها تكاليف حمل صناديقهم ، والمكوس التى عليهم دفعها فى مراكز الجمارك · وأمعاءهم التى تطلب الامتلاء ــ ومع هذا فاننى أعتقد أنهم جميعا ، لم يكن معهم من النقود السائلة الجاهزة ما يساوى دولارين · مع أن صناديقهم كانت مليئة بكل ما هو ثمين من أسلحة وملابس ، وشيش (جمع شيشة) وأخفاف (جمع خف) وحلوى وغيرها ، لكن شيئا ما لا يدفعهم ــ عدا الموت جوعا ــ لاستهلاك أقل قدر مما يحملون ·

ولأننى توقعت أن يكون فى صحبتهم مزايا لى ، فقد أعرب طلبهم لبعض الكرونات (٣) القليلة أذنا ودودة لكن الولد محمد حصل على ستة دولارات ، أما حامد فحصل على حوالى خمسة جنيهات لأننى كنت أنوى

---

(٣) الكرون Crown : خمسة شلنات ــ (المترجم) ·

(*) غنى عن القول أن هذه خرافات ، وأن كلمة (فرعون) تعنى ملك ــ (المترجم) ·

الاقامة بمنزله فى المدينة المنورة ، وحصل عمر أفندى على ثلاثة دولارات . وحصل سعد العملاق على دولارين — وقد أعطيتهم هذه النقود فى ينبع . أما صالح شكار فقد أعطيته خمسين قرشا ، ولأن القاعدة فى هذه البلاد أن أحدا لا يرد ما اقترضه أو حتى استعاره ، فقد حرصت على الحصول على أكبر قدر من الخدمات من الأول (الولد محمد) وأن أحصل على معطفين ثمينين من الثانى (حامد) وشيشة جميلة من الثالث (عمر أفنـــدى) وسيفا تركيـــا (يطغان) ويسـمونه بـلا bala من الرابع (سعد العملاق) . وشالا من الكشمير غير الأصلى (المحاكى) من الخامس (صالح شكار) · وبعد ذلك جلسـنا واستمرت اتفاقاتنا · لقد كان مفيدا لى أن أعطيهم نقودا مصرية ، وأساومهم على دفعها بعملة الحجاز ، فحققت بذلك ربحا وصل فى بعض الأحيان الى ستة عشر فى المائة · ولم أفعل ذلك بقصد الربح فى المقام الأول ، كما لم أفعله لأتقمص شخصية حاتم (الطائى) وانما فعلته ترقبا ليوم الاقامة فى المدينـة المنورة · فان رفاقى لما تلقوا منى هذه المبالغ البسيطة أصبحوا متعاطفين معى ولهجت ألسنتهم بالثناء على ، وغمرونى بالطلبات وألحوا فى طلب هدايا من الحلوى ، وكأنهم اكتشفوا اننى رجل عظيم يخطر تحت السحاب ، وربما كانت ادعاءاتى بأننى درويش قد مهدت لهم هذا الاكتشاف ، فراحوا يعلنون أننى لابد — بحكم المظروف — أن أكون ضيفهم فى مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) · وفى الأحوال كلها ، فرضوا على مكانة الصدارة ، فكان رأيى هو أول الآراء التى يناقشونها وما كانوا ليقروا مشروعا دون موافقتى ، وباختصار فان عبد الله الدرويش (٤) قد وجد نفسه — فجأة — شخصا مهما · وقد أدت بى هذه المكانة السامية الى عمل أحمق ربمـا كلفنى كثيرا ، اذ أثار الشك الوحيد حولى والذى طالما عبروا عنه أثناء رحلة الصيف · فقد راح أصدقائى ينظرون الى ثيابى ويتفحصون صندوق الدواء الخاص بى بتركيز ، وانتقدوا مسدساتى ، وسخروا من ساعتى ذات الغطاء النحاسى (٥) ، وتذكروا أنهم رأوا بوصلة فى استانبول ، لذا فقد تخيلت أنهم لا يعرفون الا قليلا عن السدسية (٦) · وكان هذا خطأ منى فالولد محمد قد علم بعد ذلك بخبر ساعتى ، فانتظر حتى خرجت من

---

(٤) يقصد نفسه — (المترجم) ·

(٥) المقصود السدسية التى سنورد عنها بعض الملاحظات فى حاشية تالية — (المترجم)·

(٦) السدسية أو ذات السدس أو الكوكبة الجنوبية هى آلة بصرية ذات مقيـاس مدرج على شكل قوس دائرية · طوله اسدس محيط الدائرة ، وتستعمل السدسية لقياس الأبعاد · انظر معجم المصطلحات العلمين الذى الحقه يوسف خياط بطبعته للسـان العرب — مادة سدسية · وعن صورة السدسية انظر معجم المصطلحات العلمية والفنيـة عداد احمد الخطيب ، وعن الفرق بين السدسية وغيرها من الأجهزة اللازمة للرحـالة نظر رحلة بلى للرياض · ترجمة د· عبد الرحمن الشيخ ود· عويضة الجهنى — (المترجم) ·

الغرفة ليعلن أن الحاج المرتقب (٧) كان أحد الكفرة فى الهند ، وجلس القنصل (٨) لمناقشة هذا الأمر · ولحسن حظى أن عمر أفندى كان قد طالع خطابا كنت قد كتبته للحاج والى هذا الصباح كما أننى كنت قد أجبت عمر افندى فى أوقات مختلفة عن أسئلة معينة تدور حول التوحيد ، فوجد من واجبه بحكم وضعه أن يعلن أن ما ذكره محمد غير معقول · أما الشيخ حامد الذى كان يترقب أن يستضيفنى ويكون دليلى ومدينا لى عموما ، وربما كان قليل الاهتمام بالماضى بأمور العقيدة ـ فقد أقسم أن نور الاسلام يشع من محياى · ومن ثم فان الولد محمد كان عالة فقيرا ، وكان بومة ، وتعرض للمقاطعة ، وبدا غريبا وهابيا (المقصود غير سليم العقيدة) لطعنه فى عقيدة أخ فى الدين ، وانتهى المشهد بادانة عامة للشاب المتوقد ذهنه فقد قالوا له جميعا انه لا يستحى ، ولابد أن « يخاف الله » ، وكنت معجبا بالتعبيرات البادية على وجوه أصدقائى عندما رأوا السدسية ، فقررت متحسرا أن أتركها ، وبعدها ظللت مواظبا على أداء الصلوات الخمس قرابة أسبوع ·

واتفقنا جميعا ألا نضيع ساعة واحدة وأن نعمل على تأمين أماكن لنا على ظهر بعض السفن المتجهة الى ينبع ، ولما سمع أصدقائى أن جواز سفرى كهندى بريطانى قد لا يحظى بالمقبول نصحونى جادين أن أوقعه من مدير السويس (المحافظ) بلا تأخير ، وحذرونى من أننى اذا أظهرت التذكرة التركية التى حصلت عليها فى القاهرة من القلعة ، فان السلطات ستجبرنى على انتظار القافلة ، وأفقد بالتالى مرافقتهم وصداقتهم · فالحجاج الذين يصلون للاسكندرية يقسمون الى ثلاث مجموعات ، مجموعة تتخذ طريق السويس ، والأخرى طريق القصير ، والثالثة طريق الحج البرى حول خليج العقبة ، وبعد أن يكون هذا التقسيم لا تعير الحكومة الا أذنا صماء لمزاعم الأفراد وطلباتهم ، فلدى بك السويس أوامر بتعطيل الحجاج بقدر ما يستطيع حتى نهاية الموسم مما يجعلهم يهرعون سالكين ذلك الطريق مخافة أن يفوتهم الوصول لمكة المكرمة فى الوقت المناسب · وذلك لأن معظم المسئولين المصريين الكبار يمتلكون قوارب تبحر فى نهر النيل محملة بالحجاج وتعود محملة بالقمح ، لذا فمن الطبيعى أن تبذل الحكومة قصارى جهدها لفرض التأخير والقلق على الغرباء الذين يسلكون هذا الطريق (البرى) ولأن أولئك الذين

---

(٧) المقصود بيرتون نفسه ـ (المترجم) ·

(٨) تعبير ساخر ، والمقصود الولد محمد ـ (المترجم) ·

يسلكون الطريق البرى لابد أن ينفقوا أموالهم داخل الحدود المصرية ــ على الأقل لمدة خمسة عشر يوما ، أكثر من أولئك الذين سيركبون السفن من السويس مباشرة ، فان البك يسهل أمور حجاج البر ، ويضع العقبات أمام الذين سيستقلون سفنا من السويس • ولما علمت بهذه الحقائق عرفت أن المشاكل باتت وشيكة • فكانت الخطوة الأولى أن أخذ جـواز سفـر الشيخ نور النظامى وجوازى غير النظامى الى البــك لتوقيعــه ، فقلب الأوراق كما لو كان لا يستطيع قراءتها وأحالها لكاتبه دلالة فقدان الأمل • ولما رأى الكاتب أن الوثيقة غير نظامية سألنى لم لم أحصل على التأشيرة (الفيزا) فى القاهرة ، فأجبت أن ضغط الظروف هو الذى منعنى وأن البك (فى القاهرة) لم يكن لديه ما يمنع من منحى التأشيرة (الفيزا) ولما حاولت اقناعه ، زادت غطرسته ، فخشيت أنه ربما كان من الضرورى أن أسافر عن طريق القصير ، والوقت لا يكفى لذلك الا بشق الأنفس ، أو أن أستقل جملا بنفسى الى ميناء الطور وأنتظر هناك حتى تلوح فرصة وجود موضع لى فى بعض السفن نصف المحملة ــ وهذا بطبيعة الحال يتوقف على الظروف • وكان أملى الأخير فى السويس هو الحصول على مساعدة السيد وست Mr. West مساعد القنصل البريطانى وقتها ، وأصــبح قنصلا بعد ذلك • وعلى هذا فقد أخذت معى الولد محمد واخترته لتحقيق هدف خاص ، واستأذنت زملائى فى اتخاذ الخطوة التالية ذلك أننى لفقت حكاية خرافية عن تبرعى للأمة البريطانية عندما كنت فى أفغانســتان • واتخذنا طريقنا للقنصلية • وكان أوغسطس برنال Augustus Bernal وهــو شخص غير حكيم ، قد نبه نائب القنصل الى توقع مقابلتى له • فاكتشف نائب القنصل تنكرى رغم رطانتى (تعمدى ألا أنطق الانجليزية بشكل سليم) ، وقرر أن يراعى الرسميات شيئا ما ، ولم يكن هناك أفضل

من الاجراء الذى اتخذه ، فقد وجه كاتبه أن يتصل بمستخدم البك فاذا ما اعترض على توقيع تذكرة الاسكندرية ، فان نائب القنصل يمكنه على مسئوليته الخاصة أن يقدم لى جواز سفر جديدا ــ باعتبارى أحد الرعايا البريطانيين ــ به تأشيرة للسفر من السويس الى شبه الجزيرة العربية • وفى اليوم التالى رجعت لى الوثيقة معتمدة • وسرنى هــذا التعهد الذى تعهده السيد وست على نفسه وأثناء رحلاتى ، كنت غالبا ألقى منه رعاية حارة واهتماما ودودا • وبينما كانت مشاكل جواز السفر فى طريقهـا للزوال ، كان بقية جماعتنا مشغولين بأمور السفر وتحويلات النقــود • وتتطلب الاجراءات الخاصة فى ميناء السويس بضع كلمات شارحة •
« فمنذ خمس وثلاثين سنة (حوالى سنة ١٨١٨) اقتراح أصحاب السفن على الحكومة القائمة وقتئذ ــ رغبة منهم فى تحميل سفنهم بحمولات كبيرة ــ وضع فرضة Fardah أو نظام (للدور) ، وكان من المفروض أن

الباشا سيرفض اعتماد هذا الاجراء ، لأن هدفه كما هو معروف أن يحتفظ بكل الاحتكارات فى يديه · لكن حدث فى تلك الأيام أن كل أفراد حاشيته كانوا يمتلكون سفنا فى السويس ، فقد كان ابراهيم باشا بمفرده يمتلك اربع سفن أو خمسا · لذا فقد كان أفراد الحاشية يتوقعون أن يشاركوا التجار فى الأرباح ، وهذا يعوضهم عن نقص رسوم الميناء · ومنذ ذلك الوقت فصاعدا سجلت كل السفن فى الميناء وصدرت الأوامر أن تبحر على التعاقب (بالدور) in rotation وقد ربح من هذا التنظيم صاحب السفينة فقد أعطاه فى المقابل احتكارا مؤقتا ، بالاضافة لكثرة الطلب ، وأتاح له فرصة التحميل الثقيل لدرجة أن أبسط اهتزاز غير محسوب يعرض السفينة للغرق مما يكلف شركات التأمين مبالغ طائلة · وفى المقابل فان العامة كانوا هم الخاسرين دائما من نظام (الفرضة) وقد لا توافق بعض النقابات على مثل هذا الاجراء فى مكان آخر ، ولكن أهل السويس من المسلمين والنصارى على سواء مرتبطون معـا برباط المودة والمحبة من خلال نظام (الفرضة) هذا · ان هذا النظام قد أضر بالتاجر الذى يتاجر مع أماكن مختلفة ، كما أضر بتاجر البحر الأحمر ، ليس فقط بسبب الارتفاع الدائم لتكاليف الشحن وانما أيضا لأن هذا النظام يسبب فى بعض فترات العام ركودا فى المبيعات وفى تصدير البضائع لسوق جدة الكبير · وفى هذه الأيام (نوفمبر ١٨٥٣) فان السفينة التى جاء دورها (التى عليها الدور) قد تكون سفينة ضخمة وقد يكون هناك نقص فى البضائع المصدرة للحجاز ، ومن الطبيعى أن ينتظر مالكها أى فترة مهما طالت حتى يتم تحميلها تحميلا كاملا ، ونتج عن هذا أنه لم تبحر سفينة حاملة بضائع من ميناء السويس طوال الاثنين والسبعين يوما الماضية · فالذين اشتروا بضائع لتصريفها فى سوق جدة بدين يستحق بعد ثلاثة أشهر عليهم أن يواجهوا قبولهم لبضائع لازالت مخزونة فى الميناء المصرى · هذا التناقض الغريب لمبدأ حرية التجارة دليل آخر على أن حماية مكاسب جانب واحد (الجانب المحمى) فقط ، تلحق الضرر بمصالح الجانب الآخر (الجمهور) وبالاضافة لملاحظات السيد ليفـك Levick هذه ، أضيف فقط أن الحكم يدعم نظـام (الفرضـة) بكل طاقة المستفيدين (المحميين) · وقد كان خطاب من السيد (حصل الآن على لقب سير) جون دراموند هاى Hay كافيا لدفع بك السويس على اختراق نظام الفرضة لصالح أمـراء معينين من مراكش · ولم تستطع توصيات لورد سـتاتفورد دى ردكليف de Redcliffe · ولا تمنيات السيد وست الطيبة أن تمكننى من ركوب سفينة فى غير دورها · فكنا مضطرين للتعويل على جهدنا الشخصى ونشاط سعد العملاق وبراعته

فهو جدير بالثناء فبعد تعويقات ومشاكل مختلفة ـ نتجت غالبا عن اصراره على أن يسافر مجانا ، وأن ندفع نحن أجرة كبيرة ـ عقد اتفاقا مع مع مالك السنبوك (السلك الذهبى) ٠ لقد حجز لنا أماكن فى مؤخرة السفينة ، وهو اكثر الأماكن ملاءمة لنا فى هذا الفصل من العام ، وقد افترض أننا لن نكون مرتاحين تماما لأن الحجاج المغاربة سيزاحموننا ، لكن « ربنا يسهل الأمور » ٠ وقد دفعت لحجز مكانين لى ثمانيه عشر ريالا ، ولمرافقى سبعة ريالات لكل واحد ، بينما استطاع سعد العملاق ـ بشكل سرى ـ أن يدرج نفسه فى قائمة التجار المقتدرين ٠ وكنا مضطرين لترك محمد شقلبها لانه لم يكن يستطيع ـ أو يريد ـ دفع الأجرة ، ولم يكن احد منا على استعداد لدفعها له ٠ ولم اضن عليه بمبلغ بسيط على سبيل الاحسان ، لأننى أعلم أنه الأكثر أمانة واخلاصا (لقد أسرتنى رقته فى مكة المكرمة) ٠

لم يكن هناك ما هو أكثر ازعاجا من أيامنا ولياليـنا فى خان جرجس ٠ فجدران غرفنا المشققة كانت رطبة وقذرة ، وعوارض السقف الخشبية لوثها الدخان وعشش فيها العنكبوت ، وتناثرت على الأرضية الدلاء (جمع دلو) وأشياء أخرى فى فوضى مزعجة ، وكانت الجدران سوداء عامرة بالصراصير والنمل والذباب ٠ وعشش الحمام على النتوءات الحجرية للنوافذ ، وراح يعزف ألحان الغرام الحزينة طوال اليوم ، أما القطط فكانت كالنمور ، وكانت تزحف للغرفة من خلال ثقب فى الباب ، وجعل مواؤها الليل بشعا ٠ وجاء دور العنزة المزعجة ، والحمار الفضولى ليتسللا للغرفة فلاحظا انها مستأجرة ، فرجعا بوقار ، ويغنى البعوض أغنيات النصر فوق مضاجعنا طول أربع وعشرين ساعة ٠ وأعفى القارىء من تعداد البلاوى المصرية الأخرى التى ابتلى بها المكان ٠ وبعد أن خضنا تجربة اليوم الأول قررنا أن نقضى ساعات النهار فى الممرات متمددين فوق صناديقنا أو فوق الأبسطة ندخن ونتشاحن ويفتش كل واحد منا فى مقتنيات الآخر ، وكان هذا التصرف الأخير مادة خصبة للنزاع ، فليس هناك ما هو أكثر انتشارا من أن يستولى الصديق على شىء يخص الآخر ثم يقسم بلحية النبى أن هذا الشىء قد أعجبه ، ومن ثم يستولى عليه ولا يعيده ٠ وكان الولد محمد والشيخ نور قد ابتليا (عانيا من الاقامة سى الغرفة) فى اليوم الأول ، واختلفا فى الرأى فى اليوم الثانى وفى اليوم الثالث اتيا ليدفع كل منهما الآخر صوب الحائط ٠ وفى بعض الأحيان كنا نذهب للسوق ، وهو عبارة عن شارع ظليل تحف به دكاكين صغيرة متواضعة ، او نجلس فى المقهى نشرب ماء جار اعترته ملوحة له لون الفول المحروق ، أو أن نصلى فى واحد من المساجد الثلاثة الآيلة للسقوط ، أو أن نجلس على رصيف خليج السويس نتفجع لحاجتنا

الي الاستحمام ، فنستحم فى ماء البحر الفاتر · وانتهيت الى نتيجة مؤداها أن السويس كمنتجع أو مصح مائى Watering place ، أسوأ حتي من دوفر Dover · والجماعة الوحيدة التى وجدناها ــ غير الزائرين الموسميين ــ كانت جماعة من النسوة المصريات يشغلن مع أزواجهن وأولادهن بعض الغرف المجاورة لغرفتنا · وفى بداية الأمر كن شرسات يستخدمن لغة فظة ، وغامرت أنا والولد محمد ــ منتهزين فرصة انشغال عمر أفندى بالصلاة ، وانشغال الآخرين بالتجول فى السويس ــ بالمشى ببطء فى الممر البارد حيث كن مجتمعات أو لتوجيه العبارات الطريفة لهن . لكنهن لما سمعن اننى حكيم باشى Hakim-bashi رقيت بسبب شهرتى الى رتبة طبيب عام ــ اكتشفن جميعا أنهن مصابات ببعض العلل ، فبدأن يطلبن منى بحذر أن أظهر لهن تأثيرات دوائى بأن أتناوله شخصيا ، ولكنهن فى خاتمة المطاف ابتلعن ــ مذعنات ــ مركبات طبية ضد الغثيان ودوار البحر ، وأعقب ذلك نوع من الغنج البدائى المكشوف وكانت أكثرهن جاذبية هى فطومة وهى سيدة سمينة تقارب الثلاثين ، شغوفة بالغزل الخفيف ، ولها لسان ذرب مهزار كأشد ما تكون الذرابة والهزر كسائر المصريين · وكانت اللازمة التى تلازم حوارى معها هى « تزوجينى يا فطومة ·· يا بنت يا فطومة ·· يا حاجة » وعبثا حاولت فانها بحركة دلال من وسطها ، حركت رأسها للوراء بحركة مفاجئة فتحرك غطاء رأسها بدلال متقن وقالب : « أنا متزوجة يا شاب ! » ــ انه من المتفق عليه أنها ــ باعتبارها امرأة ذات نزعات طبيعية لتعدد الأزواج ــ يمكنها أن تدعم وزن ثلاثة ارتباطات زوجية ــ على الأقل · وفى بعض الأحيان يقطع دخول الفلاحين هذه المناقشات البسيطة ، لكن الناس (الشعوب) من الفئات المحترمة ، وأمتنا ، لا يجب أن ينخدعوا بمثل هؤلاء الأزواج · ففى حضورهم غيرنا ــ فقط ــ أسلوب الحديث ــ فسألنا عن المهر أو العفش (الأثاث) (عش الزوجية) ساخرين من رخص سعر المرأة فى مصر وطالبين أن نؤسس مستعمرة للعرائس بعشرة شلنات للرأس (للواحدة) ، وفى الغالب الأعم فان فطومة ــ رغم سهولة انقيادها واعتدال مزاجها ــ ستضحك لوقاحتنا ، وتدخلنا فيما لا يعنينا · وفى بعض الأحيان كنا نستثير فطومة بتقليدنا لهجتها المصرية ومحاكاة ايماءاتها ، ونقلل من قيمة المصريات ، فيتعاظم غضبها وتأمرنا بالذهاب بعيدا وترفع اصبعها السبابة دلالة على أنها تريد (تخزيق) عيوننا ، او أن تدعو الله أن يقطع قلوبنا خارج صدورنا ، فأقول لها : « تزوجينى يا فطومة ·· يا بنت يا فطومة ·· يا حاجة ! » وقد يؤدى هذا الى أن أقول لها : (يا العجووز ، « يا كركوبة يا بنت ستين أب ، أنت

لا تصلحين الا لحمل الحطب الى السوق) فتنفجر غضبا تصبه علينا ، فنشب على أقدامنا كالأطفال مبتعدين وقد اتخذ كل منا طريق الآخر . ولكن عندما نتقابل مرة ثانية يكون كل ما فعلناه سابقا قد دخل حيز النسيان ، فنعود ونكرر الحكاية القديمة . وكانت هذه هى تسلية النهار ، وفى الليل نجلس نحن الرجال متجمعين فى الشرفة الصغيرة نشرب الشاى ، ونحكى الحكايات ونقرأ الكتب ونتحدث عن أسفارنا ، ونخوض فى أمور مختلفة تبعث على السرور . وكانت الفكاهة الكبيرة أن الولد محمد قد سب كل رفاقه فى مواجهتهم باللغة الهندوستانية التى لم يكن أحد يقدر على فهمها الا الشيخ نور وأنا ، الا أن الآخرين – على أية حال – كانوا يخمنون المعنى الذى يقصده ، وثأروا لأنفسهم بردود سريعة فظة مفحمة بأسلوب حجازى خالص .

وأود أن أقدم مزيدا من المستخلصات القليلة عن السويس وأهل السويس من خطاب السيد ليفيك Levick : « يظهر أن عدد الحجاج الذين يمرون بالسويس فى طريقهم الى مكة المكرمة راح يتناقص باضطراد مؤخرا . فلما أتيت الى السويس للمرة الأولى (١٨٣٨) كان عدد الحجاج الذين يركبون السفن من السويس يتراوح بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ وكانت السفن أكثر عددا ، وكان التجار أكثر عددا وأغنى . وقد تأكد لى من خلال سجلات خاصة محفوظة فى الأرشيفات الحكومية أنه فى العام الهجرى ١٢٧٩ (الموافق ١٨٥١/١٨٥٢ للميلاد) كان عدد الحجاج الذين مروا بالسويس هو ٤٨٩٣ بالضبط » .

« وفى سنة ١٢٦٩ للهجرة (١٨٥٢/١٨٥٣ للميلاد) تناقص العدد الى ٣١٣٦ ، ويرجع أهل البلاد هذا التناقص لأسباب مختلفة ، وان كنت أعزو هذا للتأثير غير المباشر للحضارة الغربية على القوى الاسلامية المتصلة بها .

ان جحافل الحجاز غير المتجانسة تتكون من أناس من كل الطبقات ، وكل الألوان ، يرتدون كل الأزياء . فالمرء لا يرى من بينهم أهل البلاد المجاورة لمصر فحسب ، وانما يرى أيضا نسبة كبيرة من أهل وسط آسيا ؟ من بخارا وفارس وبلاد الجراكسة وتركيا والقرم ، وهم يفضلون هذا الطريق (طريق السويس) عن طريق استانبول ، نظرا للصعاب والأخطار التى تعترض قوافل الحج البرية من دمشق وبغداد ، وارتفاع تكاليفها . ويأتينا (أى الى السويس) من الغرب الحجاج المراكشيون والجزائريون والتونسيون ، وحجاج أعماق أفريقيا من التكارته

(التكروريين) السود ، وآخــرون من بورنو والســودان وغــدامس Ghadamah بالقرب من النيجر ، والجبرت من الحبشة » .

« وبناة السفن فى السويس جماعة ذات نفوذ وتأثير ، وهم فى الأصل كانديون Candiots وسكندريون . وعندما جهز محمد على أسطوله لخوض حرب الحجاز نقل عددا من اليونانيين الى الســويس . ويمارس الأبناء الآن حرفة آبائهم (بناء السفن) ويوجد الآن فى السويس ثلاثة كبار من بناة السفن . والصعوبة الرئيسية التى يواجهونها هى نقص المواد اللازمة لصناعتهم . فخشب الساج يرد من الهند عن طريق جدة ، والألواح الخشبية البندقية أغلى هنا بنســبة ١٠٠٪ عنهــا فى الاسكندرية بسبب ارتفاع نقلها على الجمال . وتمد تريست Trieste وتركيا ، السويس بالصوارى القائمة (الساريات) ، وتمــدها جــدة بأقمشة الأشرعة ، وصناع السفن رجال من السويس ، أما أطقم البحارة فخليط من العرب والمصريين ، والريس (أو القبطان) فمن ينبع ان كانت السفينة كبيرة ، أما ان كانت عادية فقد يكون عربيا أو مصريا . ويوجد نوعان من السفن يتم التمييز بينهما وفقا للحمولة لا طريقة البنــاء . النوع الأول يسمى (البغلة) وتحمل أكثر من خمسين طنا ، والنوع الثانى (السنبوك) وحمولته من خمسة عشر طنا الى خمســين طنا . ويرشو مالك السفينة أمير البحر ، وناظر السفاين ليحمل سفينته أكبر حمولة ممكنة ، فاذا ما دفع الثمن (الرشوة) سمح له بالتحميل باعتبار الطن يساوى تسعة أرادب – ويصل عدد السفن التابعة لميناء السويس ٩٢ سفينة ، وتتراوح حمولتها بين ٢٥ و ٢٥٠ طنا وكان عــدد الســفن المغادرة فى العام الهجرى ١٢٦٩ (١٨٥٢/١٨٥٣ للميلاد) ٣٨ لأن كل سفينة تعود من رحلتها تخرج من الخدمة الفعلية لمدة تبلغ حوالى عامين ، وفى الفترة التى يمر خلالها الحجيج بالسويس – يقال ان هذه الفترة تستمر أربعة أشهر – يبلغ عدد السفن المغــادرة سفينتين فى الأسبوع ، وفى الشهور الباقية من العام يتراوح عدد السفن المغادرة فى الفترة كلها ما بين ست سفن وعشر سفن . والتجارة فى رحلة العودة للوطن تشحن – بشكل رئيسى – فى سفن جدة ، اذ يسمح لهذه السفن بحمل بضائع للسويس ، ولكن لا يشحنون شــحنات من السويس فى المقابل ، اذ يجب ألا يتدخلوا فى نظام الدور (نظام التناوب أو الفرضة المشار اليه آنفا) ولا أن يحققوا أرباحا من خلاله » .

« وخلال العام الحالى كانت الواردات تشتمل على ٤١٫٣٩٥ طردا ، بينما بلغت الصادرات ١٥٫٩٨٨ . ويزداد الدخل الى حــد ما نتيجــة

رجحان كفة الواردات · ففى كل عام يخرج من مصر مبلغ يتراوح بين ٣٠٫٠٠٠ و ٤٠٫٠٠٠ من الكرونات أو دولارات ماريا تريزا الى شبه الجزيرة العربية والحبشة وأنحاء أفريقية أخرى · وأنا أقدر قيمة الواردات بحوالى ٣٥٠ ٠٠٠ جنيه استرلينى ، وتجارة الصادرات الى جدة بحوالى ٣٠٠ ٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا · وتتكون الواردات بشكل اساسى من البن والصمغ العربى ، ١٧٤٦٠ بالة (جوال) بن و ١٥٫١٣٢ بالة (جوال) صمغ عربى ، والقيمة الاجمالية لكل سلعة تتراوح بين ٧٥٫٠٠٠ و ٨٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى ، واجمالى سعر السلعتين هو ١٦٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى · وفى العام الماضى كانت الواردات تشتمل على ٢٦٫٨٤٥ طردا والصادرات ١٣٫٤٩٨ طردا ، من بين البضائع الرئيسية فيها البن والصمغ العربى : ١٥٤٩٩ بالة بن و ١٤١٢٩ بالة صمغ عربى ، وكان سعر البالة الواحدة حوالى خمسة جنيهات استرلينية · ويأتى فى المقام الثانى من حيث الأهمية الشمع الوارد من اليمن والحجاز ، وعرق اللؤلؤ من البحر الأحمر ويتم ارساله لانجلترا خاما كما هو ، والفلفل من الملابار ، والقرنفل الذى يجلبه الحجاج المسلمون من جاوة وبورنيو وسنغافورة ، وأنابيب الشيش (جمع شيشة) العجمية من خشب الكرز من بلاد فارس و Bussora والتمباك العجمى أو المجلوب من سورات Surat وأقدر قيمة هذه البضائع بمبلغ ٢٠٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا · وكان هناك أيضا (سنة ١٨٥٣) ٧٠٨ بالات قرنفل و ٩٤٨ بالة فلفل مالاباري قد يبلغ ثمنها (القرنفل والفلفل) حوالى ٧٠٠٠ جنيه استرلينى · ومواد التصدير ذات القيمة المحدودة هى — وهى فى معظمها بهارات (زنجبيل ، وحب الهيل ··· الخ) ، وعطور شرقية كخشب الصبر ، وعطر الورد ، وعطر القرنفل وغيرها ، والتمر هندى من الهند واليمن ، وقصدير البنكا Bancatin والجلود المدبوغة التى يعدها البدو ، وأوراق السنا من اليمن والحجاز ، و (الملايات اللف) الخاصة بالنساء من قطن عليه مربعات زرقاء ، مصنوعة فى جنوب شبه الجزيرة العربية · واجمالى هذه الواردات المتنافرة قد يصل الى ٢٠ ٠٠٠ جنيه استرلينى سنويا » ·

أما الصادرات فتتكون بشكل أساسى من الأدوات المنزلية والشيلان الكشميرية (*) ، وأغطية الرأس ، والموسلين (القماش الموصلى منسوب تاريخيا للموصل بالعراق ، ولا علاقة له بالعراق

(*) ذكر الكاتب من بين الصادرات هنا bleached Madipilams ولم نعرف المقصود منها — (المترجم) ·

الآن) الذى يستخدم فى لف العمائم ، والباقى : دهانات منشستر والكحل والصابون الشامى وحلقات الحديد ، والأدوات المعدنية والخرز البندقى أو التريستى (من تريست) ويستخدم فى الزينة فى شبه الجزيرة العربية والحبشة وأوراق الكتابة ، والطرابيش والصنادل والأخفاف (جمع خف) وغيرها من أنواع الثياب وأدوات الزينة » ٠

ومتوسط درجة الحرارة السنوى فى السويس حوالى ٦٧° فهرنهيت ٠ ويمثل شهرا يناير وأغسطس طرفى النقيض من حيث الحرارة والبرودة ، فخلال شهر يناير تتراوح درجة الحرارة بين ٣٨° كحد أدنى و ٦٨° كحد أقصى ، وخلال شهر أغسطس تتراوح درجة الحرارة بين ٦٨° و ١٠٢° بل وتصل الى ١٠٤° فيكون الحر ظالما لا يطاق ٠ ونادرا ما يكون هناك مغادرون خلال هذين الشهرين ولا أذكر أننى رأيت الترمومتر يرتفع فوق درجة ١٠٨ فهرنهيت خلال فترة رياح الخماسين القاسية ، كما لا أذكر أنه هبط عن ٣٤° حتى عند هبوب أشد الرياح برودة ٠ وتهب العواصف الهوجاء من الجنوب فى شهر مارس ٠ أما المطر فمتغير تغيرا شديدا ، ففى بعض الأحيان تمر ثلاث سنوات دون نزول وابل من المطر ، بينما فى سنة ١٨٤١ استمرت السيول لتسعة أيام متتالية وأغرقت المدينة (السويس) وهدمت منازل كثيرة » ٠

« وسكان السويس يبلغ عددهم الآن حوالى ٤٨٠٠ وليس هناك احصاء رسمى كما هو معتاد فى بلاد العالم الاسلامى ٠ ومن هنا ، فان البعض يقدر عددهم بحوالى ٦٫٠٠٠ ٠ ومنذ ستين عاما كان من المفترض أنهم أقل من ٣٠٠٠ ، الا أنهم ازدادوا بعد ذلك بسرعة حتى سنة ١٨٥٠ عندما اجتاحهم وباء الكوليرا فأنقصهم الى حوالى نصف عددهم الآنف ذكره ٠ وتبلغ نسبة الوفيات حوالى اثنى عشر شهريا ٠ والأمراض المتوطنة هى حمى التيفود وأنواع من الحمى المتقطعة (الراجعة) فى الربيع ، وعندما تهب الرياح الشمالية القوية التى تتسبب فى انحسار مياه الخليج تتخلف مستنقعات تتصاعد منها الروائح النتنة ٠ وفى شهرى أكتوبر ونوفمبر تهاجم الحمى السكان مهاجمة عنيفة ، وكذلك الرمد ، وان كانت أمراض العيون أقل شيوعا هنا منها فى القاهرة ، وان كانت أعراضها هنا أكثر حدة ٠ وفى بعض الأحيان كانت أمراض العيون من الأمراض المتوطنة بضراوة بحيث كانت تنتهى اما بالعمى الكامل أو الاعتام الجزئى للقرنية مما يؤدى الى ضعف دائم فى العينين ٠ ففى شهر واحد فقد ثلاثة من معارفى ابصارهم ٠ ومرض الدوسنتاريا أيضا من الأمراض المنتشرة ، وكذلك الدمامل البشعة ، والقرحة ٠ وفصل الشتاء

فصل طيب ففيه يقوم هواء الصحراء النقى بدور المنعش ، ويجلب معه الدفء » ٠

«وأسوار السويس وبواباتها ودفاعاتها فى حالة يرثى لها فلم تعد تصلح حتى لمنع بدو سيناء من الدخول اليها ٠ ويبلغ عدد منازلها حوالى ٥٠٠ ، وان كان سكان كثيرون من اهلها يفضلون شغل الطوابق العليا فى الوكالات ، وغرف الطوابق الأرضية تستخدم كمخازن لبضائع معينة كالأخشاب والتمور والقطن وما الى ذلك ٠ ويعيش أهل السويس معيشة رغدة فأسواقهم عامرة باللحوم والزبد المجلوب من سيناء والطيور والذرة والخضروات الآتية من مديرية الشرقية ، والفاكهة الآتية من القاهرة والشرقية ، والقمح الذى يأتى الى القاهرة عن طريق النيل يحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء الى السويس ٠ واذا ما أشرقت الشمس تناول أهل السويس افطارهم الذى يتكون فى فصل الصيف من فطيرة ، أما فى الشتاء فوجبة الافطار أكثر أهمية وهى طبق من الكشرى (عدس وأرز وسمن وبصل مقطع مسوى على نار هادئة أو ليمون مخلل) ٠ وفى هذا الفصل يسعدهم كثيرا تناول الفول المدمس ويضعون عليه كثيرا من الزيت الحار (زيت بذرة الكتان) ويغمسون لقم الخبز فيه ٠ والفول يعتبر ــ بما يولده من كربون ــ وجبة غذائية عالية القيمة واذا استطاعت المعدة هضمه ــ فهم يدمسونه بقشره ولا ينزعون القشر أبدا ــ فانه يعطى آكله قوة عظيمة ٠ وحوالى منتصف النهار يأتى ميعاد الغداء ، وهو وجبة خفيفة من خبز القمح مع التمور والبصل أو الجبن ، وفى موسم الصيف يفضلون على الغداء بطيخا وفاكهة مبردة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يتعرضون للشمس ٠ أما وجبة العشاء فبعد غروب الشمس بحوالى نصف ساعة ، ويتناول الجميع ــ خلا أشد الناس فقرا ــ فى هذه الوجبة اللحوم ، وأفضل أنواع اللحوم عندهم ــ كما هو الحال فى هذا الجزء من العالم ــ هو الضأن (لحوم الخراف) ولا يفضلون كثيرا لحوم الأبقار والماعز ٠ وأهل السويس أكثر رقة وتحررا من القاهريين فأهل السويس لهم مظهر يجعلهم أقرب للعرب ، فملابسهم أكثر جمالا وتميزا وعيونهم مكحلة بعناية ، ويلبسون فى أقدامهم الصنادل والأخفاف (جمع خف) ٠ وهم بكل المقاييس مشاغبون متمردون ومتعصبون شيئا ما ، شغوفون بالعراك ومدمنون للمباهاة واصدار التصريحات الى حد ما ٠ (يقصد الهتافات) فالبرنامج العام للواحد من هذه الفئة الأخيرة (مدمنة الهتافات) يختلف من شخص لآخر كالتالى : يرسل الآباء أولادهم أولا ، فيتجمهرون بغير نظام ، ويأمرونهم بالهتاف « طال عمر السلطان » أو « عاش السلطان» ويعقبون هذا بهتاف آخر هو « الموت للكفرة » وقد يثير هذا القول

« الــكفرة » فيضطر مدير السويس للأمر بسجن صــبى أو صــبيين من الهاتفين ، أو يأمر الشرطة بضربهم بالخيزرانة · لذلك فان بعض الأثرياء او علماء الدين ذوى الشهرة يشــكون علنا من أن الدول الأوربية أصبحت الآن هى « الــكل فى الــكل all in all » وأن الاسلام يبدو واهنا ضعيفا فى هذه الأيام السود · وفى هذه المناسبة فان المتحدث قد يضع نفسه موضع المفسر كأن يقول ان المدير مضطر لحبسه (أو حجزه) مما يزيد من سخط العامة · وتعقد اجتماعات سرية من المفترض أن لزعماء الطوائف والجماعات ، دورا بارزا فيها · فاذا ما تم اخماد الاضطرابات بهدوء عن طريق مثيريها ، تم الافراج عن المتآمرين · انهم سيشربون كثيرا ليصبحوا أسودا بالليل ، أرانب قبل ظهر اليوم التالى · لكن اذا كان المقصود الحاق الضرر والأذى ، سادت حالة تراق فيها الدماء وعندئذ لا شىء يمكن أن يوقف الاضطرابات العامة ، فالمصرى رغم نكاته وروحه المرحة ولامبالاته ، مشهور بالعناد عند استثارته أو على حــد التعبير المصرى الشعبى « اذا فار دمه أو اذا فور أحد دمه » (٩) · والحقيقة أن هــذه هى الميزة الرئيســية فى المصرى كجنــدى · ولــدى المصرى وابلا من الرصاص ، صائبــا ، كمــا لو كان فوجــا فى شوبام المصرى وابلا من الرصاص ، صائبا ، كمــا لو كان فوجــا فى شــبام Chobham لكن المصرى يفشل فشلا ذريعا اذا تطلب الأمر استخدام رأسه لا يديه · فسبب تفوقه فى الميدان ، هو عناده الذى يتميز به ، بالاضافة الى قدرته على الاستيعاب ، وقدرته على العطاء وتحمل مشاق السير فى طوابير ، وهى صــفات تجعــله مرهوبــا من الأتراك غزاته الأقدمين (١٠) ·

---

(٩) اتخذت الحكومة اجراءات لمنع سفك الدماء فى المدن بنزع سلاح أهل البلاد · (موجز تعليق بيرتون) ·

(١٠) موجز تعليق الطبعة الثالثة (١٨٧٣) لقد زرت السويس مرة أخرى فى سبتمبر ١٨٦٩ ووجدتها تغيرت لما هو أفضل ، وزاد عدد سكانها من ٦٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ · وقد أعطتنى محطة السكك الحديدية والمستشفى البريطانى الجــديد والكازينو اليونانى الصاخب والمحلات الأوربية والبواخر ـ أعطتنى روحا روائية » ·

موجز تعليق الطبعة الرابعة (١٨٧٩) : « لقد زرت السويس مرة أخرى ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ووجدت السويس القديمة قد انتهت بعد حفر القناة ، والحق أن هناك (سويس) جديدة » · انظر ·

The Gold Mines of Midian by R. Burton.

الفصل العاشر

سفينة الحج

الوداع والفوضى ـ البك يفحص جوازات السفر ـ الحجاج المغاربة ـ البقشيش ـ النظرة للحجاج الفرس ـ معركة على السفينة ـ عيون موسى ـ حمامات فرعون ـ اذان الشيعة ـ التوسل بالأولياء ـ ابو زليمة الولى حامى البحار ـ سكان الطور ٠

مرسى السفن الكبيرة ، يبعد ثلاثة أميال أو أربعة عن رصيف السويس الممتد فى البحر ، لذلك فمن الضرورى أن تصل اليه بواسطة مركب صغير أو زورق من زوارق الساحل ٠

لقد كانت ساعة مغادرتنا مفعمة بالأحداث ، كما كانت الفوضى ضاربة أطنابها ٠ فلتتصور أننا متجمعون على الساحل فى صباح يوم قائظ من أيام شهر يوليو ، نراقب بحذر بالغ أمتعتنا وبضائعنا التى حزمت فى عجلة ، وقد أحاط بها رهط من المتشردين الذين لا يأنفون من نشل كل شاردة وواردة ، بينما الحجاج يندفعون بجنون واضح ، والأصدقاء يبكون ، والمعارف يضجون مودعين ، وأصحاب القوارب يطلبون الأجرة ، وأصحاب الدكاكين يدعون ديونا لهم ، والنسوة تولولن ، وتتحدثن بطريقة تنم عن طاقة لا ينفد معينها ، والأطفال يصيحون ٠ باختصار ، فقد كنا طوال ساعة أو نحوها فى وسط زخم بشرى عارم ٠ وقد أبعد أصحاب الزوارق زوارقهم ست ياردات عن الشاطئ ، تجنبا للفوضى والزحام مخافة ألا يستطيع الواحد من العتالين (الحمالين) تحصيل ما يزيد عن ضعف أجرته من الحجاج ٠ ومرة أخرى صدرت عن نسوة تركيات أصوات شنيعة ، وهن يصرخن ، والأطفال يصرخون لأن أمهاتهم تصرخن ، والرجال يوبخ بعضهم بعضهم الآخر ، ويقسمون ، ففى مثل هذا الجو من المستبعد أن يلزم أحد جانب الصمت ٠ وقد وجد كل واحد منا بعد أن ركب الزورق أنه فقد شيئا ذا أهمية حيوية : غليون أو طفل أو صندوق أو بطيخة ، ومن الطبيعى أن كل الخدم كانوا فى الأسواق فى الوقت الذى كان يجب أن

يكونوا فى القارب • وباختصار ، فرغم غضب البحارة الشديد ، خوفا من أن نتأخر كثيرا عن الرحلة الثانية ، فقد وقفنا لبعض الوقت على الشاطىء قبل أن نغادر الميناء •

وتم دفعنا من الشاطىء الى رصيف صغير ممتد ، حيث جلس البك the Bey شخصيا ليفحص ـ للمرة الأخيرة ـ جوازات سفرنا • وقد ضبط أفرادا عديدين لا يحملون معهم الوثائق الضرورية ، فضرب بعضهم بالفلكة على أخامص أقدامهم ، وأجبر آخرين ـ بشكل حاسم ـ على العودة الى القاهرة ، أما الباقون فقد سمح لهم باكمال رحلتهم • وفى حوالى الساعة العاشرة ، فى السادس من شهر يوليو نشرنا الشراع واجتزنا بتمهل قناة تؤدى الى مرسى السفن (المكلا) • وفى طريقنا ركب معنا بعض المغاربة • وقد ازدحم القارب بهؤلاء المتوحشين الذين أحاطوا بنا من كل جانب ، فقد انهمر منهم فى سفينتنا زهاء العشرين ، قبل أن نتخذ الاحتياطات الدفاعية • لقد حملوا معهم أشياء كثيرة ، وبدوا مستبدين وسخروا منا ، كما بدوا مستعدين تماما للدخول فى عراك • وقد حدث أن همهم صبيى الهندى بكلمة (بربر) فنجا من ضربة بجريدة نخل هوت غير بعيدة عنه ، وكانت ضربة شديدة كافية لاسقاط بعير • لقد فاقونا عددا ، وكانوا مسلحين ، وقد كنا مضطرين فى بعض الأحيان لابداء شىء من التصدى لغرورهم •

وكانت سفينة الحج التى ركبناها تسمى سلك الذهب وهى سنبوك (١) حمولة ٤٠٠ أردب (خمسين طنا) تقريبا • وله ـ أى السنبوك ـ انحناءات اسفينية ضيقة ، وعلى جانبيه خطوط ماء (٢) ، وله عارضة حادة ممتدة على طول قعره ، وليس له سطح علوى الا فوق المؤخرة فهو مرتفع بما فيه الكفاية ليقوم بدور الشراع فى مواجهة الريح العاتية • ولهذه السفينة صاريان ، يكادان يميلان نحو مقدم السفينة ، والصارى الرئيسى أكبر بكثير من الصارى المزينى mizzen (٣) فبالنسبة لسفينتنا هذه نجد

---

(١) السنبوك (والجمع سنابيك) بفتح السين ، وأصلها غير عربى ، لكن العرب يعرفون هذا النوع من السفن بهذا الاسم • تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى تأليف سيف مرزوق الشملان • ج ١ ص ٢٧١ • ويلاحظ أن بعض المؤلفين يكتبها بالميم وهو خطأ • انظر الصور ـ (المترجم) •

(٢) خطوط الماء water line ، هو خطوط على جانبى السفينة لقياس الجزء الغاطس فى الماء وهى فارغة أو وهى محملة ـ (المترجم) •

(٣) وهو الصارى الأقرب الى مؤخرة السفينة ـ (المترجم) •

أن صاريها الأقرب للمؤخرة مزود بمثلث خشبى ضخم ، أما الشراع الثانى فلا وجود له ، وليس هناك تبرير معقول لذلك • وليس فى هذه السفينة وسائل لثنى الشراع ، وليس بها بوصلة ولا جهاز لقياس سرعتها ، ولا حبال أو أسلاك لسبر غور الأعماق ، ولا حبال احتياطية ، ولا حتى ما يشبه الخريطة • وهذه السفينة بقمرتها (كابينتها) الشبيهة بالصندوق ، ومخزنها المضلع ، تجعل الانسان يحس بعلاقة قوية بين طرازها (أى طراز هذه السفينة) والسفن الهندية المعروفة باسم التونى Toni (٤) أو الزورق الشجرى (٥) •

وربمـــا كانت سفينة من هـــذا النوع هى التى حملت سيزوستريس Sesostris (٦) القديم عبر البحر الأحمر الى دير Deir ومثلها أيضا السفن الطوافة التى كانت تغادر مــرة كل ثلاث سنوات ـ ميناء ازيون جبر Ezion-Geber قاصدة طرشيش Tarshish وقد احتاج اليوس جاليوس Aelius Gallus لمائـة وثلاثين منهـا لتنقله مع رجاله العشرة آلاف • وقد كانت كلمة بقشيش Bakhshish هى آخر كلمة بغيضة سمعتها فى مصر ، كما كانت أيضا أول كلمة بغيضة سمعتها فيها • فمالك قارب الشاطىء لم يكن ليسمح لنا أن نصل الى سفينتنا قبل أن ندفع له أجرته ، وبعد أن دفعنا له أجرة طالبنا بالبقشيش • آه لو أن الشرقيين حذوا ـ فقط ـ حذو الأوربيين لتخلصنا سريعا من هذا الازعاج ، فأنا لم أر أبدا انجليزيا يدفع بقشيشا لشخص ما • لكن فى هذه المناسبة استجاب كل رفاقى لطلب البقشيش ، وفى أوقات أخرى يؤلم

---

(٤) التونى Toni أو الكانو (الجمع كانوات Crnoe) الهندى هو جذع شجرة جوف ليكون سفينة ـ خاصة من جذوع أشجار المانجو القريبة من بمباى ، وقد تطورت هذه الوسيلة البدائية فى الابحار فصنعوا سـفنا أكثر تطـورا هى الكاتاماران وهذا النوع الأخير متوفر فى مدراس وعدن • (موجز تعليق بيرتون)

Catamaran وهذا النوع الأخير متوفر فى مدراس وعدن • (موجز تعليق بيرتون) •

(٥) الزورق الشجرى adugout هو زورق يصنع بتجويف جذع شجرة • عن معجم المورد ـ (المترجم) •

(٦) المقصود سنوسرت الثالث الذى أسماه اليونانيين سيزوستريس ، وقد أمر بحفر قناة فى شرق الدلتا تصل بين النيل وخليج السويس • والمشهور أن حتشبسوت هى التى أرسلت أسطولا من خمس سفن كبيرة الى بلاد (بنت) وصورت رحلتها وكتبت أخبارها على جدران معبدها بالدير البحرى ولم تكن حتشبسوت وحدها هى التى أرسلت بعثات تجارية الى بلاد (بنت) •

محمد جمال الدين مختار وآخرون : مصر وحضارات العالم القديم (وزارة التربية) صص ٦٦ ـ ٦٧ •

الانسان أن يطلب منه دون غيره دفع البقشيش · وقد أبدت النظرة الأولى على سفينتنا من الداخل ما لا يبعث على الأمل : فعلى مراد مالك السفينة الطماع ، كان قد وعد بأن يصطحب معه ستين مسافرا ، الا أنه زاد العدد الى سبع وتسعين · وقد ازدحمت السفينة بأكوام الصناديق والأمتعة من مقدمتها الى مؤخرتها ، وكان سيل الحجاج الذين اقحموا اقحاما على جانبى السفينة كالنمل فى سكريات (أوانى السكر) بشرق الهند ، وحتى مؤخرة السفينة حيث اتخذنا أماكننا ، كانت مغطاة بالبضائع والأمتعة ، كما أن عددا من الحجاج قد فرضوا أنفسهم فى هذا المكان بالعنف لا بالحق ·

وقد ظهر سعد Saad ذو القوة والبراعة ، كبحار ماهر قدير وحقق ظهوره رضانا ، فقد نظر بسخط الى صندوقين كبيرين ممتلئين بالبضائع الثمينة واستعد هذا الشخص الممتلىء حيوية لاتخاذ اجراء ، وبمعونة مجموعتنا الصغيرة أخلى مؤخرة السفينة من الطفيليين وأمتعتهم بدفعها أو القائها ببساطة فى قاع السفينة · عندئذ استقر بنا المقام مرتاحين كما كنا نود ، وكنا ثلاثة سوريين ورجلا تركيا يصطحب زوجته وأولاده ، وريس (قبطان) السفينة ومعه جانب من طاقمها وخدمنا السبعة ، وبذلك كنا ثمانية عشر انسانا مكدسين فى مساحة لا تزيد عن عشرة أقدام فى ثمانية أقدام أما القمرة (الكابينة) — وكانت صندوقا بائسا فى مساحة مؤخرة السفينة ، وترتفع ثلاثة أقدام — فمعدة على شاكلة المخازن فى سفينة نقل العبيد ، وكان بها خمسة عشر شخصا بائسا من أطفال ونساء ، أما بقية السبعة والتسعين راكبا فقد تناثروا على الأمتعة أو على جانبى السفينة · وبسبب بعض الخبرة التى حصلتها فى مثل هذه المواقف — بالاضافة لمحالفة الحظ لى — وجدت قاعدة كهيئة السرير معلقة بجنب السفينة ، فمنحت صاحبها — وهو بحار — دولارا ، وكان هذا البحار قد وطن نفسه باعتبارها ملكه ، لينام عليها ، وسرعان ما جعلتها مناسبة لى مفضلا أى مشقة خارج السفينة عن الزحام الشبيه بزحام السردين المعلب فى داخل السفينة — فبقائى داخل السفينة كان قطعة من العذاب ·

لقد كان منظر رفاقنا المغاربة يدعو للسخرية فهم كحيوانات الصحراء القريبة من طرابلس وتونس ، انهم همج للغاية ، فمنذ أسابيع قليلة كانوا يحملقون فى المركب الصغيرة ذات مجاديف (كوكبوت) (٧) ويعجبون

---

(٧) ينطقها عرب الخليج جالبوت ، والجمع جوالبيت ، وربما كان الأصل جالي‍ب وهو نوع من السفن القديمة · عن : سيف مرزوق الشملان : تاريخ الغوص عن اللؤلؤ · ص ٢٧١ — انظر الصورة — (المترجم) ·

كيف كبرت (أصبحت كبيرة) وأصبحت سفينة أوسلتهم الى الاسكندرية ٠ وكان معظمهم شبابا أقوياء ، ذوى رءوس مستديرة ، وأكتاف عريضة كما كانوا طوال القامة غلاظ الشفاه ، كما كانوا ذوى عيون عابسة ، أما أصواتهم فكزئير غير منقطع ٠ وكانت طريقة تصرفهم فجة ، كما كانت وجوههم مليئة بكل معانى الغطرسة ٠ وكان من بينهم قليل من الرجـال كبار السن تعبر وجوههم عن الغلظة والضراوة ، وكانت النسوة على الشاكلة نفسهـا من القسـوة والضراوة ولا يقللن رغبـة فى المعـراك والاقتتال عن الرجال أما الصبية الظرفاء ذوو الأصوات الحادة الصاخبة فكانت أيديهم دائما على خناجرهم٠ لقد كانت النسوة ترتدين أسمالا بيضاء قذرة ، أما الرجال فقد ارتدى الواحد منهم « برنس Burnus » ــ والبرانس معاطف صوفية بنية أو مخططة ، تتصل بها قلنسـوات ٠ وهم ــ أى الرجال ــ لا يضعون على رءوسهم العمائم أو الطرابيش ، فهم يثقون فى قدرة شعورهم الجعدة والكثيفة وسماكة جلود رءوسهـم على حمايتهم من أضرار الشمس ، ولم أر واحـدا منهـم ينتقـل بخف أو حذاء ٠ وعلى أية حال ، فقد كانوا جميعا مسلحين ، ولحسن حظنـا فان سلاح الواحد منهم لا يزيد عن كونه خنجرا للقطع والطعن يبلغ طوله عشر بوصات ، ويسافر هؤلاء المغاربة فى جماعات (قطعان) ، كل جماعة تحت امرة قائد يطلقون عليه لقبا مؤقتا هو (٨) (المولى) وهى كلمة تعنى الرئيس ٠ وغالبا ما يكون المولى قد أدى الحج مرة أو مرتين وحصل قدرا من المعلومات السطحية التى تضمن له احترام جماعته ، وازدراء عميقا من مطوفى ومزورى (٩) مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) ٠ وليس من بشر يتحملون المشاق فى سبيل الحج أكثر مما يتحمله هؤلاء الأفارقة الذين يعتمدون تماما ــ فى الغالب ــ على الصدقات وما تتيحه العناية الالهية لهم ٠ لذا فليس أمرا مستغربا أن يسرقوا اذا أتيحت لهم الفرصة ٠ وقد حدثت عدة حوادث سرقة فى سفينتنا (سلك الذهب) ، ولأن مثل هؤلاء السراق غالبا ما يبدون مقاومة عنيفة ، فربما يتهمون ــ بحق ــ بارتكاب بعض حوادث القتل وهم فى حالة هياج ٠

---

(٨) أى طالما كان رئيسا لاحدى الفرق أو الجماعات المسافرة ، فاذا انتهى السفر لم يعد (مولى) ــ (المترجم) ٠

(٩) المطوف هو الذى يدل الحجاج على كيفية الطواف حول الكعبة وغير ذلك من مناسك الحج والعمرة ٠ والمزور هو الذى يرشد الحجاج وغيرهم على كيفية زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من المزارات فى المدينة المنورة ٠ عن بوركهارت : رحلات فى شبه جزيرة العرب ــ (المترجم) ٠

وأول ما يتعين على الانسان عمله بعد أن يحصل على مكان يقف فيه هو أن يكافح من أجل مزيد من الراحة ، فحتى سفينة الهوليهد Holy head التى كانت تنقل البريد والبضائع والركاب فى الأزمنة القديمة تعد أفضل حالا ، والعراك والمشاكسة فيها أقل من سفينة الحج هذه ٠ لقد اختلط عدد قليل من الأتراك وبعض الرجال كبار السن من الأناضول والقرم بالمغاربة فشرع الفريق الأول (الترك والأناضوليين وأهـل القرم) فى العراك بدفع جيرانهم المتوحشين (المغاربة) بمرافقهـم وتعنيفهم ، فقام المغاربة بزعامة قائدهم المولى على (وهو همجى تماما - واكتشفت ان هناك شبها يدعو للضحك بينه وبين الراحل شارلز ديلافوس Delafosse ناظر المدرسة العجوز الذى نذكره جيدا) بالرد على ضرباتهم وتوبيخهم بقسوة شديدة ، فما هى الا دقائق قليلة الا واختلط الحابل بالنابل فلم تعد تر الا أجسادا بشرية متلاحمة يصعب التمييز بينها ، فهذا يخترق الجموع ، وذاك يدفع بعنف ، وثالث يخمش وجه آخر ، ورابع يعض ، وخامس ينطح أى يضرب بالرأس (يعطى لخصمه روسية) وسادس يطأ خصمه بقدميه ، وتعالت صيحات الغضب والغيظ ، وكل أمر بغيض مصاحب للمعـارك ٠ وقد قام واحد من جماعتنا عند مؤخرة السفينة - وهو سورى غير حذر الى حد ما - بالوثب لمساعدة أحد مواطنيه باعادة النظام ، الا أنه سرعان ما غرق تحت أقدام المتعاركين ، وعندما أنقذناه كانت جبهته قد فتحت ، ونصف لحيته قد اختفى ، وظهرت علامات عض حادة من أسنان بعض المغـاربة على ربلة (بطـة) سـاقه ولم يبـد الأعداء رغبة فى مبـاراة شريفة متكافئة ، فظهر انهم لا يقنعون الا بأن يبرك خمسة أو ستة منهم فوق فرد واحد من مناوئيهم ٠ وقد ساءت الامور نتجة لهذا ٠ اذ كان من الطبيعى أن تبرز الأطراف الضعيفة خناجرها ، وسرعان ما أدت الطعنات المتبادلة الى جروح قليلة قاسية ٠ وفى غضون دقائق أصبح خمسة رجال عاجزين عن الحركة تماما ، وبدأ المنتصرون يبثون الرعب فى النـاس نتيجة انتصارهم ٠

وعندئذ توقف القتال ، ولما كان كثيرون منا غير مستطيعين أن يجدو أماكن ، فقد وافق الجميع على أن تؤجل المفاوضات لحين حضور على مـراد مـالك السفينة لاخبـاره بالزحام الشـديد عليهـا ٠ وبعـد أن طال انتظارنا ما لا يقل عن ثلاث ساعات ، ظهر على مراد فى قارب تجديف على بعد غير قليل من سفينتنا ، وأخبرنا أن أى واحـد منـا يرغب فى مغادرة السفينة ، فانه سيرد له الأجر الذى دفعه ٠ وأدى قوله هذا الى أن أصبح الوضع على السفينة كما كان تمأما قبل مجيئه ، فلم يكن أى من الركاب براغب فى ترك جماعته والعودة للشاطىء ٠ لذا فقد

جدف على مراد عائدا للسويس ، موجها لنا نصيحة بأن نكون طيبين ونترك الاقتتال ، ولنثق بالله (سبحانه) فانه سيسهل لنا الأمور كلها ٠ وكان رحيل على مراد اشارة لمعركة ثانية ، وان اختلفت وقائعها قليلا عن المعركة الأولى ، ففى أثناء المعركة الأولى كنا نحتفظ بأماكننا وفى أيدينا أسلحتنا ٠ وفى هذه المرة طلب منا المغاربة أن نأخذ عندنا حوالى ستة منهم لانقاذهم من متاعبهم ٠ وقد ظهر سعد العملاق فجأة مقسما بالله ، ووزع علينا مجموعة من النبابيت (١٠) ــ وهى عصى رمادية يبلغ طول الواحدة منها ستة أقدام ، ويبلغ سمكها سمك الرجل ، وكانت النبابيت قد أحسن تشجيمها ، وتم تجربتها فى كثير من المعارك الحامية ٠ وصاح فينا سعد العملاق : « دافعوا عن أنفسكم اذا كنتم لا تريدون أن تكون لحومكم طعاما للمغاربة » وصاح فى الأعداء : « يا كلاب ، يا أولاد الكلاب ٠٠ سوف ترون الآن من هم أولاد العرب » فأجبناه مرددين أسماءنا وأنسابنا :

ــ أنا عمر الداغستانى

ــ انا عبد الله بن يوسف !

ــ أنا سعد العملاق !

ولنكون عادلين فى حق أعدائنا ، فانهم والحق يقال لم يبدوا أى علامة دالة على الاحجام ، فقد احتشدوا فى اتجاه مؤخرة السفينة ، كالزنابير الغاضبة ، وراحوا يشجع بعضهم بعضهم الآخر بصيحات « الله أكبر » الا أننا كنا فى موقع أكثر ارتفاعا من موقعهم بحوالى أربعة أقدام ، كما أن عصيهم من جريد النخل وخناجرهم القصيرة لم تكن لتصنع شيئا فى مواجهة نبابيتنا المرعبة ، وعبثا حاول « الجاكيون Jacquerie (١١) أن يصعدوا الى مؤخرة السفينة وأن يتفوقوا علينا بكثرة العدد فلم تنفعهم شجاعتهم شيئا سوى حماية رءوسهم من التكسير ٠

وفى البداية بدأت أهاجم حاملا النبوت Main morte وكنت خائفا حقا أن أقتل أحدا بمثل هذا السلاح لكن اتضح أن رءوس المغاربة

---

(١٠) جمع نبوت Nabbut

(١١) Jacquerie هى الثورة الجاكية أو ثورة الفلاحين فى فرنسا عام ١٣٥٨ ، وأصبح هذا المصطلح يطلق على ثورة الفلاحين بشكل عام ٠ وبيرتون هنا يسقط ثقافته التاريخية وغير التاريخية الواسعة على تشبيهاته فيرهق المترجم والقارىء ارهاقا شديدا ، والمقصود هنا وصف المغاربة بالغلظة والشدة مع قلة فى العقل ــ (المترجم) ٠

واكتافهم تتحمل بل وتحتاج من المرء أن يضرب بقوة · وسرعان ما أتتنى فكرة · لقد كان ثمة زير فخارى ملىء بماء الشرب ــ مثبتا فى حمــالة خشبية قد يصل وزنها الى مائة رطل ــ فوق مؤخرة السفينة ، فتسللت الى هذا الزير ــ ودون أن ألفت نظر أحد قلبته بدفعة ذكية من كتفى على جماعة المهاجمين (المغاربة) · وأحدث ســقوط الزير صوتا طغى على صــوت العراك وضجيجه وتسبب فى خدوش ورضــوض فى الرءوس والشــفاه والأجساد ، مما دفع المغاربة للانسحاب الى آخر الســفينة خوفا من حدوث ما هو أسوأ · وبعد دقائق قليلة جلسنا خلالها فى صمت حزين أتانا وفد من ذوى البرانس البنية الشاحبة ليقدموا لنا « عصير الاستطلاع » على حد تعبير ميفيستوفيلز Mephis topheles فتوسلوا منا السلام فوافقنا على أمل أن يلزموا أنفسهم به · وقبلوا أيدينا وأكتافنا ورءوسنا ، وعادوا ليضمدوا جروحهم بخرق قذرة · لقد أرجعنا هذا الانتصار تماما لجهودنا الا أن عمرا Omar المعروف بالحلم كان أكثر المجموعة غضبا · أما الريس Rais (ريس السفينة) فكان ــ كما علمنا بعد ذلك ــ غبيا قديما فلم يكن يستطيع أن يفعل شيئا سوى الدعوة لقراءة « الفاتحة » وطلب « البقشيش » فى كل مكان نرسو فيه ليلا · وكان طاقم السفينة يتكون من ستة رجال مصريين لم يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم اذ كان المغاربة يعاقبونهم بين الحين والآخر خاصة اذا حاولوا الطبخ أو جلب الماء أو اعداد الشيشة ·

وأخــيرا فى حوالى الســاعة الثالثة من عصر السادس من يوليــو ١٨٥٣ نشرنا أشرعتنا التى انتفخت بالرياح المواتية ، ورفعنا أيدينا وقرأنا الفاتحة ثم مسحنا وجوهنا بأيدينا · ولما تحركت (السلك الذهبى) لم أتمكن من القاء نظرة مشتاقة على العلم البريطانى الذى يرفرف فوق القنصلية · وسرعان ما خنقت الأسف العابر الذى ألم بى فقد كنت سعيدا حقا بمغادرة مصر فقد عشت فى أرضها غريبا سيىء الحظ ، وكان كل من طالع وجهى فى شوارعها اعتبره وجه عدو فارسى ، وكلما تعاملت مع الموظفين الوطنيين واجهت الغطرسة ، وكان تعودى على أن أعيش فى جو من المودة والترحيب بين أهل بلدى جعلنى أجد من غير الممكن أن أسعد فى مجتمعهم لذا فقد ألقت الكآبة بظلالها على فترة اقامتى المؤقتة فى مصر ·

وسفن البحر الأحمر تبحر نهارا بالقرب من الساحل ، وترسو ليــلا عند أول خليج صغير تجده ، فالبحر الأحمر ذو سمعة سيئة بســبب شعابه المرجانية وصخوره القريبة من السطح وضحالتــه بالقــرب من الساحل ، ولا يبحر البحارة فيه اذا كانت الريح عاصفة خاصة فى الشتاء

حيث لا يدوم النهار طويلا ، وحيث الجو عاصف غالبا ، لذا تكون الرحلة بطيئة مملة بشكل لا يطاق • وعند غروب الشمس رسونا ــ ولا زالت السويس على مرأى منا ــ تحت جبل عتاقة متخذين منه ملاذا يحجب الريح عنا ، وعلى الساحل الشرقى كانت توجد قلة من بساتين النخيل متجمعة حول (عيون موسى) أما فى الغرب فيقع ــ بين حيدين برجيين ــ مصب وادى (مسيل) الطوارق أو وادى موسى أو وادى البادية ــ الذى خرج بنو اسرائيل منه الى بحر البردى The Sea of Sedge (١٢) ــ وفقا لما يقوله الأب سيكارد Sicard • وكان المنظر يفتقد الى الأبهة البربرية تماما • فلا خضرة البتة غير أنه تحت القبة السماوية التى تشكل خلفية بنفسجية وبرتقالية توجد الصخور الطباشيرية التى أصبحت ــ بفضل انعكاس الألوان انفة الذكر ــ أكواما من التوباز Topaze ، كما أصبحت الحيود المبنية التى سفعتها الشمس وكأنها كتل من الجمشت (أحجار كريمة أرجوانية أو بنفسجية) ، وكان الضباب الطالع فضيا أبيض فى موضع ، وزهريا غامقا فى موضع آخر ، وزرقة الأمواج الساحرة تحد أشرطة طويلة من الرمال الذهبية •

وفى صباح اليوم التالى (٧ يوليو) شرعنا فى الابحار قبل أن تتلاشى الألوان من قمم التلال • ولم يمض وقت طويل حتى كنا على وعى بموقعنا • لقد كان الصندوق الذى يضم مؤنى وأفيونى موجودا فى قاع الخرج الخاص به ، وهو موضع لا يمكن الاقتراب منه ، وهو أمر مزعج لى خاصة بالنسبة للأفيون وعلى هذا فقد « سعدنا » بتناول افطار من جلد الفرس (المقصود قمر الدين) وقطع من البسكويت اليابس كالحجر أما طعمه فلا مذاق له • وخلال النهار بينما كانت الشمس والحرارة تحكمان دون منازع ، كان اندفاع الماء قد بلل عشى برذاذ من الماء جعله رطبا دائما • وفى الليل يشتد البرد ويتألق القمر ويتساقط الندى كثيفا ورطبا لدرجة أن الانسان يحس أن جلده لن يتخلص من البلل أبدا • ومن المبهج » تماما أن ينام المرء على سرير خفيف لا يزيد طوله على حوالى اربعة أقدام ولا يزيد عرضه عن قدمين مع يقين كامل بأن أية حركة غير محسوبة ستقذف بك من فوق السفينة الى البحر ، ومع قناعة تامة أنك

---

(١٢) الاسم العبرى لهذا الجزء من البحر الاحمر • ويرى بيرتون أن الاغريق سموا البحر الاحمر باسم البحر الارترى Ergthraen Sea نسبة الى حمير (بحر حمير) Hımyar Sea (عن بيرتون) •

(١٣) رئيس بعثة الجزويت التى زارت المنطقة سنة ١٧٢٠ وكتبت عنهـا مجلدا معروفا • (عن بيرتون) •

اذا سقطت من السفينة (السنبوك) تحت الشراع فليس من قوة مستميتة يمكنها انقاذك ، ففى الشرق ــ تحت كل الظروف ــ تجد أن التراخى والكسل هما الوظيفتان الأساسيتان للانسان الشرقى ، وسيفهم القارىء أن الحاجة للتراخى والكسل قد جعلتنى متراخيا كسولا تماما ٠

لقد كانت الرياح خفيفة هذا النهار ، وكانت أشعة الشمس نارا وفضل طاقم السفينة الاقتراب من ظل الشراع ليتمتعوا بالهواء فى هذا المكان ٠ ورغم تململنا فلم نقطع الا مسافة يسيرة وقرب المساء رست السفينة عند لسان رملى على بعد حوالى ميلين من مرتفعات مشهورة جديرة بالتصوير يسميها العرب حمام فرعون :

« تقف كالمارد ،

لتحمى أرض السحر والجمال »

فمن الواضح أن شريط المرو (الكوارتز) الخشن وكتل الأحجار الرملية قد جرفتها بعض السيول من الجبل ٠ انها تمتد ناحية الجنوب وربما كان مسارها فى هذا الاتجاه بفعل التيارات البحرية وهى تتلقى هذه الرواسب ٠ ولقد منعنى بعد هذا « الحمام الكاذب » من زيارته وأنى لآسف لعجز التعبير بالقلم عن مجاراته لوصف الجهد والواقع ٠

لقد سعدنا هذه الليلة باستلقائنا على الرمال النظيفة التى جعلتها الرياح تتخذ شكل أمواج صفراء صغيرة ، والتى يمكن أن تتحول الى مخادع مريحة باردة بقليل من الحفر والاعداد ٠ والحقيقة أنه بعد أن عانينا من حرارة النهار الشديدة ورجرجة سفينتنا السيئة ، فقد كان علينا الا نطمع فى كثير من الترف ٠ لقد جمعنا الوقود (الحطب) بالفعل ، وبينما كان بعضنا يستحم كان الآخرون يجهزون النار فى كانون أو مصطلى وهو عبارة عن ثلاث أثافى (أحجار) مع ترك فجوة فى اتجاه الريح ، وأشعلوا النار ووضعوا فوقها الاناء ليغلى ٠ وكان مع الشيخ نور ــ لحسن الحظ ــ سنارة لصيد السمك ووقفنا فى الصيد ، وأحضرنا قليلا من الأرز وشوينا على الفحم النباتى أسماك القد التد تعيش على الساحل بين الصخور ، وهيأنا غداء جعل كل من ذاقه ينسى المظلم الفادح الذى لحقنا بأكل جلد الفرس (المقصود قمر الدين) والبسكويت الذى يضارع الأحجار فى صلابته ٠ وغامرت قلة من المغاربة بالتجول على الشاطىء ، فأرهب « المريس » الباقين بتهديدهم « بالمغيلان » وهو يقصد البدو ــ وقدم لنا المغاربة الكسكسو kuskusu مقابل ما قدمناه لهم من سمك ٠ ولما حل

المساء صممنا – قبل أن ننام – على التأثير فى معنويات هؤلاء المغاربة بشكل جاد فهزأنا من تكوينهم الجسمانى وهيأتهم • وقام الشيخ حامد برفع الأذان بنغم أهل المدينة المنورة ، فتجمعوا لأداء الصلاة واتخذوا صفوفهم خلفنا (جعلوا أنفسهم فى الصفوف الأخيرة فى الصلاة) كمظهر من مظاهر الاحترام ، ولما انتهت الصلاة وجهوا لنا أسئلة عن المدينة المنورة حتى تعبنا من الاجابة ، فراحوا يقبلون رؤوسنا وأكتافنا وأيدينا وركبنا ليس اعتذارا هذه المرة ، وانما ايمانا وحبا لمن يعرف عن المدينة المنورة اكثر مما يعرفون • وكان رفاقى يستطيعون بشق الأنفس فهم نصف الكلمات الوعرة التى يستخدمها المغاربة فلهجتهم لهجة صحراوية طازجة (قادمة لتوها من الصحراء) • لقد نجحنا فى جعل أنفسنا واضحين لهم وتبجحنا بشرافتنا كأبناء للرسول (صلى الله عليه وسلم) وفخرنا عليهم بقداسة أرضنا التى تحمى أبناءها من الخداع والعنف • ووعدناهم – متفضلين – أن نكون أدلتهم (مزوريهم) فى المدينة المنورة ، وأن المولد محمدا سيكون مطوفهم فى مكة المكرمة فكانوا يبدون أسفهم وندمهم على ما بدر منهم من اثم فى حقنا فى الأيام السابقة وتعهدوا بان هذا لن يتكرر ، ووعدوا أن يؤدوا ما عليهم كحجاج صالحين مؤمنين • وسرعان ما انضم « الريس » الى جمعنا ، وبدأ قص القصص كما هو معتاد • لقد كان الرجل العجوز يعرف اسم كل تل ولديه تفسير لكل ركن وزاوية يقع عليها البصر • وقد أسهب بافاضة عن حياة « أبو زليمة » Abu Zulaymah-الشيخ الحامى لهذه البحار والذى يقع مقامه (قبره) الصغير غير بعيد من المكان الذى نعسكر فيه ، وأخبرنا كيف أنه يجلس ليحمى البحارة الأتقياء فى كهف بين الصخور المجاورة وأنه يشرب قهوته التى تجلبها له من مكة المكرمة طيور خضراء ، وهى – أى حبوب البن – بحالتها الطبيعية أى غير مقشورة ، وأن الملائكة هى التى تعد له القهوة بأيديها المباركة ، بالطريقة المعتادة • وأرانا البقعة التى غرق فيها الفرعون المصرى وذهب الى « جحيم الماء hell of waters » عندما تعقب أطفال بنى اسرائيل ، وحذرنا من أنه فى اليوم التالى سيكون مسار سفينتنا عبر موجات محطمة وشعاب وصخور وتيارات مائية خطيرة تتحرك فوق أعماق مرعبة لأنه منذ ذلك اليوم الرهيب (الذى أغرق فيه فرعون مصر) لم يتوقف عفريت العاصفة أبدا عن تحريك جناحه الأسود • وتجلى خوف السامعين مما يبرهن على أن رماح كلمات الرجل العجوز كانت حادة • لكن كلما اقترب الليل ، رحنا الواحد تلو الآخر نفرش ابسطتنا واستغرقنا فى النوم فوق الرمال وكنا جميعا سعداء لأننا طعمنا وشربنا • ولأن الانسان حيوان مليء بالأمل ، فقد كنا متأكدين أن العفريت سيكون غدا رحيما وسيسمح لنا بأن نأكل رطبا فى ميناء الطور Tur .

لقد ضاع منا منظر البلح الجميل ـ الذى كنا نتوقع رؤيته فى الطور بسبب الاهمال • ففى الفجر الأغبر لليوم الثامن من يوليو هبطت علينا صعوبات ، فقد كان الماء عميقـا بالقرب من الساحل وكنا قد رسونا عندما كان المد عاليا ولما جاء الجزر انسحب الماء وترك سفينتنا على اليابسة فى مكان مرتفع ، وقد اعتزم المغاربة أن يجلدوا « الريس » على قدميه (بالفلكة) ـ لولا تدخلنا ـ لأنه كان يجب أن يكون أكثر علما وخبرة • وبعد أن انتهت موجة الغضب وظفوا جهودهم البدنية لانقـاذ الموقف ، فقام الجميع ـ ما عدا النسوة والأطفال ـ بجهود كبيرة فألقى بعضهم بنفسه فى الماء ، وراح آخرون يدفعون ، وآخرون اسـتخدموا أكتافهم لتحريك السفينة من جانبها • لقد أجهدوا أنفسهم غاية الجهد ، والنسوة والأطفال يشجعونهم وهم جالسون على الشاطئ بالصـياح والدعاء • ولكن « السلك الذهبى » أبت الحركة ، كما أن جهودهم فى تحريكها لم تكن منتظمة ، ولما فشلت جهودهم العضلية قرروا تغيير تكنيكاتهم فبناء على اقتراح مولاهم their Maula أعـدوا البخور لاحراقها ارضاء للشيخ « أبو زليمة » ولم يكن البخور متوفرا فاستخدوا البن ، لكن ذلك لم يرض الولى الصالح « أبو زليمة » ، لذلك تذكر «الريس» أن كل جهودهم السابقة لم تكن مجدية لأنهم لم يقرءوا « الفاتحـة » فقرءوها ثم شرعوا فى العمل من جديد ، لكنهم أخفقوا فى تحريك « السلك الذهبى » وأخيرا شرع كل رجل يتوسل بصوت عال « لوليه » أو « شيخه » أو مرشده الروحى ، وراح يدفع « السلك الذهبى » وكأنما يقع على عاتقه وحده عبء تحريكها • وراح الشيخ حامد ـ بحمق ـ يتوسل لجده الأعلى بائع السمن (السمان) الا أن « السلك الذهبى » العنيدة أبت الحركة فتراجع حامد مضطربا •

لقد كانت الساعة الآن حوالى التاسعة صباحا ، وكان الماء قد ارتفع بشكل ملحوظ ، وقد قضيت صباحى فى مراقبة تدفق المد ، ومراقبة الجهود المشتتة التى بذلها المغاربة لتحريك السفينة ، ولما لاحظت أن السفينة بدأت تتقلقل من مكانها قليلا نهضت واقفا وسرت نحوها بعظمة وخيلاء وجعلت الحجاج يلتفون حول السفينة ويدفعونها بأكتافهم وأخبرتهم أن يرفعوا بشدة عندما يسمعوننى أتضرع باسم الشيخ الحامى (الوالى) ورفعت يدى وصوتى وصحت : « يا بيران بيـر Ya piran Pir .. يا عبد القادر الجيلانى (١٤) » • لقد كان كل مغربى يدفع بكل قوته وكأنه أطلس (١٥)

(١٤) أصبح معروفا الآن لدى المسلمين المتعلمين ، والمسلمين السنة بشكل عام أن التوسل بغير الله حرام ـ ويلاحظ أنه كلمـا انتشر التعـليم تراجعت هـذه الخـرافات المناهضة للعقل والدين على سواء ـ (المترجم) •

(١٥) حامل السماوات فى الأساطير الاغريقية • معجم الأساطير اليونانية والرومانية تأليف أمين سلامة ـ (المترجم) •

فارتفعت السفينة ثم راحت تنزلق ثقيلة على الرمال ثم طفت على سطح الماء • واعتبر هذا بمثابة معجـــزة صغيرة لى ، وأصبح الأفندى (بيرتون نفسه) موضع احترام ليوم أو يومين •

كانت الريح تهب رخاء لكن كان لابد أن نركب جميعـــا وهى عملية تستمر الى وقت الظهيرة • ولما بدأت الابحار عرفت السبب « الطبيعى » لتسمية هذا الموضع بالاسم السيىء « بركة فرعون » فالخليج هنا ضيق ، والرياح ـ التى تدفع الى أسفل شقوق الجبال الشامخة ووديانها فى السواحل الشرقية والغربية ـ تتقابل مع التيـــارات المائيـــة المعـــاكسة Counter-Currents ومـــع المـــد المرتفع ، فيسبب هـــذا التصادم هياجا مناخيا دائما • وفى ذلك اليوم غطى زبد البحر فراشى بشكل متكرر فجعله غير مريح وفى المساء أو قبيل حلول المساء بقليل رست سفينتنا تحت حيد صخرى يقع خلفه سهل الطور ، وأثار رسوها قرفنـــا واشمئزازنا بشكل لا حد له • وقد روع « الريس » جميع المســـافرين من التوغل فى الساحل خشية البدو الذين يترددون على هذا المكان ، والذين روى عنهم حكايات مرعبة ، بالاضافة الى انه لا توجد رمال عنـــد هذا الشـــاطىء انستلقى عليها • وعلى هذا فقد ظللنا ماكثين على السفينة هذا الليل وأبحرنا فى صباح اليوم التالى مبكرا ، ورو‌عتنا الشعب المرجانية ورمال الساحل ظهرا عند مدخل الطور الخطير والمعقد •

لا شىء اكثر تفاهة من المنظر الحالى لهذه المستعمرة الفينيقية القديمة رغم أن موقعها كميناء ووفرة مؤنها من الفاكهة والماء ـ يجعلها من بين اهم موانىء البحر الأحمر • والآثار الوحيدة الباقية ـ باستثناء الآبار ـ هى التحصينات التى اقامها البرتغاليون لابعاد خطر البدو • وتقع البلدة الصغيرة فوق السهل الذى يمتد بارتفاع تدريجى من البحر الى عقدة جبال سيناء الشامخة • وتذكرنى المنطقة حولى ـ بشدة ـ بمنطقـــة السند البحرية ، فثمة مسطح من طمى ورمل مكسو بطبقة متناثرة من سالسول Salsolae وتشير تكويناته الى انه حديث على حد قول الجيولوجيين • وسكان الطور فى الأساس يونانيون ومسيحيون من بلاد اخرى ويتعيشون من بيع الماء والمؤن للسفن • وعندما حـــل المساء كانت ثمة غمامة ناعمة فوق قمة جبل الطور المهيبة وظهرت الخطوط الخارجية للتلال العملاقة تغطيها صفحة السماء الزرقاء الصافية • وحذرنا «الريس» خبير المناخ أن هذه الظواهر تنبىء بعاصفة فان كانت شديدة فلن يغـــادر الطور • ولم اكن آسفا لسماع ذلك ، فقد قضينا يوما بهيجا فشربنا ماء عذبا واكلنا بلحا وعنبا ورمانا حمله السكان الى الساحل لأطعام الحجاج الجوعى وبالاضافة لهذا فقد كانت هناك مناظر مختلفة تستحق أن أراها ،

وقد يكون مفيدا أن نقضى فترة الصباح هنا أيضا · لذا فقد نصبنا خيامنا فوق الرمال وشغلنا أنفسنا بفتح صناديق المؤن ، وتم العمل بهدوء لغياب المغاربة عنا ، فقد كان بعضهم يتجول على الشاطىء وبعضهم الآخر ذهب لملء قربهم بالماء · لقد وجدنا أن فظاظة طباعهم لا تطاق حتى عندما كنا نمر من مؤخرة السفينة الى مقدمتها ، كانوا متعبين فى الحل والترحال ، وكانوا يتذمرون ويدمدمون معبرين عن سخطهم ·

ولم يكن « الريس » مخطئا فى تنبؤاته فالسحابة الناعمة فوق قمم الطور كانت نذيرا حقيقيا · ولما أشرق صباح اليوم التاسع من يوليـــو وجدنا الريح عاتية والبحر هائجا اعتلى سطحه الزبد الأبيض · ولم يفكر غالبنا الا قليلا فى هذا الرعب الا أن « ريسنا » الشجاع أقسم أنه لا يجسر على عبور مخرج خليج العقبة المشئوم فى هذه العاصفة ــ حفاظا على حياته · وعلى هذا فقد تناولنا افطارنا ثم خرجنا لزيارة عيون موسى الساخنة فركبنا حميرا هزيلة عليها برادع (جمع بردعة) وليس لأى حمار منها ركاب ولا ذيول (!! كذا بالنص) ، وكنا نحن نعــانى ــ بشكل عام ــ من البثور التى جعلت منظرنا غير ملائم · وكان طريقنـا يتخذ اتجاها شماليا عبر السهل فى اتجاه شريط طويل ضيق به نخيل وتحيطه أســـوار طينية مهدمة ·

وبعد أن ركبنا الحمير زهاء ميلين أو ثلاثة دخلنا منطقة بساتين ووصلنا مباشرة للحمام وكان مبنى صغيرا من طابق واحد يشبه ما هو موجود فى الريف الانجليزى أو الأحياء الفقيرة فى لنــدن ، بناه عباس باشا ليستخدمه كاستراحة ، وكان مطليا باللون الأبيض الســاطع ومزينا بســـتائر من قماش الكاليكو Calico ذوات ألوان متدرجــة رائعة · وكان الحارس قد أحيط علما بزيارتنا فاستعد لتزويدنا بملابس الاستحمام وغيرها من الضروريات · ودخلنا الحوض واحدا اثر الآخــر ، والحوض موجود الآن فى الغرفة الداخلية للمبنى · وكان الماء فى الحوض بعمق حوالى اربعة أقدام ، دافىء فى الشتاء وبارد فى الصيف له طعم مالح ومر لكنه مشهور بخواصه المنشطة اذا استعمل فى الاستحمام · وعلى أحد جوانب الصخرة الكلسية بالقرب من الأرض يوجد الثقب المفتوح على الينبوع بفعل عصـا موسى التى لابد انها كانت كصـــارى المركب ، وبالقرب من هذا الثقب توجد علامات أظافر موسى (عليه السلام) وهى فجوات عميقة فى الصــخور ربمـا كانت بفعـل بعض الحيوانات المنقرضة · وأخبرنا دليلنا أن أثر اصبع موسى (عليه السلام) كانت موجودة أيضا فيما مضى ، وانها ــ أى الأثر ــ كانت كافية ليتمدد الانسان فيها · حتى التجهيزات الصحية للعيون ارجعوها لبركات النبى (موسى

عليه السلام) · ولما سألنا لماذا لم يجعل موسى الماء العذب ينبع هنا أخبرنا أن المشرع العظيم great Lawgiver (يقصد موسى عليه السلام) كان يريد أن يستحم الناس هنا لا أن يشربوا · وجلسنا مع الدليل نأكل بلح الطور الصغير الأصفر الذى يذوب فى الفم كعسل النحل ، وبعد أن دخنا عددا من الشيش وشربنا فناجين قهوة ، أعطينا لعامل الحمام بضعة قروش قليلة وركبنا حميرنا متجهين شرقا الى « بير موسى » فوصلناه فى غضون نصف ساعة · انه بناء جميل قديم مشيد حول البئر ، وله قبة تعلوه من أحجار مربعة غير صقيلة ، ويشبه كثيرا ما قد نراه فى بعض أنحاء الريف جنوب انجلترا ، وكانت جوانب الحفرة فظة ومشققة بحيث يمكن للانسان الدخول فيها ، اما فى القاع فيوجد الماء عذبا وغزيرا · ونوينا المكوث هنا وتأمل التصوير الجصى على الجدران والسقف ، لكن وجوه رفاقنا المغاربة المكفهرة واجهتنا عند المدخل فقتلت مشروعنا فى مهده · فاتجهنا الى مقهى مجاورة لنحتمى من الشمس المحرقة ، وكانت المقهى عبارة عن ظلة من جريد النخيل لرجل من الطور فجلسنا على الحصير والتهمنا كل ما فى سلالنا من طعام وأثناء تناولنا الطعام قدم بعض البدو وانضموا الينا عندما دعوناهم · لقد كان هؤلاء البدو يرتدون أسمالا بالية وكانوا مسلحين بالسكاكين والسيوف الضالعة (١٦) الرخيصة علقوها فى حزام كتف جلدى عريض · وتبدو فى لهجتهم وتصرفهم بقايا من ضراوتهم القديمة · وكان هؤلاء البدو منذ أيام محمد على يعملون فى مجال البحث عن السفن الغارقة لنهبها أو انقاذها ، أما قبل ذلك فكانوا قراصنة من الطراز الأول ، أما الآن فهم أسود بأنيابهم ومخالبهم المسحوبة · وفى المساء عدنا لخيمتنا فأتى الينا أحد السوريين من مجموعتنا فى مؤخرة السفينة ليخبرنا بمعلومات مفادها أن عدة سفن كبيرات قد وصلت من السويس يقال انها فارغة نسبيا · وان قبطان (ريس) احداها يمكن أن ينزلنا فى ينبع لقاء ثلاثة دولارات للشخص الواحد · لقد كان العرض مغريا · لكن سرعان ما ظهر أن رفاقى غير راغبين فى نقل صناديقهم النفيسة ، وأكثر من هذا فقد اضطر للدفع لأولئك الذين لا يرغبون أو لا يريدون الدفع عن أنفسهم مما يعرض ميزانيتى للاختلال ، لذا فقد رفضت الفكرة متحسرا · وكان بين السفن الكبيرة ثمة شخص يتعارك مع حجاج فرس ـ والحجاج الفرس هم أكثر العناصر غير المقبولة يمكن اصطحابهم فى رحلة · لقد رفضوا النزول من السفينة فى البداية لخوفهم من البدو ولم يأخذوا ماء من أهل

---

(١٦) السيف الضالع هو سيف وحيد الحد معقوف قليلا ـ عن معجم المورد ـ ـ (المترجم)

الطور لأن عددا من سكانها مسيحيون ، وأكثر من هذا فقد أصروا على اقامة الأذان للصلاة لأنفسهم ولم يعتمدوا اذان الآخرين • واذان هؤلاء الفرس يحوى خمس كلمات تزيد عن آذان أهل السنة الذين يفضلون الموت على السماح بها (أى بهذه الكلمات) ، وعندما شرع رجل ذابل الوجه منهم فى الأذان ، ونطق بهذه الكلمات :

« in quel tenore

Che fa Cappon quando talvolta Canéa »

فاستقبلنا قوله بصيحات ساخرة • ونزع بعضنا أسلحته ليقدم له (المؤذن) فرصة الاستشهاد • ولما سمع المغاربة ذلك تجمعوا ساخطين للقيام بعملية « جهاد » صغيرة ضد هؤلاء الفرس « الرفضة » Rafa: وتعنى الزنادقة • واتخذ الفرس ذوو اللحى الطويلة حذرهم • لقد كانوا ضعف عدد مجموعتنا لذا فقد راحوا يختالون حولنا لا مبالين وراحوا يحملقون فينا ويحطون من قدر أنفسهم بطريقة غير محتشمة ، لكنهم عندما أدركوا اقتراب لحظة المواجهة رفعوا الراية البيضاء • لقد صاحبنا هؤلاء الفرس الى نهاية الرحلة ولما اقتربنا من الأرض المقدسة تسبب منظر نبابيتنا فى تغيير سلوكهم لما هو أفضل • وفى مهر Mahar تلقوا الاهانات المختلفة بخنوع ، وفى ينبع تذللوا لنا كالكلاب •

---

(١٧) يضيف بعض الفرس عبارة « خان الأمين الرسالة » أى أن جبريل عليه السلام نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، خطأ ، وكان المفروض أن ينزل على على (رضى الله عنه) • وهو قول فاحش • (المترجم) •

الفصل الحادى عشر

الى ينبــع

مغادرة الطور ـ وصف الطبيعة ـ حالة الملل ـ حزب البحر ـ الاحترام فى الشرق يقوم على الخوف ـ عبور العقبة ـ مرسى دمغة ـ جهينة وهتيم ـ ميناء الوجه ـ مقام الشيخ حسن المرابط ـ الشعب المرجانية • جزيرة حسانى ـ قبيلة هتيم ـ جبل رضوى •

غادرنا الطور فى الحادى عشر من شهر يولية سنة ١٨٥٣ ، فى الفجر تقريبا ، بعد أن قضينا فترة استراحة مبهجة ، وان كان القلق قد اعترانا ـ يقينا ـ لمعرفتنا أننا لن نلامس الأرض طوال ست وثلاثين ساعة • لقد قضيت وقتى فى تأمل نسيج مظلتى وفى رصد الأحــوال الجــوية كالتــالى :

صباحا : الهواء معتدل ومنعش ، كهواء الربيع فى ايطاليا والضباب الكثيف ينتشر فى الوديان على طول ساحل البحر ، والسديم (الضباب الرقيق) يتوج الألسنة الممتدة فى البحر كأنه عرق اللؤلؤ • أما الصخور المتباعدة فتبدو كأسوار هائلة وبروج محصنة ذوات شموخ ، كما تبدو الخنادق حول هذه الأسوار ملأى بالظلال العميقة • ويجرى بحر أرجوانى أو بنفسجى عند سفوح هذه الأسوار وتلك الصخور ، وعندما تستقبل الأرض أول خيوط الضوء ، فان قممها غالبا ما تكون واضحة وهى مختلطة (ممتزجة) بقبة السماء ، لا شىء يمكن أن يكون أجمل من هذه الســاعة ولا أبهى لكن هذا الصباح رائع الجمال سرعان ما ولى ، فالشمس ـ ذلك العدو القاسى ـ تبزغ مطلة من ناحية البر ، وسرعان ما ستجبر كلا منا على الانحنــاء أمام قسوتها • لقــد صبغ هذا العدو (الشمس) السماء باللون البرتقالى ، أما البحر (القرمزى) فقد أصبح سطحه الهائج مشربا بأشعة هذا العدو (الشمس) الذى بدد عنه ـ بقسوة ـ الضباب والسديم وكتل السحاب التى اعتراها على نحو ما لون العقيق ، والتى كانت تسبح فى قبة السماء الزرقاء • لقد كان الجو صافيا جدا حتى أن

الكواكب تبدو واضحة مرئية بين الحين والآخر . وبالنسبة للساعتين التاليتين للشروق ، فان الأشعة يمكن احتمالها ، أما بعد ذلك فقد صارت محنة قاسية وأشعة الصباح تشعرك بالحزن وتجلب لك الشعور بالمرض فتعكس المياه الغاضبة توهجها المضطرد الذى يعمى عيونك وتحرق جلدك وتجفف حلقك . لقد أصبحت الآن تعانى من سيطرة فكرة واحدة عليك لا تستطيع منها فكاكا . فأنت لا تفعل شيئا سوى أن تحسب الساعات البطيئة التى يجب أن تدون انطباعك عنها ، قبل أن تحس بالراحة بعد تخلصك منها .

ظهرا : والريح ـ وقد عكستها التلال الملتهبة ـ تغدو كالهبات الحارة المنبعثة من أفران من الجير (الكلسى) . وتتلاشى كل الألوان وتختلط ، فالسماء ذات لون فاقد الحياة ، فقد اتخذت لونا أبيض كبياض الحليب ، والبحر كسطح المرآة يعكس لون السماء الباهت فلا تكاد تتبين خط الأفق . وبعد الظهر تنام الرياح على الساحل الذى أصابه بخر الماء بالوخم ، فتحس بخمول عميق ، فالصوت الوحيد الذى تسمعه خفقات الشراع الكئيبة . ولا ينام الركاب كثيرا ، وانما يسترخون فاقدين نصف احساسهم فهم يشعرون أنهم قد يلقون حتوفهم اذا زادت الحرارة عن ذلك بدرجات قليلة .

وقت الغروب : ويغوص العدو(١) خلف البحر اللازوردى العميق ،تحت ظلة من قوس قزح هائل يغطى نصف وجه السماء . وثمة قوس برتقالى تعتريه صفرة مسمرة أقرب ما يكون الى الأفق يكمن فوقه قوس آخر ذهبى باهت ، وفوقها نصف دائرة زرقة واهنة تعتريها خضرة ، امتزجت بما لا حصر له من ألوان على نحو متدرج ، كل ذلك فى سماء زرقاء لازوردية مستها خضرة رقيقة . وتلقى الشمس بأشعتها لتنفذ فى قوس قزح على شكل عجلة عملاقة عليها مسحة من لون أحمر قرنفلى جميل . والسماء من جهة الشرق قد اعترتها حمرة أرجوانية متوردة تحاكى أشكال الصحارى الغامضة والتلال واضحة المعالم . ان اللغة تبدو بليدة باردة، وبائسة عاجزة فهى لا تسعف فى التعبير عن هذه السيمفونية وتلك العظمة التى تتجلى فى هذه الساعة سريعة الزوال مع أن فرط الشوق لها والتدله فيها يجعل المرء يتمنى بقاءها دوما . وهبط الليل سريعا فظهر فجأة الضوء البروجى (٢) فأعاد المنظر الى ما كان عليه . ومرة أخرى تصبح التلال

---

(١) يقصد الشمس ـ (المترجم) .

(٢) الضوء البروجى Zodiacal Light وهو يظهر فى السماء جهة الغرب بعد غروب الشمس أو جهة الشرق قبل شروقها ـ (المترجم) .

الرمادية والصخور الكالحة ، وردية أو ذهبية ، وتصبح النخيل خضرا ، وتصبح الرمال زعفرانية (برتقالية) ويلبس البحر رداء ليليلكيا lilac (نسبة الى زهرة الليلك العطرة ذات اللون الأرجوانى الفاتح) من أمواج متغايرة (يغمز بعضها بعضا) ٠٠ لكن بعد حوالى ربع الساعة عاد الخمول ليلف كل شيء فترى الجروف (جمع جرف) عارية شاحبـة فى ضوء القمر الذى يغمر هذه البرارى المقفرة بصخورها وقممها ـ فيبدو المنظر غريبا مفعما بالغموض ٠

الليل : الأفق مظلم تماما ، ويعكس البحر محيا شمس الليل كما لو كان مرآة من الصلب المصقول ٠ ونرى فى الجو ، أعمدة عملاقة من أنوار شاحبة تتخذ من الأمواج نيلية اللون قاعدة لها ، بينما تضيع تيجانها فى الفضاء اللانهائى ٠ وتتلألأ النجوم متألقة تألقا لا يحده حد ، ففى هـذه الساعة :

« يكون النهر والتل والغابة — « river & hill & wood

مع ما لا حصر له من أشكال الحياة — « with at the numberless going on

فى حالة هدوء هامس كأنها حلم — of life « inaudible as dreams

بينما تطل عليك النجوم بوجوه أصدقاء باسمة ، فتشعر « بالتأثير الحلو لبنات أطلس السبع اللائى حولن الى نجوم » (٣) فتجد نفسـك مشدودا لرباط الجوزاء « bond of Orion » والزهرة (نجمة المساء) تصغى الى الجوزاء بأناة وتبثها آلاف الأشـياء (المعانى) ٠ وبتأمل الجوزاء والزهرة تمضى ساعاتك سريعة هينة حتى يأتى الندى الكثيف محذرا اياك لتغطى وجهك ، وتستغرق فى النوم ٠ وبنظرة واحدة لنجمة صغيرة بعينها ناحية الشمال يقع تحتها كل ما يجعل الحياة جديرة بأن تحياها المخلوقات ـ فمن المؤكد أنه خوف لا عقلانى (خرافى) يمكن تجاوزه اذا نمت وعيناك موجهة صوب القبلة (الكعبة) ـ لقد سقطت فى السهو ! (وقعت فى خطأ غير مقصود !) ٠

ان هذه الساعات الثلاثين والست ، كانت عقابا (أو محنـة) حتى بالنسبة للبدو ذوى الرءوس العنيدة ، فقد سقط السورى وصديقاه مرضى٠ وكان لدى عمر أفندى ـ وهذا حقيقى ـ الشجاعة الكافية لأداء صـلاة المغرب وان كان الانهاك قد بلغ به كل مبـلغ فبدا رجلا آخر غير الـذى

---

(٣) أسطورة اغريقية ٠ "The Sweet influence of The Pleiades".

(المترجم) ٠

عرفنـاه · أما صـالح شـكارShakkar فراح يأكل التمر بنهم يائس حتى هدده الزحار (مرض الدوسنتاريا) وقد أعد سـعيد العملاق لنفسه سريرا نقالا يبلغ ثلاثة أقدام طولا ، وجعل فوقه بوصا مقوسا عليه عباءة فضفاضة من الجانب المثقل ، ولكن الصرير العالى المنبعث من عشه برهن على أن احتياطاته لم تكن كافية · وحتى الولد محمد نسى أن يثرثر ، كما نسى سلاطة لسانه ، ونسى أن يدخن ، ونسى بشكل عام أن يجعل من نفسه شخصا لا يطاق · وقد بدا الطفل التركى وكأنه يحتضر ، فلم تـكن لديه الطـاقة الكافية للبكاء ، كيف استطاعت الأم اليائسة أن تواجه محنتها برباطة جأش ! لقد كان هذا موضع عجب من الجميع · وكان أكثر ما يدعو للراحة هو تضامن رفاقى معها وعطفهم عليها واهتمامهم بأطفالها · فكلما سحب واحد من الجماعة قليلا من طعام شهى ، كقليل من تمر أو رمانة ــ جعلوا للأطفال نصيبا منه ، كما كان كل واحد من الجماعة يأخذ دوره فى تمريض الطفل · لقد كان هذا رقة حقيقية غير زائفة ــ انه طيبة فى القلب · وقد يكون من المفيد لأولئك الذين يتهمون الشرقيين بانعـدام الكيـاسة ، أن يقارنوا هذه السمة من سمات الشخصية بالمناظر الوحشية للحضارة التى نجدها بين قاطنى البر فى القاهرة والسـويس · وليس فى وسـع أى أجنبى يكون حاضرا هذه المشاهد ، دون أن يحمل انطباعا أبديا بأن أهل الجزر البريطانية ليسوا الا برابرة محدثين · وكان صالح شـكار هـو الوحيد على ظهر السفينة (السلك الذهبى) الذى يعد استثناء من القاعدة العامة المتمثلة فى كرم رفاقى ولطفهم ·

فحالما تبدأ الشمس فى الاتجاه صوب الغرب مسقطة اذاها على رؤوسنا ، فاننا نقوم ــ ومازلنا منهكين ، مصابين بالدوار ، عطاشا نطلب الماء ، فلم تكن لدينا القوة ــ قبل ذلك ــ لنتمكن من الشرب · أو التدخين ، وتناول القهوة وما شابههما من الترف· ومطبخنا البدائى عبارة عنصندوق خشبى مربع محفوف بالطين ، ومملوء بالرمال ، وقد وضعت فوقه ثلاث أثافى ضخـام أو أربعـة ، لتـكون مصطلحـا (موقـدا أو كانونا) · فالاستعدادات تجرى الآن لاعداد وجبة العشاء بأبسط صورها · فقليل من الأرز ، وقليل من التمر أو بصلة ستحفظ للانسان حياته فى وضعنا هذا ، فوجبة عشاء واحدة جيدة قد تبرر البقاء دون طعام حتى مساء اليوم التـــالى ·

وأكثر من هذا ، فمن المستحيل فى مثل هذه الحالات أن يكون لديك شهية ــ وذلك من حسن الحظ ، فمخزوننا من التموين ضئيل · ويعتبر العرب أن من المفضل تناول وجبة ساخنة مرة كل أربع وعشرين ساعة خلال الرحلة ، لذا فقد قررنا أن نطبخ رغم كل الصعاب · وعلى أية حال فان

عملية الطبخ كانت مرضية تماما فقد تحلق حول النار عشرون شخصا اختيروا لذلك ، وكان من المتوقع أن يتعاركوا كل خمس دقائق ٠

وحالما برد النسيم بفعل الندى ، تبدأ وجوهنا الجافة المرهقـة فى التمتع بالهواء، فتستعيد أرواحنا بهجتها ، فيغنى الرفاق أغانيهم، ويحكون حكاياتهم ، ويتقاذفون بالدعابات الثقيلة ، فالحس الشرقى مرتبط بها على نحو موجع — وان كان هذا ليس دائما ٠ أو عندما نرى منظر عاصفة أو سكون ، فاننا ننسحب ونلجأ لنتابع بتقوى « حزب البحر Hizb al-Bahr » ومن المفترض أن هذا الحزب « أو الورد » يجلب الأمان للجميع على أمواج البحر أو المحيط ، ولن تعميني الأنانية فتجعلنى أضن بهذا « الحـزب » على القارىء الانجليزى ٠ ولكى يحظى المرء بكل بركاته ومزاياه ، لابد أن يتلقـاه على يد مرشده أو قائده الروحى ، وأن يتلوه فى فتـرة الصيام التى تستمر أربعين يوما والتى تعرف بالشيلة the Chillah ، ولا يقدر على هذا الصوم سوى أبناء الثيران (الأشخاص الأقوياء جدا) ، وهذه الملاحظة مجازفة منى ٠

« يا الله ، يا قوى ، يا قادر ، يا جبار ٠ أنت الهى ، ويكفينى معرفتى بك ٠ تباركت ربنا وتعاليت فانت تنصر من ينصرك وأنت الرحمن الرحيم ٠ ندعوك أن تهبنا الأمان فى ترحالنا وحلنـا ، وتوفقنـا فى كلامنـا وأعمالنـا (وغاياتنا) ، وتقينا شر الغواية والشك ، وتصلح سرائرنا ، زلل لنا هذا البحر ، كما زللته لموسى ، وكما زللت النار لابراهيم وألنت الحديد لداود ، وسخرت الريح والشياطين والجن والانس لسليمان ، وشققت القمر ، ويسرت البراق لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فزلل لنـا كل البحـار فى الأرض والسماء فى عوالمك المرئية والخفية — بحـر هذه الحياة ، وخضم الآخرة ٠ يا من تملك كل شىء ، واليه يعـود كل شىء ٠ خيـاس kyyas ٠٠ خياس ! ٠٠ خياس ! » وأخيرا ، انطرحنا على وسائدنا (مرابطنا) ، وتدثرنا بالحفة (جمع لحاف) غليظة محشوة قطنا ، ونسينا متاعب اليوم الماضى ، وتهيأنا لاستقبال اليوم الآتى ٠

وفى ساعة متأخرة من مساء الحادى عشر من يوليو مررنا على مرأى من مضيق العقبة الذى يعد اجتيازه مسألة مرعبة للبحارة فى هذه العروض ٠ فكما فى خليج كمبى Cambay (٤) ، نجد العواصف تتجمع

---

(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الخليج وعواصفه ، راجع رحلة فارتيما (الحاج يونس المصرى) ترجمة د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ ٠ الهيئة العامة للكتـاب — الالف كتاب الثانى — رقم ١٢٦ ٠

هنا دائما كما يقال ، حيث يرفع الناس أيديهم بالدعاء أثناء عبورها • ولم تهب علينا عواصف هذا النهار من الخارج ، الا عاصفة واحدة كانت على وشك أن تقلب سفينتنا • ان طبيعة النظام الشرقي تقوم على أساس الخوف الذى يشكل اساسا للاحترام الشخصى (الاحترام الشخصى فى النظم الشرقية يقوم فى الأساس على الخوف) • وعلى هذا فغالبا ما يحدث أن تكسر أوامر الضابط المسئول (الموظف المسئول) اذا كان رجلا طيبا كبير السن ، وبذا يصبح امتيازه الوحيد هو أن يجلس بمعزل عمن هم أدنى منه رتبة •

وكان ريس سفينتنا من هذا النوع • فى المناسبة الحالية التى أفعمها بالسخط والغضب رفض المغاربة الابتعاد عن طريق مسئول توجيه دفة السفينة؛ لأن ذلك يحرمهم من القاء نظرة على الساحل طوال اليوم، وقد هدد المسئول أحد أفراد هذه الجماعة يخفه (شبشبه) • وقد احتاج تهدئة الأمر ، واستيعاب الحادث الى جهدنا جميعا بما فى ذلك استعراض نيابيتنا المرعبة • وبعد عبور العقبة لم نر شيئا خلا البحر والسماء ، لقد كانت وجوه الركاب جميعا ــ تقريبا ــ شاحبة عند غروب الشمس فى الثانى عشر من شهر يوليو عندما انحدرت سفينتنا فجأة فى مياه ضحلة •

فقد كان مرسى دمغة Damghah أو دميغة Damghah ــ وهو الأكثر صحة ــ لا يرى من البحر الا بصعوبة• فثمة جزيرة (جزيرة صغيرة جدا) من الحجر الجيرى تعوق الدخول ولا تسمح بالوصول الى المرسى الا من خلال ممر ضيق • ولم يكتشف البحار امتداد هذا الخليج الصغير ولا عمقه الا بعد الدخول فيه • وكان هذا الخليج يمتد بشكل منبعج فى البر ، ويتيح مسافة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ قدما لتكون مرسى جيدة واضحة لا تسمح بوصول الأمواج الطويلة اليه • ويبدو من الداخل أقرب ما يكون الى البحيرة ، وفى الليل يبدو لونه أزرق رائعا كبحيرة جنيف ذاتها • وبعد العشاء ، لم أستطع أن أتذكر هذه الأبيات الشعرية التى درسناها فى المدرسة :

« Est in Secesscu longo locus ; insula portum, Efficit objectu laterum, quibus Omnis ab alto

Frangitur, inqure sinus scihdit sese unda reducts ».

لم يكن ينقصنا شيء سوى « atrum nnemus » (١) ٠ وعلى اية حال ، فأين سنجد مثل هذه الرفاهية فى شبه جزيرة العرب القاحلة ؟

فالريس ــ كالعادة ــ حاول أن يحول بيننا وبين النزول للبر بأن قص علينا قصصا خيالية عن البدو و ٠٠٠ « Bedoynes & Ascopards » مشبها اياهم بأنهم

« folke ryghte felonouse and foule and of Cursed kynde ».

وقد أجبنا على تهديداته هذه بأن حملنا نبابيتنا فوق أكتافنا وتزاحمنا فى مركب صغيرة ذات مجاديف وعلى الساحل رأينا عددا قليلا المخلوقات البائسة من جهينة Juhaynah أو هتيم Hutaym وقد جلسوا على «كوام من أخشاب جافة يبيعونها للمسافرين ، كما وجدنا حجاجا سوريين سبقونا فى قوارب ثلاثة ٠ لقد كنا نغار منهم ــ وكان ذلك غالبا بسبب قواربهم السريعة الرشيقة الصغيرة ، ذوات الأشرعة المزدوجة على شكل أذنى الأرنب البرى التى تبدو على البعد ــ عندما يحل المساء ــ كطيور النورس البيضاء سابحة فوق موج أرجوانى ٠ كما برروا غيرتنا منهم لوصولهم الى ينبع Yambu قبلنا بيومين ٠ لقد عسكر الحجاج على الساحل وانشغلوا فى احتساء قهوة ما بعد العشاء ٠ وقد قابلونا مؤدين كل حقوق الضيافة ، فجلسنا ساعة معهم ، وأكلنا قليلا من الفاكهة وروينا ظمأنا ، ودخنا من شيشهم pipes ، ودعونا لهم بالبركة عند مغادرتنا اياهم ٠ ولما عدنا لسفينتنا أكلنا ولم نضع وقتنا فى النوم ٠

لقد شهد فجر اليوم التالى أشرعتنا تخفق خفقا كسولا ٠ ودخلنا « الوجه Wijh » فى فترة ما قبل الظهر ، ولم يخل الأمر من صعوبات ولا تبعد (الوجه) عن دميغة Dumayghah الا بأميال قليلة ٠ «والوجه» مرسى طبيعية أيضا ، ولا تختلف عن المرسى التى قضينا الليل فيها سوى انها أصغر منها وأكثر ضحالة وأقل أمنا ، والطريق آمن من الوجه الى القاهرة ٠ والوجه مجموعة من الأكواخ المستديرة المشيدة بشكل بائس من أحجار مستديرة ــ تجمعت فوق صخرة مرتفعة فى الجانب الشمالى من خليجها الصغير ٠ وتبعد حوالى ستة أميال عن القلعة الداخلية التى تحمل الاسم نفسه (قلعة الوجه) والتى تستقبل القافلة المصرية ، والتى تزدهر ــ أى القلعة ــ مثلها فى ذلك مثل الميناء (ميناء الوجه) بسبب بيع الماء والمؤن للحجاج ٠ فالسوق الصغيرة التى تعمر فى مثل هذه المناسبات زودتنا بلحوم الضأن والأرز والخبز ، وغير ذلك من الضروريات باسعار معقولة ٠ كما توجد بها أيضا مواد الرفاهية فقد باعنى عطار اونصة من الأفيون بسعر رخيص ٠

---

(١) لم أستطع فهم المعنى المقصود ــ (المترجم) ٠

ولقد رسونا فى (الوجه) بأن سحبنا بحبل ملفوف على بكرة دوارة ، ووجدنا مقهى كبيرة فى موقعمرتفع بالقرب من الساحل ، فجلسنا فيها . لكن الفرس الذين سبقونا اليها ، كانوا قد شغلوا الأماكن الظليلة خارجها وراحوا ينظفون أسنانهم بسكاكينهم ، فكنا مضطرين للمكوث داخل المقهى . لقد كانت بناء خشنا يخلو من اللمسات الفنية ، ولا يزيد عن كونه سقفا قائما على أعمدة من جذوع النخل لم يحسن تهذيبها ، فوق أرض متربة يحيط بها مصاطب غير مستوية من طوب لبن ، تشكل ديوان المقهى حيث الحصر والأبسطة التى ينام عليها الرواد . وتوجد فى الوسط مصطبة مربعة ضخمة تستخدم لأغراض مشابهة . ويظهر هنا وهناك شقوق فى طول الجدران وعرضها ، ويبدو أن هذه الشقوق الزائدة عن الحد قد تركت لتسمح لضوء النهار بالدخول من خلال هذه الفرج الواسعة . وفى أحد الأركان توجد عدة القهوجى على (نصبة) مرتفعة من الطين تضم حفرة لايقاد الفحم ، فوقها ثلاث دلات (جمع دلة) سيئة الطلاء ، لعمل القهوة . وقد صفت الشيش (جمع شيشة) بالقرب من (النصبة) وهى شيش غير نظيفة بالمرة وقد اعتراها البلى بفعل القدم وكثرة الاستخدام . وثمة مجموعة من القلل (جمع قلة) ملأى بالمياه الباردة العذبة قد وضعت (ثبتت) فى خروم (ثقوب) دائرية فى قطعة خشب ، ويبلغ سعر القلة فى الحجاز عادة خمس بارات . وكان ذاك هو أثاث المقهى ، فلم يكن هناك ما يبعث على الارتياح فى مثل هذا الجو من القحالة والعقم سوى جو الاستمتاع الرخيم واللذيذ للدخان (المتصاعد من الشيش) والبخار (المتصاعد من نصبة القهوجى) والذباب والبعوض الصغير بنسب متساوية تقريبا . لقد أسهبت فى وصفى للمقهى لأنها نموذج لأمثالها يقابلها المسافر من الاسكندرية الى عدن .

ان سعادتنا بهذا الفردوس ـ وهو كذلك فعلا بالنسبة لنا بعد المعاناة التى قضيناها فى سفينتنا (السلك الذهبى) ـ كادت تنتهى بسبب سعد العملاق ، فطبعه الحاد أدى به للدخول فى معركة مع صاحب المقهى الذى كان بشع المنظر أحول العين ، غبيا ، عريض الكتفين لم يبد اطلاقا أية رغبة فى الالتقاء مع خصمه سعيد العملاق فى منتصف الطريق . وبعد أن تقاذفا بالشتائم ، أطبق كل منهما على رقبة الآخر بقسوة ليعطيا فرصة للآخرين الذين لديهم الوقت والشجاعة للتدخل ، الا أن الأصدقاء والمعارف عندما أمسكوا بالمتصارعين بشدة لم يستطيعوا تحريك قبضة أحدهما أو ذراعه ، بل لقد أدى ذلك الى زيادة حنق المتصارعين كما هى العادة ـ حتى لقد وصل لدرجة مرعبة يصعب على العين احتماله . لقد ضجت القرية الصغيرة بالعراك واندفع المخادع القوى بسيفه أو نبوته

(هراوته) فى يده ، وخلال المعركة التى حمى وطيسها ، انطلقت رصاصة من المسدس الذى كان عمر أفندى يحمله فى يده ، ومر المقذوف بالمقرب القريب من صفائح تحوى بنا مخاويا (٥) اسود داكنا ، مما لفت انتباه كل الدراويش ، فهدأت المعركة ...ما كان ذلك بفعل عصا سحريه · وأقسم أحد اصدقاء سعيد العملاق أنه لم يكن عبدا أسود وانما جنـــدى فى المدينة المنورة ، وأنه ليس نادلا (جرسونا أو خادما) ، وانما فارس همام · وقد جعل هذا القول سعيد العملاق ينظر من عل باعتباره رجلا مهما ، ...س على كرم محتده باصراره على أن يتناول من كان عدوه الطعـــام معه ، ولما تردد غريمه بوقار ، سحبه الآخرون لتناول الغداء وسط صخب عال ·

لقد خضع اسمى المستعار فى هذا اليوم لاختبار قاس · فبالاضافة للحجاج الفرس وهم مجموعة من الأشخاص ذوى الطباع الغريبة التى يصعب وصفها ، والذين قدموا فى السفينة ذاتها ، وكانوا متجمعين حول المقهى ، مستلقين يدخنون ويشربون الماء وينظفون أسنانهم ويسلكونهـا بخناجرهم ، كان ثمة رجل فضولى كان دائما الى جوارى · وكان يدعى انه من الباتان (الأفغان المستقرين فى الهنـد) وكان يســتطيع الحديث بخمس لغات او ست ، ويعرف عددا من الناس فى كل مكان وقد سافر فى منطقة وسط أسيا طولا وعرضـا · فهؤلاء الرفاق يعتبرون دائمـا مكتشفين للأسماء المستعارة أو للشخصيات الحقيقية للمسافرين (الرحالة) · لقد تجنبت الاجابة عن أسئلته عن موطنى ، وباعتبارى درويشا فقـــد طلبت منه ــ عندما أصر على معرفة موطنى ــ أن يخمن هو · فأعلن أننى أخ له من الباتان ــ وكان ذلك باعثا لسعادتى ، وأثناء الحوار ذكر أنه ابن لأخ تاجر أفغانى عجوز ونبيل كان لطيفا معى عندما كنت فى القاهرة · وبعد ذلك جلسنا ندخن معا بالفة ، ولأن العلاقة بيننا أصبحت شخصية ، فقد شكا لى أنه كسنى فقد تعرض لمعاملة سيئة من رفاقه الحجاج الفرس الشيعة (الهراطقة) الذين ضربوه · وكان من الطبيعى أن أعرض عليه أن أسلح جماعتى وأن نحمل نبابيتنا لأثأر لابن بلدى (بلدياتى) · فهـــذه الطريقة السليمانية الأكيدة التى عرضتها تجعله يتأكد أننى فعلا ابن بلده (بلدياته) · وعلى أية حال فقد تراجع وتذكر بحكمة أنه لن يكون مجبرا على صحبة جماعة الفرس أكثر من أسبوعين تقريبا · لكنه منى نفســه باشباع رغبته ، بأن يغرس خنجره الأفغانى المرعب (الشاراى) فى من اعتدى عليه بمجرد وصوله الى مكة (المكرمة) ·

وفى الساعة الثامنة صباح الرابع عشر من شهر يوليو غادرنا مرسى (الوجه) بعد أن قضينا الليل فى راحة نسبية فى المقهى · وأخذنا

---

(٥) من المخا باليمن ــ (المترجم) ·

معنا المؤن الضرورية رغم أن الريس وعدنا بالرسو عند جبل حسـانى Hassani فى هذا المساء ، الا أن أحدا لم يصدقه . لقد أبحرنا بين سلاسل صخرية تحت الماء ورمال ذهبية وأعشاب مائية خضراء ، وفى بعض المواضع كنا نبحر خلال خطوط صفر لما بدا لى على البعد بحرا بعد عاصفة . وطوال النهار كان البحار يجلس أعلى الدقل (الصارى) ينظر للمـاء الذى غدا شفافا كالزجاج الأزرق ، ويعلن عن الاتجـاه الصحيح بصوت عال . الا أن هذا الاحتياط كان غير مجد على نحو ما بسبب الأصوات العالية للحجاج وكأنها زئير والتى كانت تشوش عـلى نداءات التحذير ، الا أننا كنا نرفع العلم كل نصف ساعة . ولم تجنح سفينتنا أو ترتطم بالصخر . وفى منتصف النهار تقريبا مررنا بمقام الشيخ حسن المرابط . وهو مبنى عليه القبة المألوفة ، ومطلى باللون الأبيض ، ويحيط به أكواخ يقيم بها حراس المقـام ، ويقع المقام (القبر) على جـزيرة منخفضة مسطحة تتكون من صخور صفراء وقد ذكرنى هذا المنظر بمناظر شبيهة رأيتها فى بلاد السند . لقد لفت موقعه الموحش انتباه المسافرين العابرين . ولهذا الشيخ المرابط دعاء خاص يقرؤه المسافرون بالاضافة الى الفاتحة على روحه ، ويتبع الخطاه الذين هم على قيد الحياة طريقته فى التعبد المبنية على الاحياء الدينى (أو التعبد غير التقليدى المعتمد على السـمو الروحى — religious refreshment

ولما قرب ميعاد غروب الشمس وهبت النسائم منعشة رسونا نحن والحجاج الايرانيون عند صخرة تعد احدى الشعاب المرجانية المشهورة فى البحر الأحمر ، ويؤكد هذا المنظر صـدق الوصف الرائع الذى قدمه فورسكال (forskal) ، باعتباره هذه الصخرة احدى فلتـات الطبيعـة الرائعة . Luxus lususque naturae . لقد كانت هذه الصخرة رصيفا هائلا لا يرتفع الا قليلا فوق مستوى العمق ، وكان جانب الماء عموديا كجدران القلعة ، وبينما السفينة الشراعية تطفو على بعد ياردة منه تجد كل موجة تتحطم فوق هذا الحيد البحرى (الصخرة أو الشعب) ، تعيد ملء الأحواض الصغيرة والتجاويف الموجودة على السطح . وكان لون الأمواج بالقرب منه بنفسجيا أو ارجوانيا مفعما بالحيوية . وعلى البعد ، ترتاح عين الرائى فوق ما يبدو مروجا لزهور رائعة تماثل زهور البرية ، وان كانت تبدو أكثر اشراقا وأعمق فتنة وبهاء . وما كانت هذه الأرض البحرية معزولة تماما ، فالنوارس (جمع نورس) وطيور الخرشنة تسبح هنا وتحط على الشعاب المرجانية وتلتهم فرائسها . وفى الجو ، نجد أسراب الطيور تتنافر محدثة صخبا هائلا ، فى اصطياد الجراد ، وتطارد فى المياه العميقة أفواج الأسماك التى راحت تسرع برعب هائل للهروب

من هذه المطاردة مما أدى الى حجب سطح البحر بالرذاذ والزبد · وكلما اقترب الليل ، تغير المنظر رويدا رويدا ، وبدت للعيان فنون أخرى من الجمال · فقد ارتدت خلفية المنظر ثوبا من ظلال ، وعتمة موحية ، مطلقة العنان للخيال · وفى الجانب الأمامى لهذه الصورة يقبع البحر متلألئا ببريق معدنى تحت ضوء القمر ، بينما حواف الصورة تتمثل فى مويجات (تصغير أمواج) تتحطم على الشعاب (الحيود) كانت تلمع بفعل ما يسميه العرب جواهر الأعماق — وهى ومضات لامعة من ضوء فوسفورى يقدم لنا فكرة عن البهاء والسناء ، قد يعجز الفن عن تقليدها · فهذه الصورة تشكل — فى وقت واحد — قطعة من أرض الجن ، ومسرحا للحوريات وآلهة البحر تلهو جميعا عليها ، فقد تكون قد سمعت — دون دهشة — عن بروتيس القديم Proteus يدعو قطعانه (أسرابه) الى محارته المجدولة ، وأفروديت جالسة فى قوقعتها (خدرها) فى أوج فتنتها وجمالها · الا أن :

« لكل بياض خلفية سوداء

ولكل حلو حموضته » (٦) ·

كما دلت على ذلك الملاحظة الفلسفية التى أبداها السير كولين Cauline ، فهذه الشعاب المرجانية الرائعة كادت تكون مسرحا لحادثة بشعة · فالنسائم الباردة الآتية من البحر تدفعنا دفعا رفيقا — لكن بشكل مستمر — صوب الشعب المرجانية (الحيود البحرية) وهى حقيقة سرعان ما أصبحنا على وعى بها · ولم يكن لدينا حبل يبلغ طوله طولا كافيا للوصول الى القاع ، وعبثا حاولنا الحصول على مزيد من الحبال · والحق أن سفينتنا (السلك الذهبى) كان يعوزها بشكل مخجل كل وسائل الأمان كأية سفينة تجارية انجليزية فى القرن التاسع عشر · فالظروف التى تؤدى الى ارتطام السفن ، وفقدان الحياة بشكل مرعب ، تحدث بشكل دائم فى موسم الحج فى هذه البحار · فاذا حدث أن ارتطمت السفينة بحواف الشعب المرجانية التى تشبه شفرة حادة ، فانها سرعان ما تختفى فى البحر ، وكأنها ذابت كقطعة الحلوى فى الماء ، لأن المد كان مرتفعا فى ذلك الوقت · وبدأنا نحدث جلبة وضوضاء بقدر استطاعتنا ، ما دمنا لا نملك فعل شىء أفضل من ذلك · ولحسن حظنا ، فان الريس طلب

---

(٦) المعنى يمثله الشاعر العربى :

لكل شىء اذا ما تم نقصان فلا يغرن بطيب العيش انسان — (المترجم) ·

قاربا يملكه فارسى ، فاذا بربانه عربى من جده ، كنا قد تعاملنـا معـه أكثر من مرة بأريحية كبيرة ، وقد استنتج سبب الخطر الذى نعانى منه ، فأرسل اثنين من بحارته بحبل من فوق جانب مركبه الى البحـر ، فسـبحا بمهـارة الينا ، وفى غضون دقائق قليلة كنا قد ربطنا سفينتنا بأمان فى مؤخرة سفينة جارنا المفيد • وقد وطنا أنفسنا للقيام بعمل معبر عن الشكر والامتنان يتمثل فى ضرب ريسنا (ريس سفينتنا) وقد كان يستحق ذلك عن جدارة • وقبل الظهر عندما تغيرت الرياح لم يسبب لنفسه الازعاج برفع العلم ولما خمدت الرياح ، فضل انتهـاز فرصـة ما تبقى من ريح مواتية • وبشق الأنفس ، استطعنا أن نرسو بسفينتنا براحة عند جانب جزيرة حسـانى Hassani ، بدلا من أن نبحر فى بحر غير هادىء بالقرب من شاطىء تهب الرياح فى اتجاهه ، وهو — أى الشاطىء — زاخر — بالشعاب المرجانية على بعد ياردات قليلة من مؤخرة سفينتنا •

وبدأنا الابحار فى فجر اليوم التالى (الموافق ١٥ يوليو) • واجتزنا جبل حسانى عند الظهر تقريبا ، وقبل غروب الشمس بساعة أو نحوها انزلقنا الى مرسى مهـار Mahar • وكانت مرسانا هذه شبيهة بمـرسى الدميغة Dumayghah غير البعيدة عنها • وكانت جوانب هـذه المرسى (الخليج الصـغير) — على أية حال ، أشد تحدرا من جوانب مـرسى الدميغة • وتتخذ الصخور الجيرية مظهرا مميزا فى هذا المكان ، ففى بعض الأجزاء نجد القاعدة والجدران قد تفتت مخلفة تجويفا يشبه الخلة ، وفى مواضع أخرى نجد الرياح والأمطار قد تسببت فى حفـر عميقـة ، واخترقت المواد الهشة فصنعت كهوفا كبارا تبدو وكأنها عمل فنى • وكان ثمة فتحة كبيرة فى مكان قصى من قاع المرسى (الخليج الصغير) • والنخيل التى أحاطت بها زرقة السماء ، تشكل على البعد منظـرا يبعث على البهجة والمسرة ، فطالما تاقت أعيننا لرؤية بعض من الخضرة • وشرع الريس — كالعادة — يبث الرعب فينـا بوصفه قبيلة هتيم Hutaym التى تقطن هذه الأنحاء ، مع أننى أعلم من قـراءة ولسـتد Welsted وموريسبى Moresby أنها قبيلة قليلة القيمة ، الا أن بقاءنا متشنجين طوال ثمان وأربعين ساعة على ظهر السفينة قد يجعـل المرء لا يتوقع — الا قليلا — خطرا أعظم مما كان فيه •

وقد جرحت الصخور أقدامنا ونحن نخوض الى الساحل ، وأتذكر أنى شعرت بألم مبرح من جراء شىء غرس فى أصبع قدمى ، لكن بعد النظر فى موضع الألم استخرجت ما بدا قطعة من الشوك • وبعد أن تسلقنا الجانب الصخرى بهذا الخليج الصغير (المرسى) من جهة البر ،

وجدنا بعض البدو نصف العـراة يتمـددون فى الظل · وكانوا غير مسلحين · وليس من شىء أقوله عنهم سوى أن محياهم ينم عن هدوء ذليل لا يخيف الا أكثر الناس جبنا · ولازال هؤلاء الناس يعيشون فى كهوف حجرية كمـا كانت تعيش قبيلة ثمود وفقا لما تقـوله المرويات · وهم من أكلة الأسماك فليس لديهم ما يتعيشون منه سوى ما يجود به البحر عليهم ، فلم يكونوا قادرين على أن يقدموا لنا البلح الطـازج أو اللحوم أو الحليب ، لكنهم باعوا لنا نوعا من الأسماك يسمى فى الهنـد « بـوى Bui » مشويا على الجمر وكان مذاقه جيدا ·

وبعد أن أكلنا وشربنا ودخنا ، بدأنا نمرح · وكان العجم (الفرس) الذين – بسبب خوفهم من القدوم للساحل – قد بقوا مع منقولاتهم ، وبدوا أضحوكة (مجالا للسخرية) لبعض الظرفـاء من مجموعتنا ، فوقف أحدنا وراح يؤذن ، وبعد ذلك راح الباقون يرتلون ترتيلات جدلية (يفندون فيها أقوال الشيعة) ويعددون مناقب أبى بكر وعمر وعثمان (رضى الله عنهم) · وبعدئذ – وكما يحدث عموما فى مثل هذه المناسبات – تحول الأمر الى خلاف شخصى ، اذ قـال صبيـة مشردون من مـكة (المكرمة) لهؤلاء العجم بما يشبه الغناء انهم – أى العجـم – بمثـابة أحذية (شباشب) لعلى (رضى الله عنـه) وأنهم مجرد كلاب لعمر (رضى الله عنه) · وعقد الرعب ألسنة العجم فلم يردوا ، فجمـع رفاقى (٧) أدوات الطبخ الخاصة بهم وعادوا الى السفينة (السلك الذهبى) منكسرى الخاطر ، كالمرشح الذى فقد أمله فى الفوز (٨) ·

وكان يومنا التالى صامتا مخيفا ، ذلك لأننا كنا جميعا مكفهرين وقلوبنا متوجسة خوفا من ركوب السفينة مرة أخرى · لقد كان يجب أن نصل الى ينبع فى المساء ، اذ تخلى (ريسنا) عن كسله · ولأننـا ضربناه كما ينبغى أن يكون الضرب فقد رسا بنا فى ساحل مفتوح لا تحميه الحيود البحرية بشكل كاف – وغالبا على مرأى من الجهة التى نقصدها · فعلى مسافة يشمخ أمامنا جبل رضوى Radhawah or Radhwo وهو أحد

---

(٧) يقصد المعجم – (المترجم) ·

(٨) النص :

"Like disappointed condidates for the honours of Donnybrok".

واكتفينا بما ورد بالمتن لادائه بغرض توضيح المعنى – (المترجم) ·

جبال الفردوس · وهو جبل مشهور فى الشعر العربى ، كما أنه مشهور بجماله

وهو — أى جبل رضوى — يمد المدينة (المنورة) بأحجار السن (احجار صلبة تشحذ عليها السكاكين والشفرات) · وقد سمعت كثيرا عن وديانه وفاكهته وعيونه الفوارة ، لكننى بعد ذلك علمت أن هذه مجرد حكايات ترتبط بالتراث الغيبى المرتبط به · وقد لاحظ أحد رفاقنا ملاحظة فظة ، بعد أن حملق فى مرتفعاته العارية الشاحبة ، بأن هذه الكومة الحجرية القبيحة تستحق ان تلفظها السماء ، ولابد ان حاجة رفيقى هذا للخبز الطازج ، هى التى خمرت لديه هذه الفكرة · لقد خضنا الى الساحل · وطهينا طعامنا هناك ، وقضينا الليل، وكان يعوزنا الماء القراح، بالاضافة الى أمور أخرى مما جعلنا مكفهرين متوترين كالدببة · لقد كان سعد العملاق — بالذات · مكفهرا متوترا اكثر من غيره ، فقد كانت عيناه تحملقان فى الأرض بثبات ، وكانت شفتاه متدليتين حتى انه يمكنك ان تسحب وجهه منهما ، وكان فمه مزخرفا بتجاعيد قبيحة (كان مشقق الشفتين) ، ولم يفتح فمه الا ليقذف منه سيلا من الكلمات القبيحة · لقد سلى نفسه هذا المساء بالزحف ببطء على أطرافه الأربعة فوق الولد محمد ، ووضع بعناية فائقة ركبته فوق الوجه النائم · واستيقظ الولد محمد محنقا غاضبا ، فأغرقنا جميعا فى الضحك ، اما الزنجى العابس — فبعد أن ذاق طعم نجاح مقلبه (دعابته الثقيلة أو نكايته) ، لف نفسه وهو نصف راخ — كالقنفذ وراح فى شخير مزعج طوال الليل ·

لقد نمنا فوق الرمال واستيقظنا قبل فجر اليوم السابع عشر من شهر يوليو ، وعقدنا العزم على اجبار الريس على الابحار فى الوقت المحدد هذا اليوم · وكان علينا أن ندور دورة شبه كاملة لتجنب منزلق من الأرض يفصل بيننا وبين مرفئنا بالاضافة الى أن الريح لم تكن مواتية ، ولكثرة الصخور والأماكن الضحلة ·

وفى حوالى الظهر من اليوم الثانى عشر من مغادرتنا للسويس ، خاضت بنا سفينتنا ببطء فى خليج ضيق يؤدى الى ميناء ينبع ، ثم ركبنا احد قوارب الساحل وانطلق بنا الى الميناء (ينبع) وشعرنا كأن الله أعطانا حياة جديدة عندما ودعنا الى الأبد سفينتنا الحقيرة (السلك الذهبى) ·

وكان يمكننى أن أتحاشى هذه المشاق والمعاناة بأن أستأجر مركبا من مراكب الساحل لنفسى فيكون لى (كابينة) ألوذ اليها فى الليل ، ومكان

ظليل أتقى به وهج الشمس ، وأكثر من هذا فانها ستختصر الوقت فتجعل الرحلة خمسة أيام بدلا من اثنى عشر يوما • لكننى ازوررت عن كل هــذه المزايا لرغبتى فى مشاهدة مناظر سفن الحج ، تلك المناظر التى طالما تحدث عنها الحجاج العائدون لديارهم ، بالاضافة الى أن الايجار كان يكلف مبلغا باهظا يتراوح بين أربعين وخمسين جنيها استرلينيا وما يستتبع ذلك من مصاريف اضافية • ففى هذه البلاد يتحتم عليك أن تستمر كما بدأت ، فمن غير الممكن أن تنفق بتقشف بعــد أن كنت تنفق بســخاء • لقد غادرنا الآن ارض مصر •

الفصل الثانى عشر

التوقف فى ينبع

تجارة البحر الاحمر ـ حاكم ينبع ـ وصف ينبع ـ عين البركة ـ عين على ـ السلاح ـ الثياب ـ الحازمى ـ وصف شيخ عربى ـ الحمايل ـ محمد شقلبها ـ الغناء فى ضوء القمر ·

لقد حاق الضرر بقدمى بسبب حرارة الشمس والرطوبة العالية وابتلالها تباعا بمياه البحر ، لدرجة أننى عندما وصلت الى ينبع لم اكن بمستطيع ـ الا بالكاد ـ أن أضعها على الأرض · الا أن واجب الرحالة هو أن يتجول ويرى ، ولذا فقد اتكأت على كتف عبدى · وشرعت ذات مرة فى رؤية ينبع بينما اتخذ الشيخ حامد وآخرون من رفاقنا سبيلهم الى الجمارك ·

وينبع البحر (ينبع تعنى ينبوعا أو نافورة) التى عرفها بروس Bruce فى رحلتها الحبشية بأنها قوية يمبيا البطلمية Iambia Village of Ptolemy ـ لها موقع ذو أهمية كبيرة ، وتشترك مع مواقع أخرى فى أنها بوابة للديار المقدسة · وتقع ينبع البحر عند ثلاثة أرباع المسافة من القاهرة الى مكة المكرمة بطريق القوافل · وفى ينبع ـ كما فى بدر ـ يترك الحجاج بضائعهم وحاجاتهم الثقيلة جدا التى يصعب نقلها فى عجلة فى مخازن يستأجرونها ، كما يتركون أيضا حاجياتهم الثمينة التى يصعب المخاطرة بنقلها معهم فى الفترات التى ينعدم فيها الأمن · ولكون ينبع ميناء المدينة (المنورة) ـ كجدة التى هى ميناء لمكة (المكرمة) ـ فان بها تجارة نقل معتبرة ، وتجارة استيراد كبيرة من موانى غرب البحر الأحمر ، تزود مدن الحجاز الرئيسية بالغلال والتمور والحناء · وهنا (فى ينبع) يفترض أن تبدأ هيمنة (سيادة) السلطان ،

وتنتهى سلطة باشا مصر · ولا يوجد جيش نظامى (١) على أية حال فى ينبع ، فالحاكم هو الشريف أو أحد الشيوخ العرب · وقد قابلته (الشيخ العربى أو الشريف فى السوق الكبيرة · وهو شاب وسيم خفيف الظل ذو لباس جميل وعمامة كشميرية ، ومسلح بسيف وخنجر ، ويتبعه عبدان زنجيان ذوا بذيتين ضخمتين ، ولهما نظرات نارية قاسية ويحمل كل واحد منهما نبوتا رهيبا ·

وينبع ذاتها ليست ملفتة للنظر · فهى مبنية على حافة سهل سفعته الشمس يمتد بين الجبال والبحر · وتواجه الطرف الشمالى لخليج ضيق ومتمعج (ملتو) · وتبدو ينبع من الميناء خطا طويلا من المبانى ظهر بياضها الشاحب مقارنة بلون السماء الفضى كالكوبالت ، وزرقة البحر الشديدة كلون النيلة ، وخلفها مسطح من الأرض ذو لون أسمر داكن أو بنى ، وجانب من هذا المسطح ذو لون أسمر مصفر مفعم بالحيوية ، أما خلفية الصورة فيمثلها جبل رضوى ذو المنظر الكئيب انه حقـا :

« قاحل عار قبيح خال من الجمال »

« Barren, and bare, unsightly, unadorned »

وخارج أسوار ينبع ، توجد قباب قليلة وقبور ، تلفت النظـر · أما داخل المدينة (ينبع) فالشوارع عريضة والمساكن متباعدة (٢) الا بالقرب من الميناء والأسواق حيث يزداد سعر الأرض · وقد شيدت المساكن بشكل بدائى من الحجر الجيرى والأحجار ذوات اللون المرجانى ، وأسوارها مليئة بالأحافير ومثقبة كفطيرة اللوز · ولهذه البيوت نوافذ ضخمة مرتفعة · لا تقل سقما عن نوافذ أحيـاء المسلمين فى القاهرة · وفى ينبـع شـارع السوق حيث يتخذ شكله المعتاد فهو عبارة عن شارع ضيق مسقوف بسعف النخيل ، وبضعة دكاكين قليلة على جانبى الطريق ، وهذه الدكاكين تمثـل جزءا من بيوت أصحابها · وقد وصفت فى الفصل الأخير مقاه شبيهة بما هو موجود هنا · فقد تحولت هذه المقاهى الى كتل من القذارة بفعل

---

(١) Nizam اى النظام والمقصود هنا جيش نظامى حيث كان مصطلح « نظام » فى هذا العصر يعنى الجيش النظامى ـ (المترجم) ·

يقول بيرتون : ان «النظام» كما يفهمه الأوربيون الآن يعنى جيش المشاه التركى · وفى الحجاز لا تتمركز الفرق النظامية فى المدن الصغيرة مثل ينبع · ففى هذه المدن الصغيرة يبدو الخيالة غير النظاميين كافين لحفظ أمن المسافرين · ويبدو أن شرطة ينبع تتكون من عبيد الشريف الأقوياء · وأيام على بك كانت ينبع تابعة لشريف مكة ·

(٢) استخدم بيرتون تعبير Unsociable distance وهو يعنى أن المسافات بين المساكن متباعدة مما يدل على قلة التواصل الاجتماعى ، او غلبة الروح البدوية ـ ـ (المترجم)

المسافرين المترددين عليها ، ومن المحال أن تجلس فى احداها دون أن يكون معك مروحة أو مذبة لتذب الذباب بعيدا عنك · وتواجه مصلحة (مركز) الجمارك موضع رسو السفن فى الميناء ، ويديرها مسئولون أتراك يضعون الطرابيش على رءوسهم يقضون نهارهم كاملا متكئين على الأرائك الى جوار النوافذ · وبالنسبة لنا نحن المسافرين فان مسئولى الجمارك الترك ، الآنف ذكرهم ، لم يبذلوا الا جهدا يسيرا اذ فرضوا على كل صندوق كبير ، ثلاثة قروش ، وا لم يعفوا أنفسهم من العبث فى محتوياته (٣) ·

وتفخر ينبع أيضا بحمامها ، وهو مجرد ظلة من سعف النخيل يستأجره تركى عجوز ، يتعيش هو ومساعده الألبانى الفظ من غسل الحجاج والمسافرين وتنظيفهم · أما بقية المبانى العامة فتتمثل فى بعض المساجد ذات المعمار البسيط مطلية باللون الأبيض ، ووكالة أو وكالتين لاستقبال التجار ، وقبر أحد الأولياء ·

ولينبع أن تتباهى على معظم مدن شمال الحجاز فى أمر واحد · اذ يمكن لأهل ينبع أن يقدموا ماء المطر العذب الفاخر الذى يجمعونه من بين التلال حيث يتجمع فى خزانات ويحملونه على ظهور الابل الى البلدة ، وتحظى مياه عين البركة وعين على (٤) بثناء الناس هنا ، ومياههما تكفيان كل أهل ينبع · أما مياه الآبار التى تعتريها الملوحة فتستخدم لأغراض أخرى غير الشرب ·

وبعض العجائز هنا ــ كما فى السويس · يقال انهم يفضلون الشرب من مياه الآبار المالحة بحكم تعودهم عليها ، حتى انه ليقال على سبيل الفكاهة انهم اذا ذهبوا للقاهرة ، لأضافوا لماء النيل ملحا ليجعلوه مستساغا ·

وسكان ينبع يفاجئون عيون المسافر القادم من مصر ، لأنهم يمثلون ظاهرة جديدة بالنسبة له بالتأكيد ، فهم أحد أكثر أجناس شمال الحجاز

---

(٣) هذه ــ فيما أعلم الضريبة الوحيدة التى يحصلها السلطان من سكان شمال الحجاز · ويقول الناس انها ضريبة مناسبة للمناطق كثيفة السكان ، وهو أمر متوقع من سكان المناطق البعيدين عن عاصمة الدولة (العثمانية) · ولما استولى الوهابيون (السلفيون) على ينبع فرضوا ضرائب كالتى فرضوها على غيرها (يقصد جمع الزكوات) لذا فقد كرههم أهل ينبع · (بيرتون) ·

(٤) رغم استخدام كلمة « عين » هنا Ayn al-Birkat Ayn Ali الا أن المعنى كما هو واضح من السياق أنها أماكن أو مواضع أو خزانات لتجميع مياه الأمطار ــ (المترجم) ·

تعصبا ورغبة فى المشاكسة والعراك . فالشيخ (الوجيه) منهم مسلح تسليحا زائدا عن الحد ، وملتحف بثياب كثيرة وفقا للعادات المتبعة ، أما شيخ العرب (طاغية الصحراء) فيملى أوامره على أى شخص تابع له . والمسافر المتمدين من المدينة (المنورة) يغرز فى حزام وسطه مسدسا معمرا مزينا بشريط قرمزى وان كان يخفى الطرف الغليظ لمسدسه تحت عباءته (أو معطفه) . والجندى غير النظامى يسير مختالا فى الشارع وهو مدجج بالسلاح . فنظرة واحدة لهيئة الرجل تنبئك من هو . وهنا وهناك تجد البدو يمشون باختيال متجهمين ، على وجوههم سيماء التوجس كسائر أهل الصحراء ، تنطق هيأتهم بالفخر وادعاء العظمة والسفالة . وهم أيضا مدججون بالسلاح ، ولا يستطيعون الابقاء على سيوفهم فى أغمادها (جمع غمد) حتى فى حضور الشرطة المدججة بالنبابيت (٥) . وحتى المسالمون من أهل ينبع لا يخرج الواحد منهم من بيته الا وقد حمل نبوته على كتفه اليمنى . فالنبوت هو أثقل الأسلحة وأطولها وأسمكها ، وأهل ينبع متمرسون فى استخدام النبابيت باتقان . وقد أصبحوا خبراء فى تلقى ضربات الرأس العنيفة ، ، وهم يحسمون عراكهم العادى دائما بهذه النبابيت . ولا يختلف لباس نساء ينبع عن لباس نساء مصر الا قليلا اللهم الا فى الحجاب ، فحجاب الينبعيات أبيض بشكل عام . وثمة ملمح يميز رجال ينبع عن سواهم وهو ملمح غريب عن أهل الشرق ، فهم فخورون بأنفسهم دون تبجح أو ادعاء . ويبدون شجعان شرفاء دون غرور وفى مشيتهم شىء من الاختيال ربما يشبه الاعتزاز بالذات الذى يتحلى به المقاتلون ، دون عدوانية . وأكثر من هذا ، فسكان ينبع يبدون فى صحة جيدة ، ولأننى قادم من مصر لتوى لم أستطع أن أتبين عدم اصابتهم بأمراض العيون . وأطفال ينبع يبدون كذلك نشيطين .

وقد وجدنى رفاقى فى أحد المقاهى حيث كنت جالسا لاستجم مما ألم بى من ارهاق اثر تجوالى فى ينبع بقدمى الجريحة . لقد كان رفاقى قد مروا بصناديقهم على الجمارك وبعد ذلك راحوا يسألون عنى فى كل مكان، قائلين «أين الأفندى ؟» . وبعد الجلوس لمدة نصف الساعة نهضنا لنرحل ، عندما دخل تاجر عربى عجوز كنت قد قابلته فى السويس ، وأصر هذا التاجر بأدب على دفع ثمن قهوتى ، دلالة على اهتمامه بى ، وكانت هذه العادة تحمل الدلالة نفسها فى فرنسا فى الأيام الخوالى . لقد ذهبنا بعد ذلك للوكالة بالقرب من السوق حيث كان رفاقنا قد هيأوا

---

(٥) أشرنا للنبوت فى حاشية سابقة ـ (المترجم) .

لنا غرفة علوية منعشة الهواء لها شرفة فى مواجهة البحر وخالية ـ على نحو مقبول ـ من الذباب الذى يعد بمثابة طاعون فى ينبع . وكانت هذه الغرفة قد استأجرتها جماعة من المسافرين قدموا أنفسهم لى باعتبارهم اخوة عمر أفندى كانوا قد قابلوه صدفة فى الشارع قبل بداية رحلتهم لاسطنبول (القسطنطينية) بيوم واحد ، حيث كانوا يزمعون السفر اليها (اسطنبول) لاستلام الاكرامية Ikram . وكانت الأسرة كما سبق أن ذكرت ، من داغستان (جركسى أو شركسى Circassia) ولازال (٦) رجال هذه الأسرة يبدو فى ملامحهم بوضوح ما يدل على أصلهم الشمالى ، فجلودهم صفراء خفيفة ، وشفاههم حمراء ولحاهم هزيلة (خفيفة) . لقد كانت أكتافهم عريضة ، وأطرافهم ضخمة ، ويتميزون برزانة فظة وربما كان تعبيرهم هذا (الرزانة الفظة) نتيجة تشككهم فى ، لأننى لاحظتهم وهم يتفحصون ـ عن قرب ـ كل حركة من حركاتى أثناء الوضوء وأداء الصلوات . وكان ذلك فرصة طيبة لى ، لاظهار الالتزام الكامل بأداء هذه الفرائض كما يؤديها المؤمن صادق الايمان . وقد نجحت جهودى ـ كما أعتقد ـ فى أن يعاملونى كمجرد مسافر غريب لا يتوقعون منه شرا ، ولا يستحق اهتمامهم الا قليلا .

وبعد ظهيرة يوم وصولنا ، ارسلنا نطلب المخرج Mukharrij (وهو مؤجر الدواب) وبدأنا نهيىء الجمال . فعم جمل كان رجلا محترما من أهل المدينة (المنورة) جعل من نفسه متحدثا رسميا ، وبعد جدال طويل تمت الصفقة (بالنسبة لشيخ الجمال ومرافقه البدوى فقد كانا من نوع الرجال الذين يثيرون المتاعب من أجل مبلغ تافه ، لقد كانا على استعداد للحرب من أجل ربع بنس « فارزنج » ولم نكن أقل منهم حرصا) وقد وافقنا أن ندفع ثلاثة دولارات لقاء استئجار الدابة الواحدة ، على أن ندفع دولارا ونصف الدولار مقدما والنصف الآخر بعد الوصول الى هدفنا ، وعلى أن نبدأ السفر فى مساء اليوم التالى مع قافلة الغلال التى يحرسها حرس من خيالة غير نظاميين . لقد استأجرت دابتين ، دابة لمتاعى وخادمى وأخرى لأركبها ومعى الولد محمد ، واشترطت أن تكون الدابة التى أركبها أنا والولد محمد . أحسن الدواب ، وأنه اذا خرت الدابة فى الطريق أعطونى بديلا عنها . ولم يستطع أصدقائى اخفاء اضطرابهم ، عندما

---

(٦) لفظ عامى مازال مستخدما ـ وينطق بتشديد الراء وكسرها ـ (المترجم) .

أخبـــرهم المخـــــرج the Mukharrij أن قبيلة الحازمى Hazimi كانت خارج مضاربها وأنه ـ لذلك) يتحتم على المسافرين أن يحاربوا ، كـل يوم (دفاعا عن أنفسهم) واشترك الداغستانيـون Daghistanis أيضا فى تحذيرهم • فقد قالوا : « لقد قابلنا ما بين مائتى شرير وثلاثمائة فى منطقة Razzia بالقرب من المدينة (المنورة) ، وألقينا عليهم السلام فلم يردوا علينا رغم أننا جميعا كنا نركب الجمال ، وقد سألونا ان كنا من أهل المدينة (المنورة) فأجبناهم قائلين « نعم » وأخيرا فقد أرادوا أن يعرفوا الجهة التى نقصدها فقلنا لهم بير عباس « Bir Abbas » وقد كان البدو الذين صحبوا الداغستانيين ينتمون لبعض القبائل غير المرتبطة بقبيلة الحازمى • وأدار المتحدث باسمهم رأسه ، ولم يزد الا ان قال : « الله يحفظنا » • وثمة شاب هندى من المجموعة ـ كنت أشك بشدة أنه سـرق ذات ليـــلة مطـواتى (ســـكين الجيب) my pen-knife [1] قد أظهر جبنا بترديده الكلمة الهندوستانية « ميـان Miyan » وتعنى « سيدى » وذلك بالنظر مذعـــورا عندما تخيل المخـــاطرة المهلكة التى يوشك أن يخوضها • وقال لى الشيخ نور : « يجب أن ننتظر حتى ينتهى كل هذا » وقد أخبرته أن يصمت ، ونهرت الولد محمدا بشدة لطبيعته التى تجعل تصرفه سيئا عندما يجد نفسه فى بلاد أو مناطق جديدة بالنسبة له • لقد قلت « لماذا أنتم سباع فى القاهرة ، وقطط ودجاج فى ينبع » • وعلى أية حال لم يمض وقت طويل قبل أن تعود صفاقة الشاب ووقاحته عليه بمزيد من الضرر •

لقد جلسنا فى فترة ما بعد الظهيرة فى غرفة صغيرة تطل على الشرفة كان ما تعكسه علينا من حرارة بالاضافة للرياح الملتهبة التى تهب علينـا من المنـــاطق المقفـــرة المحيطـة بنـا تشـــكل أمرا مزعجا حتى بالنســـبة لرفاقى • وبعـد غروب الشـــمس تنـاولنا عشـــاءنا فى الهـــواء الطـــلق ، وكنـــا جماعة تبلغ العشرين من ســـادة وخـدم وأطفـــال وغرباء • وتم تجميع ما أتيح من وســـائد وحـواش فى دائرة لتشـــكيل مجلس (ديوان) وتحـلق الجميـــع حـول قدرا كبيرة مليئـة بالأرز المسلوق الذى يحوى قطعا كبيرة من لحم الضأن وقد غطى (الارز واللحم) بالزبد المقدوح • وكان سعد العملاق يبدو الأن فى قمة عظمته وأبهته • فليست هناك مناسبة أفضل من هذه تمده بالنوادر ، فلسانه يبدو متحركا بذرابة لا حد لها ، فهو يحيى كل الرجال بصخب مرح ويتدخل فى خصوصيات الآخرين • واستمر السمر بعد ذلك ، أثناء تدخين الشـيشة واحتساء القهوة حتى العاشرة مساء وهو وقت متأخر فى هذه الأنحاء ،

ثم صلينا العشاء (٧) ثم فرشنا الحصير فى الشرفة ونمنا فى الهواء الطلق ٠

وقضينا صدر نهار اليوم التالى فى شراء أشياء مختلفة وتزودنا بما يكفينا سبعة أيام تحسبا لرحلتنا المقبلة وأعدنا حزم أمتعتنا ، وصقلنا أسلحتنا ، وأعدنا حشوها ، وارتدينا ملابس تلائم الطريق الذى سنسلكه ، فقد لبست لباسا عربيا بنـاء على نصيحة عم جمل لأتجنب دفع الجـزية أو ضريبة الرأس التى تفرضها القبائل المستقرة على جانبى الطريق على المسافرين الغرباء ، وحذر عـم جمل من الحديث بأية لغة غير العربية حتى مع خادمى عندما نكون قريبين من احدى القرى ٠ وقد اشتريت شقدوفا a shughduf بـــدولارين لأحقـــق الراحــــة لنفسى ٠ والشــــــقدوف (أو الشجدوف) وسيلة مناسبة للنساء والأطفال وكبار السن والفرسان أو الرجال المتأنقين والأشخاص ذوى البنيـــة الرقيقـة التى تجعل ركوب الدواب أمرا شاقا بالنسبة لهم ٠ ويرجع سبب استئجارى شقدوفا الى أن تسجيل الملاحظات وأنا داخله أيسر من تسجيلها وأنا على ظهر الجمــل مباشرة بلا شقدوف ٠

لقد تناولت جماعتنا غداءها مبكرا فى ذلك اليوم ، بسبب ايقاف الجمال عند البوابة منذ الظهيرة ٠ وعانينا كالمعتاد فى تحميلها ، فأصحاب الجمال راحوا يصيحون ويصخبون بسبب الأحمال الزائدة عن الحد ، بينما يصيح أصحاب البضائع مقسمين أن طفلا صغيرا يمكنه تحمل مثل هذه الأحمال ، فى حين أن الجمال قد انحازت لرأى أصحابها فراحت تئن أنينا يبعث على الشـــفقة ، وراحت ترغى وتزبد ، باذلة محــاولات عنيفة لعض محمليها ، منتهزة الفرص بلماحيه وذكاء لاسـقاط نصـف حمولتها من صناديق وغرائر على الأرض ٠ وفى حوالى الساعــة الثالثة بعد الظهر كنا جميعا جاهزين ــ فالجمال صفت فى طابور ، كل جمـــل خلف الآخر ، ووقفت مستعدة فى الطرقات ٠ لكن كما هى العادة مع المسافرين الشرقيين فقد انتشر كل الرجال حول المدينة (ينبع) لذا فلم نستطع امتطاء دوابنا للرحيل الا فى وقت وتأخـر بعد الظهر ٠

ويتحتم على الآن أن أعطى لنفسى الحرية لأقدم للقارىء صورة شيخ عربى مجهز تماما للسفر ٠ فلا شىء يمكن أن يكون منظرا جديرا بالتصوير

---

(٧) ربما كان اسم تدليل ــ (المترجم) ٠

من لباسه ، فمما يؤسف له أن نرى هذا الزى يتغير فى المدن والمناطق الأكثر تحضرا · فرأس الشيخ العربى ذات الشعر الطويل أو الحليقة قد علتها طاقية بيضاء من قطن ، يعلوها (أى الطاقية) كوفية Kufiyah من حرير وقطن مختلطين ، لونها ــ عموما ــ أحمر باهت ، وحوافها صفراء صفرة خفيفة ، محاطة بفتائل حريرية مجدولة يتدلى منها شراريب (جمع شرابة) تصل الى خصر المقاتل · ويثبت الكوفية على الرأس عقال يعقد من الخلف ، والعقال عبارة عن ثلاثة حبال مجدولة من الصوف تعقد من الخلف ، وتتدلى الكوفية لتظلل على العينين ، وتعطى بهيئتها التى وصفتها آنفا منظرا مرعبا للابسها · وفى مناسبات معينة يغطى لابسها نصف وجهه السفلى جاعلا طرفها خلف رأسه · وفى هذه الحال يكون لابسها ملثما أى أنه جعل غترته (كوفيته) لثاما Lisam · ويقاتل المشايخ أو الزعماء عادة وهم ملثمون ، واللثام هو وسيلة التنكر المعتادة عندما يكون الرجل خائفا من أن يثأر منه أحد ، كما تتلثم المرأة عندما تشرع فى الأخذ بثأرها her sar (thar) ، كما يستخدم اللثام عندما يكون الجو حارا لاتقاء الحرارة أو عندما يكون الجو باردا لاتقاء نزلات البرد (الالتهاب فى القناة التنفسية) ·

أما لباس الجسم فهو ببساطة قميص قطنى بأكمام محكمة ، مفتوح من الأمام ، ومزين حول الخصر والرقبة (الياقة) وأسفل الصدر ، بتطريز مشبك ، ويغطى هذا الثوب البدن كله من الرقبة الى القدمين · ويلبس بعض العرب سراويل واسعة الا أن البدو يعتبرون ذلك نوعا من التخنث (٨) ·

بل ان البدو لا يلبسون حتى العباءات كما لا يلبسون الجوارب · وفوق القميص الآنف ذكره ، يلبس الشيخ العربى عباءة من شعر الجمل ، قصيرة أكمامها · والعباءات على أنواع مختلفة ، فمنها ما هو من حرير

---

(٨) اختلف الوضع بعد ظهور الحركة السلفية فى شبه الجزيرة العربية (حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب) اذ أصر السلفيون على تقصير الثوب باعتبار ان وصول الثوب الى القدمين (حرام) تبعا لظاهر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم (ما تحت الكعبين فى النار) ، لكنهم عادوا عندما آذى البرد أو الحر هذا الجزء غير المغطى بلبس سروال طويل تحت الثوب القصير لتغطية ما لم يغطه الثوب ، باعتبار ان الحديث الشريف وفقا لتفكيرهم نص على (الثوب) ولم ينص على (السروال) · وهكذا راحت تجارة السراويل الطويلة التى تصل الى الكعبين فى المناطق التى يسودها السلفيون الذين يأخذون بهذا النوع من التفكير · وحقيقة الامر أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما توعد من (جر ازاره كبرا) كان ينهى فى الأساس عن الكبر والبتر ــ (المترجم) ·

خالص ، ومنها ما هو من صوف خشن ، وبعض الناس يفضلها بنية اللون ، وآخرون يفضلونها بيضاء ، وطائفة أخرى تفضلها مخططة • وفى الحجاز يفضلونها بيضاء مطرزة بالذهب وبخيوط مختلفة الألوان أو صفراء على شكل مثلثين كبيرين تعلوهما أشرطة عريضة وأشكال أخرى تحت الكتفين وعلى جانبى الظهر • ويحدد داخل الكتفين (فوق الكتفين) والصدر بنسيج بديع من خليط من حرير وقطن ويربط من الأمام بخيوط قابلة للمط (أستك أو مغيط) وشراريب من حرير وذهب • ويلتف الحزام حول القميص عند منطقة الخصر حيث توضع الجنبية (الخنجر المعقوف) وأخيرا يأتى الخف (الصندل) لتتم ملامح الزى العربى • وأخيرا فان أسلحة الشيخ هى السيف ، وبندقية تعمل باشعال الفتيل معلقة خلف ظهره ، ويحمل فى يده اليمنى مزراقا (رمحا) قصيرا • أو عصا معقوفة قليلا ، يبلغ طولها قدمين ونصف القدم وتسمى « المصحاب » Mas'hab وتستخدم لحث الجمل على المسير •

أما العشائر العربية الفقيرة ، فيلف الواحد منها حول جلد خصره مباشرة قطعة طويلة من جلد خشن وذلك لتقوية الظهر ، ويطوقون القميص عند الخصر بحبل أو حزام خشن ، ويعلق حزام عريض توضع فيه طلقات الرصاص على الكتفين وقوارير البارود ، والفتائل الموضوعة فى قرون مجوفة (قرون الفتائل) وقطع من أحجار الصوان (تستخدم فى القدح أو اشعال الفتائل) وغير ذلك من الضروريات • ويعتبر الخصر بالنسبة للمسافر مجالا لاستخدامات شتى • فعلى جلد الخصر مباشرة يضع المسافر كيس النقود ويغطيه القميص الذى يطوق بشال يعلوه حزام جلدى • يجب أن يكون دائما حسن الزينة مزودا من الجانبين بمسدسين فضيين من المسدسات التى تعمل بقدح الصوان علىخنجر كبير وآخر صغير ، ومدك قضيب لتنظيف المسدس أو البندقية) من حديد له كلاب من الداخل ويثبت كيس جلدى صغير فى حزام الخصر على الجانب الأيمن ، ويحوى هذا الكيس خراطيش ومواد للحشو وقوارير لحفظ بارود الفتائل • أما السيف فيعلق على الكتف بحبال من حرير قرمزى وشراريب ضخمة • ويزين الرجال الذين يتأنقون فى ملبسهم مسدساتهم على هذا النحو آنف الذكر • وفى اليد ، ربما حمل بندقية قصيرة blunderbuss أو بندقية طويلة وحيدة الاسطوانة (ربما يقصد الماسورة) فتحتها (ثقبها) ضيقة • وكل هذه الأسلحة لابد أن تلمع كالفضة اذا رغبت أن تكون محترما ، فالعناية بالسلاح علامة من علامات الرجولة والفروسية فى هذه الأنحاء •

ويحمل الحجاج ، خاصة الأتراك منهم ما يسمى الحمايل Hamail لتقوم بأداء مهمة مقدسة ، والحمايل عبارة عن كيس لحفظ المصحف ، وهذا الكيس مصنوع من مخمل قرمزى مطرز بالذهب تطريزا جميلا وقد تكون الحمايل صندوقا مغربيا (مراكشيا) أحمر معلقا بخيوط حريرية حمراء فوق الكتف اليسرى • وان كان يجب أن يتدلى فى الجانب الأيمن ، كما يجب ألا يتدلى تحت حزام الخصر • وقد استعضت عن هذا الاستخدام للحمايل ، باستخدام آخر ذى فائدة جمة • فالحمايل - من الداخل مقسمة الى ثلاثة أقسام ، جعلت قسما منها لساعتى وبوصلتى ، والقسم الثانى للنقود التى أحتاج اليها سريعا ، والقسم الثالث لسكينتى وأقلامى وقصاصات من ورق كان فى امكانى أن أحتفظ بها مطوية فى يدى الا أن الاحتفاظ بأوراق الكتابة والرسم التى تشكل نسخة واضحة من اليوميات من الأمور التى لا تليق بالرحالة الحذر ، وعلى أية حال ينبغى على المسافر أن يحذر رسم المخططات وغيرها أمام البدو ، فمن المؤكد أنهم سيتخذون ازاءه اجراء متطرفا ، لأنهم سيشكون فى كونه جاسوسا أو ساحرا (٩) • فلا شىء أكثر اثارة وارباكا للبدو من العادة الأوربية المتمثلة فى تسجيل كل شىء على الورق ، اذ سرعان ما يشتغل خيالهم مما يجعل المرء يتوقع أسوأ الشرور منهم • والطريقة الآمنة الوحيدة للكتابة فى حضور البدو هى كتابة خريطة البروج لكشف الطالع أو كتابة الأحجبة ، كما أن البدوى لا يعترض على الكتابة اذا استطعت اثارة حماسته فيما يتعلق بالانسان كأن تبدأ معه قائلا : « وأنتم يا رجال حرب ، لأى عرق (أصل) يرجع فخركم ؟ » ، وبينما المستمعون منشغلين بفيض حديثه عن قبيلته ، يمكنك أن تكتب ما تشاء من ملاحظات فى هامش أوراقك • أما أهل المدن فأكثر تحررا ، فمنذ سنوات خلت قام الرسامون الشرقيون برسم الأضرحة المقدسة ، ومسحها ، بل وحتى طباعة رسومها على الحجر • والى الآن ، فانك ان أردت ألا تكون موضع ريبة ، فتجنب أن ترى وفى يدك قلم حبر أو قلم رصاص ، الا لماما •

وفى الساعة السادسة مساء ، وجدنا أثناء نزولنا من فوق درج الوكالة ، الجمال واقفة ومحملة فى الشارع ، وراحت تتبادل أماكنها فى ملل • وقد وضع الشجدوف (الشقدوف) الخاص بى فوق جمل مرتفع وقوى ، ومع هذا فقد كان الشقدوف يميل ويكاد يجثم فى كل حركة مما أعطانى انطباعا أنه سيقذف (أى الشجدوف) مع أول خطوة صوب كتفى الجمل أو صوب مؤخرته • وقد أخبرنى الجمال أنه يتعين على أن أتسلق رقبة الجمل ثم ازحف عليها الى الشقدوف ، ولكن قدمى لم تساعدنى على

---

(٩) لا يزال التحرز من الكتابة والتدوين شيئا مألوفا لدى البدو - (المترجم) •

ذلك لفرط الاجهاد فأصررت على أن يجثم الجمل ، ففعلوا مستائين • واستأذنت اخوة عمر أفندى وجماعتهم الذين أصروا على توقيرنا باصطحابنا الى البوابة • وهكذا بدأت الرحلة ، وكان هذا ايذانا بتفرق جماعتنا مرة أخرى فالذين سمعوا ما يفيد أن سفينة وصلت من السويس تحمل محمد شقلبهـا Shiklibha وأصـــدقاء آخرين ـ أسرعوا عائدين للمينـاء للتوديع • وصرح آخـرون بأنهم نسوا بعض الضروريات اللازمة للرحلة فجروا لقضاء آخر ساعة فى المقهى فى القيل والقال • ثم غربت الشمس وحان ميعاد صلاة المغرب • وتلاشى الشفق الأحمر فى غالبه قبل أن يمتطى الجمع الجميع دوابهم • وشققنا طريقنا فى طرقات طويلة ومتربة وضيقة يحيط بجوانبها مساكن متباعدة ومطلية بالطلاء الأبيض ، وأكوام هائلة من القمامة ، بعضها أعلى من المساكن ، بينما تتعالى الصيحات : « سر فى الوســـط يا هوه •• ! Ya hu وجنب يا جمال ـ أى سر الى الجنب يا جمال » • وأوقفونا عند البوابة للتأكد مما اذا كنا غرباء فاذا ثبت هذا فان الحارس سيبذل قصارى جهده للحصول على قروش قليلة قبل السماح لأمتعتنا بالمرور لكنه تيقن من رفاقى أنهم من أبناء الديار المقدسة ، فخاب أمله فى الحصول على القروش ، وأثناء وقوفنا هنا تبجح الشيخ حامد قائلا ان أسوار ينبع المنيعة وأبراجها تفوق أسوار جدة وأبراجها منعة وقوة فقد منعت (أسوار ينبع وأبراجها) سعودا السلفى (الوهابى) وجعلته فى وضع حرج سنة ١٨٠٢ ، وكان على أن أرد بأن هذه الأسوار والأبراج لم تصمد الا قليلا لبطارية الميدان سنة ١٨٥٣ • وتوسط القمر كبد السماء واضحا متلألئا وغمرنا بنوره بعد خروجنا من الشوارع المظلمة ، ولما دخلنا الصحراء هبت علينا نسائم عليلة ، لا تقارن رقتها بالجو الخانق داخل ينبع • وشرع رفاقى فى الغنـاء كما يفعل العرب فى مثل هــذه المناسبات •

الفصل الثالث عشر

من ينبع الى بير عباس

عبور بوابة ينبع ـ المصرى يعنى الفلاح ـ بيرتون يوقع بين الجنسيات المختلفة ـ الشبرية ـ الشبق ـ الخوف من اللصوص ـ الطعام ـ البدو لا يبيعون اللبن ـ بنو حرب يطلبون البقشيش ـ الحمرا ـ حرس القافلة ـ اللصوص يهاجمون القافلة ـ وادى الورد بلا ورد ـ اهل الحمرا يمنعون القافلة من الاناخة على الأرض المستوية ـ قلعة الحمرا ـ شريف مكة ومقاومة اللصوص ـ السياسة التركية اللينة لا تصلح مع البدو ـ خط كلخانة والإصلاحات التركية لا تغنى فى الحجاز ـ قبضة محمد على هى المجدية ـ سعد الجبلى ـ اللقاء بقافلة مكية ـ البدو يطلبون مالا ـ قرية الخيف ـ نبذة تاريخية عن هزيمة طوسون باشا على يد السلفيين ٠

وفى حوالى الساعة السابعة من مساء اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عبرنا بوابة ينبع ، واتخذنا اتجاها شرقيا مباشرا ٠ وكان طريقنا يمتد على سهل بين جبل رضوى عن شمائلنا والبحر عن أيامننا ٠ وكانت الأرض صحراوية تناثرت فوقها كتل الجرانيت وكتل الشست الخضراء ، كما تناثرت هنا وهناك أشجار أكاسيا متقزمة ، وبعض الأعشاب النامية التى تتناولها الجمال ، وكان فى امكانى أن أرى المنطقة على نحو مقبول فى ضوء القمر الرائع ، اذ كان فى تمامه تقريبا (يكاد يكون بدرا) ٠

لقد كانت قافلتنا تتكون من اثنى عشر بعيرا تسير فى صف واحد رأس كل جمل منها فى دبر الجمل الذى مأمامه (وقد ربط رأس الجمل فى ذيل الجمل الذى أمامه) ولم يخرج عن الصف الا واحد هو عمر أفندى ، اذ حتمت عليه رتبته (مكانته) أن يركب جملا عليه جل مزركش رائع ٠ وكان أمامى مباشرة فى صف الجمال عم جمل

الذى كـــان على أن أوبخـــه لســؤاله الولد محمـــدا Amm Jamal « أين تعرفت بذلك الهندى ؟ » أنكون نحن الأفغان هنودا ؟ أنكون هنودا ونحن ــ الأفغان ــ قاتلو الهنود ؟! • لقد صحت ناقما حانقا وضربت له مثلا من دياره لاستفزاز مشاعره بأن سألته : « أيحب العربى (البدوى) أن يوصف بأنه مصرى ــ فلاح ؟ » • وكان بقية أفراد القافلة اما جاوسا أو مستلقين بين اليقظة والنوم فوق منبسطات خشنة هيأوها من أغطية صندوقين كبيرين علقوها على جوانب ابلهم •

ولم يكن هناك من سمح لنفسه برفاهيـــة تكلف نصف دولار ، سوى امرأة عجوز هى السيدة مريم (الست مريم) التى كانت عائدة للمدينة المنورة ، وطنها المختار ، بعـــد زيارة اختها فى القـاهرة ، اذ اتخذت شـبرية Shibriyah أو سريرا خفيفـا (له ظلة غالبـــا) ثبت بالعرض فوق أحمـــال جمل • وأكثر من هذا ، فان كل أفـراد القافلة ــ باستثناء عمر أفندى ــ كانت عليهم علامات الفقـــر يرتدون أقذر الأسـمال وأخشـنها ، وقد كان اللباس الشـائع بينهم يتكون من قميص ممزق فى مواضـــع مختلفة ، وخرقة بالية ملفوفة حول الرأس • ويحملون شبقات Chibuks قصـــيرات (١) دون فوهات ، وأكيـــاس تبغ من جلد غير مدبوغ (زلق) • ومع أن المنطقـة فى هذه الأنحـــاء آمنة تماما ، الا أن الجمع الجميع قد جعلوا أسلحتهم على أهبة الاستعداد ، وساد صمت غير مالوف بعد توقف الغناء ــ فحتى ســعد العملاق قد قبض لسانه ــ وهذا يعطى اشارة كافيـــة تدل على مدى خوفهـــم على ممتلكاتهم • وبعد مسيرة يعتريها بطء مدة ساعتين ، كنا خلالهما نواجه القمر ، اتجهنا شيئا ما نحو الشمال الشرقى ، وبدأنا نمر فوق أرض متموجة تأخذ فى الارتفاع باستمرار على نحو ملحوظ • ووصلنا الى محطة التوقف (الاستراحة) فى الساعة الثالثة صباحا بعد مسيرة قصـيرة لا تزيد عن ستة عشر ميلا قطعناها فى ثمانى ساعات • وأنخنا الجمال وكومنا الصناديق حذرا من الذين يسرقون خلســـة ، ونصبت خيمتى الصغيرة وهى الخيمة الوحيدة فى القافلة ، وفرشنا بسطنا على الأرض واستلقينا لننام •

واستيقظنا حوالى الساعة التاسعة من صباح اليوم التاسع عشر من شهر يوليو ، وبعد أن تبادلنا التحية ، لأننا التقينا مرة أخـــرى فى

---

(١) الشبق : بيبة تدخين تركية يبلغ طولها ٤ او ٥ اقدام • وتكتب احيانا . Chibouk أو Chibouque عن معجم المورد ــ (المترجم) •

هذه « الصحراء العزيزة » ، شرعنا نعدل أمزجتنا باشعال النار اللازمه للتدخين والافطار ، وسرعان ما أنهينا تناول افطارنا المكون من البسكويت وقليل من الأرز وكوب من الشاى بدون حليب ، وبعد ذلك شرعت فى تبين موقعنا ، فعلى بعد حوالى ميل الى الغرب تقع قرية المسهل Musahhal الصغيرة وهى مجموعة من المساكن (الأكواخ) الطينية البائسة • والى الجنوب كان شريط من بحر أزرق بهيج ، وكل ما تراه العين ، سهل من حديد لاينبت شيئا خلا أحجار وجنادب (جراد صغير يعرف بالقبوط) ويحيط بالسهل من ناحية الشمال سور رهيب متجهم من حجارة سود ، وتتناثر هنا وهناك شجيرات ـ لاتصلح الا كوقود ـ أو بعض الأعشاب التى جعلتها الحرارة هشة (هشيما) ، فقد سفعتها الشمس • فالحرارة الملتهبة الساقطة من أعلى قد جففت نسغ (٢) النبات ، وما يتخلل الأرض من ماء ، كلما أصبح المناخ ملتهبا عاصفا ، وأكثر من هذا ، فان الندى الكثيف الذى يسقط بقطرات كبيرة على النباتات والأحجار فى هذه المنطقة يجمع أشعة الصباح الساقطة عليها ليقوم بدور العدسة الحارقة (المحرقة) • وبعد أن جمعت هذه الملاحظات القليلة حذوت حذو رفاقى وعدت للنوم •

وفى الساعة الثانية بعد الظهر نهضنا لتناول الغداء الذى كان بسيطا بساطة طعام الافطار ، فقد كانت القائمة لاتشتمل الا على الأرز المسلوق الذى سكبوا عليه كمية كبيرة من الزبد المقدوح الذى يحبه الشرقيون كثيرا ، وبعض الكعك ، وخبز قديم غير جيد المذاق وقبضة من العجوة • أما عن شرابنا ، فقد بدأنا قبل تناول الغداء نحتسى شرابا غير مستساغ وان كان مفيدا للصحة ، يسمونه **أقط** (*) ، وهو عبارة عن حليب حامض مجفف مذاب فى الماء ، وعند تناول الوجبة شربنا ماء له رائحة الجلد (القرب) ، وأنهينا وجبتنا بملء فنجان كبير من شاى ساخن • لقد استهلكنا كميات كبيرة من السوائل فقد بدا أن الشمس قد اخترقت حلوقنا ، وسال العرق منا فأغرقنا كما لو كنا تعرضنا لوابل من المطر • وبينما كنا نأكل مرت امرأة بدوية بجوار الخيمة وكانت تقود قطيعا من الخراف والماعز ، ورأت تعبيراتى التى تنم عن رغبتى فى أن أشرب حليبا • وأرسل رفاقى لها قطعة خبز عن طريق أحد الجمالة طالبين منها كوب لبن مقابلها • ولم أعرف الا الآن أن العرب

(*) الاقط بفتح الهمزة وسكون القاف ، أو كسرها •

(٢) السائل الذى يجرى فى أوعية النبات حاملا الماء والغذاء ـ (المترجم)

حتى فى هذه المنطقـــة الفاســـدة (التى تقبل الرشـــوة) Corrupt region (٣) لازالـــوا يتمســـكون بعـــادة أجـــدادهم الســـقيمة (التى لامعنى لها) التى ترى فى اللبان أو بائع اللبن كل معانى الخسة والوضاعة ، وربما كان أصل هذا الرأى المنطوى على الظلم والاجحاف ، هو الاعتراف بحق المســـافر فى الضـــيافة بأن يدعى لشرب الحليب مجانا (٤) • وعلى أية حـــال فان بيـــع اللبن أمر معيب حتى فى مكـــة المتحضرة (غير البدوية) ولا يستثنى من ذلك الا المصريون •

وبشكل عام فالحليب يكثر بالحجاز فى الربيع ، ويعز بقية العام ، وعلى أية حال ، فان المرأة البدوية قد أعادت لى الكوب مليئا باللبن •

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر كنا مستعدين للرحيل ، ورأينـــا جميعا ــ دون أن نعبر عن سعادتنا بالكلمات ــ سحابة ســـوداء مشبعة ترتفع من كتف جبل رضوى ، وتتحرك لتعيد تشكيل نفسها ، وكأنها روح حارسة تحمينا من عدونا المفزع ، وأعنى به الشمس • وأملنا أن تكون ممطرة ، الا أنه سرعان ما عصـــفت بالســـهل ريح ســـاخنة كأنها زفير البراكين وأصبح الهواء مشبعا بذرات الرمال ، انها عجاج شـــبه الجزيرة العربية dry storm (٥) وبدت لى هذه الرياح ، وكأنها تعتمد على ظاهرة كهربية (تدخل الكهرباء فى تحريكهـــا) ، وقد يكون أمرا مرغوبا اخضاع هذه الظاهرة للبحث والدراسة • وعندما حملنـــا جمالنا وركبنا ، أتى الى اثنان من الجمالة وأنا فى الشقدوف وطلبـــا البقشيش ، ويبدو الآن أنها عادة اعتادوا عليها كلما شرعت القافلة فى المسير • وقد اعترتنى الدهشة فى بداية الأمر فلم أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن هذا التصرف (طلب البقشيش) ، لكن بعد مكوثى فى المجتمع البدوى أياما قلائل تناقص عجبى • لقد كان هؤلاء الرجـــال (طالبو

---

(٣) العرب الآن ــ وحتى البدو ــ فيما أعلم أصبحوا يبيعون كل شىء بما فى ذلك الحليب ولا يجدون حرجا فى ذلك • وتأسست شركات يديرها بدو وغير بدو لبيع الحليب ومنتجات الألبان ــ (المترجم) •

(٤) يقصد بيرتون أن المصريين لا يجدون حرجا فى بيع اللبن ، لذلك فالبدو لا يحترمون فيهم هذه العادة والحقيقة أن اطلاق لفظ « المصريين » على عواهنه هكذا فيه تجاوز ، فالبدو المصريون لهم العادات نفسها التى اشار لها بيرتون ، وان كانت قد تعدلت بمرور الزمن ســـواء فى مصر أو غيرها (انظر الحاشية السابقة) وقد أورد بيرتون فى هذا السياق جملة فضلنا حذفها من المتن هى :

Except Egyptians, a people Supposed to be utterly without honour.

(٥) وتسمى فى الخليج العربى باسم (الطوز) ، وفى وسط الجزيرة العربيـــة (العجاج) وهى (كالخماسين) فى مصر ــ (المترجم) •

البقشيش) من بنى حرب احدى قبائل الحجـاز الكبيرة التى احتفظت بنقاء دمها خلال الثلاثة عشر قرنا الأخيرة ـ يالكثرة الأمور التى لا نعرفها ! فهذه القبيلة العريقة قد أفسدها التعامل مع الحجاج ، فلم يعودوا يحتفظون بشيء من تراث أجدادهم الا الجشع فى جمع الأموال ، والحقد ، وحب المشاكسة والاقتتال ، ونوع من الشجاعة الفائقة التى تتجلى فى مناسبات نادرة • وعلى أية حال فان نبلهم (شرف محتدهم) لا يمنعنى من ايراد حديث الرسول (صـلى الله عليـه وسلم) : « أسوأ أسماء العرب : بنو كلب ، وبنو حرب » (٦) • ورحت أوبخهم بشدة (رجال بنى حرب الذين طلبوا البقشيش)مشبها اياهم بفلاحى مصر ، لكنهم لم يمتعضوا بشدة من جراء ذلك لأن هذه العادة (طلب البقشيش) نابعة من قبيلتهم (شعبهم) ، الا أن الحاج التركى ـ وهى الشخصية التى ظنوا أننى أتقمصها رغم لباسى العربى ـ تعد شخصية مميزة • وكان الرجل الواقف بعيدا شيئا ما من أولاد حرب (بنى حرب) هؤلاء ، وضيعا ، فقد كان مخلوقا ضئيل الحجم ذا سحنة بنية كالشيكولاتة ، قزما ، نحيلا ، له خصلة شـعر كثيفة سفعتها الشمس فجعلتهـا بنية اللون ، له صوت صارخ ، وله شفاه أحسن الله خلقها ، لكنها رقيقة (نحيلة) • وكان رجلا حرب يضع الواحد منهما على رأسه (كوفية) ويرتدى قميصـا ممزقا مصبوغا بالنيلة ، عليه حزام عبـارة عن قطعة من حبل عادى • وكانا يحميان اخمصى قدميهما من الأحجار بنعلين من جلد سميك يخرج منهما سيور (جمع : سير) يلفانها حول كواحل أقدامهما • وكان كلا الرجلين مسـلحا أحدهما ببندقية فتيل ، وشـنتيان Shintiyan (٧) فى غمد جلدى معلق على كتفه ، أما الثانى فكان مسلحا بنبوت ، وكلا الرجلين كان يضع فى وسطه جنبية (خنجرا) ، فالجنبية رفيق العربى • وعلى أية حال فقد كانا معتزين بنفسيهما رغم لباسـهما الزرى • لقد كانا يأكلان معى ، ولم يكونا يأنفان من طلب المزيد ـ كما يفعل بعض السادة (أو الفرسان) الأسبان ـ لكنهما اذا حان وقت العمل ، لا يفعلان شيئا • فلا الوعد بدفع البقشيش سيحثهما على مساعدتى فى نصب خيمتى ،

---

(٦) ليس المقصود ذم هذه القبائل ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم حث على استخدام الاسماء الطيبة التى تدعو للتفاؤل والعبودية لله سبحانه كعبد الرحمن وعبد الله والحسن والحسين ••• الخ ـ (المترجم) •

(٧) اسم محلى لنوع من السيوف يبلغ ثمنه من سبعة جنيهات استرلينية الى ثمانية ، والانوع التى صنعت حديثا منه يبلغ سعرها حوالى عشرة جنيهات استرلينية ـ (ملخص تعليق بيرتون) •

لقد كانا يتوقعان أن يعد لهما حتى طعامهما (يطبخ لهما) • وكان على — فى معظم الأحوال — أن أستخدم الشدة ، فحتى عذرى المتجلى فى قدمى المعطوبة ، كان غير كاف لأن يدبروا أمر وضع الشقدوف الخاص بى على ظهر جملى وهو مناخ • ويقولون انها عادة قديمة منذ زمن سحيق فى هذه المنطقة أن يستخدموا السلم اذا كانت أقدام الراكب يلم بها الألم • ووافقتهم على قولهم ، لكننى ذكرت لهم أنه ليس لدى سلم • وأخيرا — وقد تعبت من عنادهم — نزعت (خطفت لجام الجمل وأجبرته — بالقوة نفسها — على الاناخة (أن يبرك) •

لقد كانت جماعة القافلة الآن على درجة كافية من القوة • لقد كان فى القافلة حوالى مائتى دابة تحمل الغلال التى جلبها أصحابها ذوو النظرة القاسية المريعة وكأنهم مهربون (٨) • وكان حرس القافلة يتكون من سبعة فرسان ترك غير نظاميين مزودين بمستودع أسلحة مصغر (المقصود أنهم يحملون مختلف الأسلحة) ، وكانوا هم بالذات محل سخرية جماعتنا الذين — لكونهم عربا — يكنون اعزازا خفيا للبدو ، وعلى أية حال ، فربما كان نفور جماعتنا لهؤلاء الفرسان الترك راجعا لوجودهم بين الصناديق (٩) •

لقد ظللنا مسافرين فى اتجاه الجنوب الشرقى طوال ثلاث ساعات فى سهل قاس ومسطح رملى ، وفى هذا السهل وجدت بعض المياه الهابطة من لمرتفعات طريقها الى البحر غربا عبر مجار حفرتها • وبالتدريج كنا نقترب نحو الجبال وعندما غربت الشمس لاحظت أننا قد اقتربنا منها بشكل ملحوظ • وترجلنا لاستراحة قصيرة ، ولوجود غرباء ، فان رفاقى أدوا صلاة المغرب دلالة التقوى قبل أن يجلسوا للتدخين ، تلك الصلاة التى لم يؤدوها طوال ثلاثة أيام بعد ذلك عندما التقوا ببعض معارفهم فى قرية **الحمرا** Al-Hamra' ، وعندما أوغل المساء (بعد المغرب) انطلقنا من لدن مجموعة أشجار أكاسيا Acacia (١٠) وطرفاء Tamarisk (١١)

---

(٨) النص : As the contrabandistas of the pyrenees.
(المترجم) •

(٩) النص : "to see them amongst the boxes".
وربما يقصد خوف جماعة القافلة من عبث هؤلاء الفرسان بالصناديق أو ممتلكات القافلة •• الخ — (المترجم) •

(١٠) أشجار السلم ، والمفرد سلمة ، ويطلق عليه فى مصر السنط • عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية — (المترجم) •

(١١) الاسم الشائع هو الاثل بفتح الألف وتسكين الثاء • ومنه أنواع عديدة راجع معجم الشهابى آنف الذكر — (المترجم) •

واتخذنا سبيلنا فى الاتجاه الشرقى مباشرة وعبرنا منطقة مكشوفة ونحن نسير صعدا (ترتفع بنا الأرض تدريجيـا) بشكل ملحوظ ، وبعد أن أظلمت الدنيا بالكاد انطلقت صرخة مدوية من مؤخرة القافلة ، « حرامى » فتسبب ذلك فى احداث فوضى ، كتلك الفوضى التى يمكن أن تحدث فى قارب بخليج نابلى Naples عندالاقتراب فجأة من دوامة ماء (اعصار مائى) فكل الجمالة لوحوا بهراواتهم الغليظة ، وانطلقوا راجعين صوب اللصوص وهم يصيحون مهددين متوعدين • وتبعهم الفرسان (الخيالة) • والحقيقة أنه كان لدى اللصوص من الحدة والشدة والمكر وغيرهـا من الصفات التى يتصف بها من يتخذ من اللصوصية مهنة • فربما يكونون قد ساقوا جمال جناح قافلتنا بعيدا بأمان واطمئنان • لكن هؤلاء التافهين الجديرين بالازدراء كانوا سـتة أشخاص فقط ، وقد أطلقوا قذيفة أو قذيفتين من بنادقهم ذوات الفتائل فى اتجاههم • ومن ثم فقد ولوا الادبار • وأثارت هذه الحادثة دهشة غير قليلة فقد بدت نذيرا بأمور أكثر سوءا على وشك أن نواجهها ، عندما وقعنا فى شرك بين التلال ، أما وجوه رفاقى التى أصبحت بمثابة بارومترات دقيقة تقيس الخير وأنباء السوء ، فقد هبطت الى درجة الصفر • فلمدة تسع ساعات ظللنا نشق طريقنا فى ضوء القمر المتألق ، وحالما ظهر خط رمادى فى أفق السماء الشرقى ، حتى دخلنا مسيلا Misyal (١٢) ضيقا مكســـوا بالحصى والأحجار المكورة ، يبلغ عرضه (أى المسيل) زهاء نصف ميل وتحيط به تلال متعامدة تقريبا ذات تكوينات بدائية • وقد بدأت بالسؤال عن أسماء القمم وغيرها من المعالم البارزة ، الا أننى وجدت مجلدا من الورق ذى القطع الكبير لن يتحمل تسجيل ملاحظات يسـتغرق جمعها ثلاثة أشهر ، فكل تل ، وكل واد عريض ، وكل منبسط من الأرض ، وكل مجرى مائى له اسم خاص به أو أكثر ، فى هذه الأنحاء • والبراعة التى يبديها البدو فى التمييز بين المواضع المتشابهة شبها شديدا ، ترجع الى سمو مداركهم أو ملكاتهم الطبيعية التى صقلتها الممارسة بملاحظة التكرار (أو التشابه) فى ملامح صفحة الأرض ، تلك الملامح التى لاتختلف فيما بينها الا قليلا • وبعد أن سرنا ساعتين فى قاع هذا المسيل (السيل) فى اتجاه الشرق ، وعبـور بعض الحرات Harrah (الحيـود الصـــخرية) والعقبـات (المنحدرات الحادة) Ria وأراض صخرية مســـتوية وقطع من ســهيل Sahil ، وجدنا أنفسنا فى حوالى الساعة الثانية صباحا بعد مسيرة حوالى أربعة وثلاثين ميلا عند بيرسعيد ، وهو المحطة التى نبغى الوصول اليها •

---

(١٢) مجرى مائيا جافا ــ (المترجم)

لقد كان هناك من جعلني أتوقع أن أرى عند البئر منظرا ريفيا أو رعويا ، ووردا بريا ومياها منســـابة ، لذا فقد نظرت مشمئزا لحفرة عميقة مليئة بالمياه الخفيفة التى تعتريها ملوحة ، ومحفورة فى تجويف يشبه الوعاء المثقوب ولها جدران جرانيتية ، وعند سطحه الكالح نمت شجيرات شوك لابد أنها ذات شجاعة فائقة لتحديها الشمس الحـــارقة • ولم أر مسكنا على مدى رؤيتى • لقد كانت منطقة البئر قاحلة ومنعزلة فالشمس تبدو هنا فى ذروة مجدها • وعلى أية حال فهذا ما يجب أن يتوقعه الرحالة فى شبه الجزيرة العربية فعليه أن يقاوم ــ على سبيل المثال الفكرة التى تنشق فى عقله عن وادى الورد • انه سيطلق العنان لخياله فى تصور مجموعة من البحيرات الهندية الجميلة التى تحفها أزهار اللوتس ، والسهول الفارسية الملأى بالأزهار التى يعد النرجس أقلها جمالا • ان الواقع سيرده لحقيقة الأمر اذ يرى سهلا فيه هضاب مدورة معزولة من جرانيت وبين كل خمسين باردة وأخرى يرى برعما بائســا سيىء الطالع يموت لوجوده بين الصخور حيث لا حياة • لقد أحرقت الشمس أقدامنا ونحن ننصب الخيمة ، وبعد تناول الافطار أمضينا يوما عاديا فى مسح العرق ، والنعاس • وعندما يكون المرء مرهقا من الطبيعى أن يأمل فى التغيير حتى لو كان تغييرا لما هو أسوأ • وعندما بدأ عدونا يميل نحو الغرب (يقصد الشمس) شعرنا بأن لدينا الاستعداد الكافى للاستمرار فى رحلتنا ، فبعد الساعة لثالثة من اليوم العشرين من شهر يوليو حملنا الجمال بسرعة وبدأنا ــ وقلل (جرار) الماء فى أيدينا ــ الرحلة خلال عواصف السموم (١٣) •

لقد سافرنا طوال خمس ساعات فى اتجاه الشمال الشرقى عبر واد مائل (١٤) يمثل منطقة متفردة فى انعزالها ــ كتل من تلال ضخام ، وسهول جرداء ، وأودية صحراوية • فحتى أشـــجار السنط شديدة التحمل قد سقطت هنا ، وفى بعض المواضع لم يجد الشوك الذى تأكله الجمال تربة كافية ليمد جذوره فيها • وكان الطريق الذى نسلكه متعرجا بين الجبال والصخور وتلال الجرانيت ، وفوق أرض متكسرة تحيطها كتل ضخمة وجلاميد (١٥) مكومة وكأنما تدخل فن بشرى فساعد الطبيعة على تشويه ذاتها • وتبدو صدوع (شقوق) واسعة وكأنها ندب (جمع ندبة) على وجه الأرض تعطى سطحها منظرا بشعا وقد اتسعت هذه الشقوق هنا لتصبح كهوفا مظلمة ، وهناك كانت مسدودة برمال تتلألأ ، جرفتها

---

(١٣) فى الأصل : Samun وهو خطأ مطبعى غالبا ــ (المترجم) •

(١٤) diagonal

(١٥) جمع جلمود ، والجلمود هو الحجر المكور ــ (المترجم) •

(الرياح أو السيول) ، ولا يرى المرء هنا منظر طير أو حيوان ، ولا يسمع لهما صوتا ، فوجودهما يدل على قرب الماء · ورغم أن رفاقي يعتقدون أن البدو كانوا يختبئون بين الصخور ، الا أنني قررت أن هؤلاء البدو الذين يتصورون وجودهم ما هم الا مخلوقات خلقها الرعب الكامن في قلوبهم (قلوب رفاقه) ، واذا نظرنا الى الأعلى ، وجدنا سماء كأنما هي قطعة صلب مصقولة ومدهونة باللون الأزرق ، ذات وهج أصفر مبهر من شدة الضياء ، يسطع علينا دون أدنى حائل من غلالة سحاب · واذا نظرنا الى أسفل منا وجدنا دائرة بلون النحاس تشوى وجوهنا وتعمى أبصارنا لفرط توهجها ، وتقدم لنا سرابا من ماء بينما هو هواء · وكانت المناظر البعيدة أكثر تشويقا من المناظر القريبة لأنها تقتبس لونا لازورديا خفيفا من الغلاف الجوي الا أن القمم المثلمة وخطوط الظلال العمودية تحت جوانب الخلفيات الجبلية ــ كل ذلك يجعلنا لا نتوقع جوا أفضل ·

وبين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة ليــلا ، وصلنــا الى مجموعة مســاكن ، وهو ما لم نره منذ غادرنا قرية المســهل Al-Musahhal وكانت هــذه المســاكن تتخذ شــكل قرية تنتشر مبانيــها بغير نظام ، واسمها الحمرا Al-Hamra نظرا لحمرة الرمال القريبة منهــا ، كما تسمى الوسيطة Al-Wasitah (١٦) · لأنها في منتصف المسافة من ينبع الى المدينة (المنورة) · وعلى هذا فقد عين بوركهارت موضعها على خريطته تعيينا خاطئا بشكل ملحوظ · كما أن الذين نقلوا عنه جعلوها أكثر قربا من البحر مما هي عليه بالفعل · لقد جلنا قرابة الساعة بحثا عن مكان نعسكر فيه ، لأن أهل هذه القرية كانوا غلاظا فشوشــوا علينا طالبين منا عدم الاقامة في أية قطعة أرض مستوية ، دون أن يتكرموا بدلنا عن موضع ننيخ فيه دوابنا المرهقة · وأخيرا وجدنا بقعة مناسبة ، بعد مشاحنات كثيرة · فأنزلنا أحمال الابل ونشرنا الصناديق وبقية الأمتعة على شكل دائرة لمزيد من الأمان اتقاء لشر اللصوص الذين يغص بهم هذا الجزء من الطريق ، وافترش رفاقي سجاجيدهم وناموا فوق أمتعتهم ذات القيمة ، وحذوت حذوهم ، لكن الازعاج أصابني ــ بكل ما في كلمة الازعاج من معنى ــ بسبب قربي من غطيطهم وشخيرهم ، فابتعدت عنهم · واعترت الدهشة بعضهم بسبب عناد هذا الحاج الأفغاني وطيشــه (١٧) ، لكن مقاومة هؤلاء الناس (رفاقه) أحيانا تكون من الأمور المطلوبة ، كما أن رجلا من كابول (١٨) له أن يقول ما يشاء ، وأن يأتي بأمور غريبة ·

---

(١٦) تنطق عادة (الواسطة) ، وقد سمعت ذلك من بعض الحجازيين ــ (المترجم) ·
(١٧) يقصد نفسه ــ (المترجم) ·
(١٨) يقصد نفسه ــ (المترجم) ·

وكرد على تحذيراتهم من مخاطر الليل ، وضعت سيفى المعقوف بجانبى وحشوت مسدسى ووضعته تحت وسادتى ، أعنى خرج جملى ، وبسطت السـجادة فوق الرمال البـاردة المتحركة لأجعل منها سريرا غير مريح بلا شك ، ومع هذا فقد تمتعت بنوم عميق حتى طلع النهار ٠

لقد استيقظت فجر اليوم الواحد والعشرين من شهر يوليو ، وبدأت بزيارة القرية التى بنيت فوق رف صخرى ضيق عند قمة تل شـديد الانحدار ، صوب الشمال ، أما الى الجنوب فيجرى من قمة التل مسيل رملى يبلغ عرضه نصف الميل ٠ وفى كل الجوانب توجد الصخور والجبال الحجرية الصلدة ، ولذا فأنت تجد نفسك ازاء تجويفات محفورة يعتبرها العرب مواقع مختارة لاقامة المستقرات ٠ والمسيل فى هذا الجوار متعرج جـدا ، ويشـق الأرض المرتفعة هابطا من هضبة المدينـة (المنـورة) Plateau of Al-Madinah وأثنـاء الموسـم المطير يصـبح هذا المسـيل سيلا عارما ويحمل من صوب الغرب الى البحر الأحمر صرف مياه مئات التلال ٠ ويمكن الحصول على مياه جيدة فى هذا المسيل ، بالحفر بضعة أقدام تحت السطح عند الزوايا حيث يشكل ماء السيل أعمق الفجوات ، وفى بعض الأحيان تؤدى الجوانب الصخرية لهذه الفجوات الى احداث ينابيع لها بقبقة (صوت الماء) ٠

والحمراء نفسها مجموعة من المنازل الصغيرة المنعزلة ــ وان كان الأقرب للصحة أنهـا مجموعة من العرائش المسقوفة ، وهى مشيدة من الطوب اللبن والطين ، ومسقوفة بجريد النخل ، وبها طاقات (جمع طاقة) لادخال الهواء ، لبعضها ميزة وجـود قطعة من الخشب تغلق وتفتح ٠ وتبدو الحمراء كثيفة السكان فى المناطق التى توجد بها أسوار ، لكنها ــ كسائر القرى والمستقرات ــ فى الحجاز تسودها الخرائب ٠ وتزود الحمراء تزويدا جيدا بالمؤن وهى أرخص منها فى المدينة (المنورة) وهذا مما دفع سعد العملاق أن يحمل جمله البائس تحميلا زائدا بأجولة القمح ٠ وفى الحمراء دكاكين قليلة يمكن للمرء أن يشترى منها الغلال ، ونبات لســان الحمل (١٩) أو موز الهند بحجمه الكبير ، والخبز ، والأرز ، والسمن ، وغير ذلك مما هو صالح للأكل ٠ وتمد بساتين النخيل الواسعة القرية بالتمور ٠ والسوق هنا ــ كما هو الحال فى مثل هذه الأماكن فى قرى شرق شبه الجزيرة العربية ــ عبارة عن طريق طويل مغطى بالحصير هنا ، ومكشوف للشمس هناك ، والشوارع الضيقة (ان جاز لنا تسميتها

---

(١٩) عن معجم الشهابى للعلوم الزراعية : Plantain لسان الحمل أو آذان الجدى نبات من الفصيلة الحملية ، كما تعنى موز الهند ، ولا ندرى أيهما المقصود ــ (المترجم) ٠

شوارع) مليئة بالتراب ، ومعرضة لوهج الشمس • وبالقرب من مكان عسكرة (تخييم) القافلة توجد قلعة للقائد العسكرى الذى يرأس فرقة من الخيالة الألبان الذين يقع على عاتقهم الدفاع عن القرية وضبط النظام فى المنطقة وحراسة التجار المسافرين • ويتكون المبنى من سور خارجى من حجارة منحوتة به كوات (جمع كوة) لاطلاق البنادق قديمة الطراز (المسكيت) ، ويتم الصعود اليه بشراريف Shara (rempartes Coquets) وفائدته لصد المدفعية كفائدة ممر السكر حول كعكة عيد الغطاس twelfth-Cake (٢٠) • ولا شيء يمكن أن يكون أسهل من مهاجمة المكان فالهجوم الكاذب (فى مناورة تدريبية) قد يلفت نظر المدافعين الذين لا يعرفون فى هذه العروض (المناطق) شيئا عن أصول الحراسة ، بينما قد يتيح استخدام المرقاة (سلم لتسلق أسوار المدن المحصنة) أو حقيبة مملوءة بالبارود ـ مدخلا جاهزا فى الجانب الآخر • وحول قلعة (الحمرا) توجد مجموعة من العرائش من جريد النخل يستجم فيها العسكر ويدخنون ، وبالقرب منها مقهى معتادة وهى ظلة يحتفظ بها الألبان • وهذه العرائش ، وهذه المقهى يرتادهما العسكر بشكل متتابع نظرا لحرارة الجو داخل القلعة •

لقد أمضينا يوما لا راحة فيه فى قرية الحمرا • وكان الرعاة يرعون قطعانا كبيرة من الخراف والماعز ، داخلين القرية ، وخارجين منها ، الا أن هؤلاء الرعاة كانوا غلاظ الأكباد فلم يعطونا لبنا ولا حتى مقابل الخبز واللحم • وأمضينا النهار فى ملاحظة البدو الذين يحملون البنادق ذوات الفتائل وهم يتسلقون التلال اثر مجموعات الكركى (الكراكى) Cranes ، ولم يسقط طائر واحد ، رغم الطلقات الكثيرة التى أطلقت عليه ـ وهو ما يتناقض مع القول المعاد عن براعتهم فى الرماية • وقبل الافطار اشتريت خروفا متوسط الحجم بدولار • وحلله (ذبحه وفقا للشريعة الاسلامية) الشيخ حامد ، وسرعان ما أعد رفاقى افطارا من لحم ضأن مسلوق ، الا أن هذا الخروف كان سببا للنزاع ، فالولد محمد باع رأسه لأحد البدو بثلاثة قروش ، فهاج الآخرون لضياع نصيبهم فى هذه الصفقة (٢١) وانهالوا بزعامة سعد العملاق ذى اللسان الذرب الوقح بسيل من السخرية والتهكم على هذا التاجر التافه (تاجر الكروش) (٢٢)

---

(٢٠) السخرية واضحة ـ (المترجم) •

(٢١) استخدم بيرتون كلمة Haggis وهو طعام اسكتلندى من قلب الخروف وكبده ـ أى ضياع نصيبهم من (الوجبة) أو من الاكلة • كقولنا فاته الثريد أو (الفتة) أو ضاعت منه الشوربة (الحساء) •• وهكذا ـ (المترجم) •

الذى استثاره تهكمهم فغدا هو الآخر هائجا غاضبا • ووجدت بعض الصعوبة فى احلال السلام بينهم فلم يكن من مصلحتى أن يتعاركوا • الا أنه لتطبيق العدالة وفقا لعادات العرب ، فلا أيسر على من يعرفهم من العزف على مشاعرهم الطيبة فقولك لهم « انه غريب فى بلادكم •• انه ضيف » عبارة تفعل مفعول التعويذة ، فاستمعوا بصبر لشتائم محمد الفاحشة ، ووعدوا بألا يردوا عليه الا فى بلده التى يقال انها بالقرب من مكة (المكرمة) • غير أن ما عكر علينا يومنا على نحو خاص ، هو ما قيل من أن سعدا شيخ المنسر (رئيس اللصوص الكبير) وأخاه كانا فى حالة نشاط ، وعلى هذا فان مسيرتنا ستتأخر لبعض الوقت • وكان بعض القيل والقال يأتينا كل نصف ساعة من المخيم أو المقهى ، فيضيف وقودا الى نار صبرنا النافد •

ان القليل من التفاصيل عن ظاهرة شيوخ المنسر (٢٣) ، (أو شيوخ اللصوص) فى الحجاز قد يكون مقبولا • انه زعيم (شيخ) صميدة Sumaydah والمحاميد Mahamid ، وكلاهما فرعان قويان من بطن حميدة Hamidah الفرع الرئيسى من قبيلة حرب البدوية • لذا فقد كان يطمع فى حكم (مشيخة) بطن حميدة كلها ومن خلالهم يحكم بنى حرب ، وفى هذه الحالة فانه يكون قد اعتلى عرش الديار المقدسة (الحجاز) بحكم الأمر الواقع • الا أن شريف مكة ، وأحمد باشا ، الحاكم التركى للمدينة الرئيسية (غالبا مكة) قد عزله ، ورفع من شأن منافسه الشيخ فهد وهو وغد آخر على الشاكلة نفسها ، فهو يطلق على نفسه لقب الشيخ بنى عمرو Amr وهم الفرع الثالث لبطن حميدة Sub-famity of Hamidah family • ومن ثم فقد نشأ كل أنواع النزاع والفوضى • فقبيلة (شعب) سعد الذين يقال ان عددهم ٥٠٠٠ امتعضوا ، بحدة العرب وقوتهم ، للاهانة التى لحقت بزعيمهم (شيخهم) ، فضربوا جماعة (عشيرة) فهد التى لا تزيد على ٥٠٠ الا أنه الشيخ فهد — الذى تؤيده الحكومة — منع الامدادات عن عشيرة سعد • وكلا الرجلين (سعد وفهد) على درجة واحدة من القسوة والطيش ، فأنت لا تجد فى أى مكان آخر « الطيبة » المجيدة « والحرية » تظهران وجها نحاسيا صفيقا كما هو لدى الشرقى :

---

(٢٢) استخدم بيرتون تعبير Triple seller وتاجر الكروش أو بائع الكروش تعبير يفيد أن الشيء المباع تافه لا يستحق كل هذا — (المترجم) •

(٢٣) استخدم بيرتون كلمة Schinderhans (المترجم) •

(٢٤) استخدم بيرتون "Liberty" ووضعها بين قوسين والمقصود هنا القمة وتجاوز الحدود — (المترجم) •

« أرض الشجعان والأحرار التى لا تنتهك حرمتها »

« Inviolate land of the brave and free » (٢٥)

فقد انتهز الطرفان الفرصة فأطلقوا النار على الجنود ، وسلبوا المسافرين وقطعوا الطريق • واستمرت هذه الفوضى حتى غادرت الحجاز ، الى أن اقترح شريف مكة ـ كما يقال ـ أن يمسك زمام الأمر بنفسه ضد الزعيم اللص (شيخ اللصوص) • وكما سنقرأ بعد ذلك في هذه الصفحات ، فان سعدا كان لديه من الجرأة والوقاحة ما جعلته يعيد محمل السلطان رمز السلطة الامبراطورية (العثمانية) ، ويغلق الطريق فى وجه رجال السلطان ، لان قافلتى باشاوات المدينة ، وباشوات قافلة دمشق ، رفضوا التعهد باعادته الى مكانته السابقة (الى رتبته الأولى) ووجود مثل هؤلاء الأشخاص التافهين (الهوام) يعطى الفرصة للبرهنة على بلاهة الحكومة التركية • فالسلطان يدفع الأعطيات من قمح وملابس لكل الشيوخ القبليين الذين يقومون بدورهم بتسليح أوغادهم (رجالهم) ليعملوا ضده (أى ضد السلطان) ، كما أن الباشاوات ـ بعد أن يكونوا قد سرقوا كل ما يستطيعون ـ يقدمون لأعدائهم وسائل التمرد • أنه أمر لا يحتمل ألا يسمع السلطان عبد المجيد كلمة صدق واحدة عن الحجاز فحاشيته البغيضة تصور له أن أهل الحجاز يرتعدون من ذكر اسمه • وعلى أية حال ، فان حكومة السلطان عبد المجيد راغبة ان كانت التقارير التى تصلها صادقة فى جعل الحجاز على عاتق الحكومة المصرية التى ستدفع عن طواعية ورغبة مبلغا كبيرا لتجنب مثل هذه الكوارث • فالأرض المقدسة تستنزف الذهب التركى والدماء التركية بشدة ومشايخ العرب يقومون بدور وضيع ، فهم حتى اذا قبضوا على لص فانهم لا يجسرون على شنقه •

فالترك يدعون التفوق على العرب ، ويكرهونهم ، والعرب بدورهم يحتقرونهم • وفى الحجاز قد تكون تأثيرات خط كلخانة (٢٦) the Charter of Gulkhanah كتأثير دواء لجميع الأمراض ـ مثل دواء هولواى Holloway's pill ـ لمواجهة كل الشرور التى ورثها الترك والعرب والسوريون واليونانيون والمصريون والفرس والأرمن والكرد

(٢٥) من الواضح أن بيرتون يسوق هذا البيت من الشعر على سبيل السخرية ـ (المترجم) •

(٢٦) صدر خط كلخانة المشهور سنة ١٨٣٩ (٢٦ شعبان ١٢٥٥) ، وهو مجموعة قوانين اصلاحية على النسق الأوربى مع مراعاة الشريعة الاسلامية ، وصدر فى عهد السلطان عبد المجيد ـ ويريد بيرتون أن يقول أن الشرق لا يصلح له الا تنظيمات مستقاة من تراثه •

راجع : محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية • ص ٧٠٢ (نشر دار النفائس) •

والألبان • ونتائج التنظيمات هذه Tanzimat (٢٧) تعد أغبى تقليد للغباء الاوروبى ـ البيروقراطية والمركزية ـ ان تركيا لا تكف عن ممارسة « التجريب » فى حكم البلاد التابعة لها • وفى ظل الحكم المطلق قوى اليد والقلب ، كحكم محمد على ، فان الحجاز فى خلال جيل واحد قد يتخلص من هذا الطاعون (٢٨) فتلك الآلاف القليلة من اللصوص وقطاع الطرق انصاف العراه الذين يجعلون البلاد ديار حرب سيختفون حالا ويطويهم النسيان ، اذا طبق بحزم مبدأ الأخذ بالثأر ، واذا قدمت المساعدات الفعالة للطبقات الضعيفة ضد الطبقات الأقوى ، واذا أوقفنا كل بدوى عند حده ، فالبدوى يعتبر البداوة فخرا له ، وفوق كل هذا ، اذا طبقنا العدالة بشكل صارم • ولتحقيق ذلك فانه يلزم الترك استعادة الحكومة العسكرية القديمة ذات الطابع الدموى ، فتلك سيكون لها أثر أقل بؤسا من نصوص خط كلخانة والتشريعات الجديدة • ان الامر يتطلب ما دعاه ملتون :

« الحكم القاسى لحكومة متمدنة »

« The Solid rule of Civil government »

فهذا المبدأ قد فعل الأعاجيب بالنسبة للجنس الذى رعى فكرة التلقائية فى منظماته ووصل بها الى درجة الكمال ولا زال على العالم أن يعلم أن القواعد الدخيلة (المجلوبة) سوف تزدهر بين نبلاء الحجاز الزائفين (٢٩) • فلسنا فى حاجة الى عيون تتنبأ لنتوقع اليوم الذى يحرر الوهابيون أو البدو البلاد من الفاتحين الضعفاء (٣٠) •

لقد وصف لى سعد الجبلى العجوز بأنه بدوى أسمر صغير الحجم ، تزدريه العين لكنه ذو شجاعة ملحوظة ، كما أنه حاضر البديهة • ويحمل أثرا حادا من جراء غدر حاق به ، فثأره عند عبد المطلب شريف مكة الحالى، الذى قتل ابن أخيه ، وعداؤه لبعض السلاطين ـ كل ذلك قد جعل حياته خطرة حافلة بالأحداث • لقد فقد أسنانه بسبب سم كان من الممكن أن يقضى عليه ، لكن ذلك لم يحدث بعد أن شرب مقدار وعاء كبير من السمن ، فقضت هذه الجرعة من السمن على أثر السم • ومنذ ذلك الحين وهو يعيش ـ فقط ـ على الفاكهة التى يجمعها بنفسه ، والقهوة التى يعدها بيديه •

---

(٢٧) المقصود تنظيمات خط كلخانة ـ (المترجم) •

(٢٨) المقصود الفوضى وانعدام الامن ••• الخ (المترجم) •

(٢٩) كتبت هذه الملاحظة ١٨٥٣ ولا أجد داعيا لتغييرها سنة ١٨٧٨ (بيرتون) •

(٣٠) لقد انتصر السلفيون فعلا ووجدوا جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية بعد ذلك ، وأسسوا مملكة شاسعة هى المملكة العربية السعودية ـ (المترجم) •

وفى فترة حكم السلطان محمود تلقى من اسطنبول (القسطنطينية) كيسا جميلا ، وطلب منه أن يفتحه لأن به أشياء تخصه بالذات ، ولأنه كان يتوقع الغدر ، فقد قدم الكيس لأحد عبيده كي يفتحه بعيدا عنه بمسافة كافية ، فلما شرع فى فتحه انطلقت رصاصة أصابت العبد من مسدس كان مثبتا بشكل خداعى فى طيات الكيس وسواء أكانت هذه القصة المعروفة جيدا ، حقيقية أم مجرد نسج محبوك ، فالذى لا شك فيه أن الشيخ سعدا يخاف الآن من الترك حتى لو قدموا له الهدايا • فالسلطان يرسل له ــ أو من المفترض ذلك ــ هدايا من خيول جميلة ، وخلع تشريفية ، وكميات كبيرة من الغلال ، الا أن الشيخ يثق فى تلاله أكثر من ثقته بالخيول ، فيبيعها ، ويتخلص من الثياب بتقديمها لعبيده ، ويوزع الغلال على عشيرته • وعن شخصيته ، فإن الرجال يتخذون منها موقفين : بعضهم يمتدح كرمه ويسمونه صديق الفقراء لأنه ــ وهذا مؤكد ــ عدو للأغنياء • وآخرون على العكس من ذلك ــ ينعتونه بالقسوة وبرود الدم ، ويذكرون أنه معروف حتى بين العرب بجشعه وحقده • وربما كانت حقيقة شخصية الرجل وسطا بين هذين الرأيين المتطرفين ، لكننى لاحظت أن رفاقى الذين يتحدثون باستعلاء عن زعيم اللصوص هذا وهم بعيدون يبدون فى حالة رعب وهم تحت ظلال تلاله •

و (الحمرا) هى المحطة الثالثة من المدينة (المنورة) فى الدرب السلطانى the Darb-Sultani أو الطريق العالى • والخط الغربى يؤدى الى مكة (المكرمة) على طول ساحل البحر • واذا أذن اللصوص فان الحجاج يفضلون هذا الطريق لا عتدال مناخه وتيسر الماء به وقربه من البحر ولمروره ببدر التى شهدت أولى غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة الثانية للهجرة وبعد منتصف النهار فى اليوم الواحد والعشرين من شهر يوليو بعد أن رتبنا أمورنا على أن القدر شاء أن نتوقف فى (الحمرا) ، وصلت من مكة (المكرمة) قافلة ، وكان هؤلاء المسافرون الجدد حريصين على اصطحاب حرس معهم وأن يتخذوا طريقهم بسرعة ودون تأخير للمدينة (المنورة) • وقد ملأتنا هذه الأخبار الطيبة بالسرور • وبعد الساعة الرابعة مساء بقليل حثثنا جمالنا اللاهثة على المسير فوق الرمال الملتهبة للحاق بالمكيين الذين كانوا متأهبين للمسير فى الجانب الآخر من بطن السيل (المسيل) • وبعد ذلك بساعة اتخذنا اتجاها شرقيا •

وقد وجد رفاقى فى قافلة المكيين أصدقاء وأقارب ، فأخو الولد محمد الأكبر الذى سأتحدث عنه فى موضع آخر كان فى عداد هؤلاء الذين كانت

جعبهم (جمع جعبة) ملأى بالأخبار والعجائب . ولما غربت الشمس أدوا صلاة المغرب باستمتاع وحماسة حتى سعد وحامد لم ينيخوا جمالهم أثناء التوقف عندما كان كل من حولهما يتوضأ ، فقد تيمما Sanding themselve وأديا الصـــــة ، ثم تناولنـــا عشــــاءنا وامتطينـــــا خيولنـــــا ، وبدأنا السفر كرة أخرى . وبعد أن هبط الليل بقليل كان علينا أن نتوقف فجأة اذ سمعنا اثنى عشر تقريرا (رواية) فى هذه الظروف ذلك أن جماعة من البدو تحصنوا فى ممر ضيق وأرسلوا لنا وفدا « برلمانيا » (٣١) ليأمرنا بالتوقف . لقد طلبوا فى البداية مالا ليسمحوا لنا بالمرور ، لكن أخيرا سمعوا أننا من أبناء المدينتين المقدستين (مكة والمدينة) فسمحوا لنا بالمرور فردا فردا حتى يعود المسلحون منهم من حيث أتوا ، فهم يكرهون ويخافون كفلاحى أيرلندا . وفوق هذا فان حرسنا أداروا خيولهم وعادوا لثكناتهم . وعلى أية حال ، فقد تقدمنا دون أن نقابل أى لصوص ، وقد أشار قائد جملى (جمالى) وأرانى طائرا صغيرا يحوم حول المكان حيث توقع وجود ماء يسيل من الصخر . وكان أحد الرفاق قد حاول أن يهزأ بى عندما كانت المعركة على وشك الحدوث (يقصد عند ظهور اللصوص الآنف ذكرهم) فصاح قائلا : « لم لا تحشو مسدسك يا أفندى ، وتخرج من شقدوفك وترينا كيف يكون القتال ؟ » فأجبتـــه بصوت عال : « لأنــه فى بلادى ، عندما تلاحقنا الكلاب ، فاننا نضربها بالعصى » . وهكذا أغلق منصور فمه لفترة ، لكننا (أنا وهو) لم نكن أبدا أصدقاء . فقد كان منصور هذا فى حاجة أن يعامله المرء معاملة سيئة — مثله فى ذلك مثل أفراد الطبقة الدنيا فى الشرق ، فهو يرى فى الكياسة والتنازل دلالة على الجبن والبلاهة . لقد بدأت التعامل معه برقة ، لكنه سرعان ما أجبرنى على أن ألقمه ألفاظا قاسية ، وبعد ذلك اضطررت لتهديـــده ، ورغـــم أنه كان يعبس ويتمتم بكلمات غير مفهومة — الا أن هذه الطريقـــة فى معاملته جعلتــــه يتحسن ، فالشاعر الفرنسى القديم يقول :

« Oignez Vilain, il vous poindra !
Poignez Vilain, il vous oidera ! »

وهو قول يصدق فى الشرق ربما أكثر من صدقه فى الغرب .

وخلت رحلتنا الليلية من أحداث أخرى ، لقد كنا نسافـــر فوق أرض مرتفعة ، والقمر فى حالة التمام يملأ وجوهنا ، وفى حوالى منتصف الليل مررنا خلال مجموعة قرى مبعثرة تسمى الجديدة Jadaydah

---

(٣١) السخرية بادية فى هذا التعبير كما هو واضح — (المترجم) .

أو الخيف Al-ûhayf يقـع الجزء الرئيسى منها الى شمال الطريق المؤدى للمدينة (المنورة) وبها قلعة تشبه قلعـة (الحمرا) ، وينابيع ذوات ماء مستساغ طعمه ، وبساتين نخيل ، ومقام أحد الأولياء المشـــاهير وهو عبد الرحيم البرعى (؟) Burai ، ويقع الى الخلف منها بقليل بوغاز (شعب جبلى أو دحل) لقى فيه طوسون بك و ٨٠٠٠ تركى معه هزيمة ساحقة على يد ٢٥٫٠٠٠ من البدو والوهابيين (٣٢) وهذه نقطة هجوم شهيرة لبنى حرب · وفيما مضى ارتبك الجزار باشا ، جزار سوريا الشهير ، وعبد الله باشا حاكم دمشق عند مضيق الجديدة ، لذلك فان قائد قافلة الحج الشامى هذا العام تحاشى المرور بهذا الطريق وفضل الوصول لمكة (المكرمة) باستخدام طريق نجد الصحراوى خوفا من تعرضه للهجوم عند هذا المكان ذى الفأل السيىء · وفى الساعة الرابعة صباحا وصلنا الى بير عباس ، بعد أن قطعنا أربعة وعشرين ميلا فى اتجاه الشرق ·

(٣٢) السلفيون اتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويسمون ايضا بالسـعوديين لتحالف محمد بن سعود مع الشيخ ابن عبد الوهاب ـ (المترجم) ·

الفصل الرابع عشر

من بين عباس الى المدينة (المنورة)

وصف موقع بير عباس – مشايخ العرب يذهبون لاستلام رواتبهم التي بعثت بها الدولة العثمانية – التشكيلات العسكرية للالبان – النظام في التدريب العسكري يجب الا يقتل الروح الفردية – الخوف من الحوامد – قرية الشهدا – بير الهندى – السويقة – سد الدين عند الشرقيين – وادى العقيق – الحرتين – الدعاء ومنظر المدينة المنورة ·

كان اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو ، محنة كبيرة لقافلتنا الصغيرة ، فموقع (بير عباس) يشبه تماما موقع (الحمرا) Al Hamra غير أن نتوء المسيل الذى يطوق التل ، فى هذا المكان يبلغ عرضه ميلين (١) · وتوجد هنا القلاع الحجرية المعتادة والعرائش المشيدة من جريد النخل للعسكر المقيمين هنا لحراسة المكان والمسافرين ، كما توجد مقهى فى ظلة وكوخ (عريش) أو كوخان ، يطلقون عليه اسم السوق ، ولا توجد قرية هنا · لقد كان الموضع الذى خيمنا فيه عبارة عن أرض ذات رمل هش ، عصفت به رياح السموم ، فعبأت الهواء به · ولم تر العين شجرة أو حتى شجيرة ، أما عن الحياة الحيوانية ، فلم يبق منها سوى أنواع من جراد شديد الاحتمال ، وأسراب من ذباب · لقد كان المشهد صورة مشوهة تشويها بالغا لما رأيته فى السند ·

---

(١) المسيل الصغير ذاته Fiumara لا يمكن أن يكون عرضه ميلين ، فالمسيل الصغير مجرى مائى غير عريض يهبط من قمم التلال أو الجبال ومجراه قد لا يزيد عرضه عن بضعة امتار ، وذلك بخلاف السيل torrent الذى قد يكون عريضا ، فحديث بيرتون هنا ليس عن المسيل ، وانما عن نتوء التل الذى يجرى منه المسيل وعلى أية حال ، فمن الأفضل ايراد نص عبارته :

"except that the bulge of the hill-girt Fiumara is at this place about two miles Wide".

ويلاحظ أن أهل الجزيرة العربية يطلقون لفظ (السيل) والمسيل على المجرى ذاته سواء أكان جافا أم ممتلئا بالمياه – (المترجم) ·

ورغم اننا كنا الآن فوق سطح البحر ببضع مئات من الأقدام ـ مستدلين على ذلك بانحدار مقسمات المياه . الا أن شمس منتصف النهار كانت تحرقنا حتى ونحن داخل الخيمة ، التى سقطت أكثر من مرة ، وكانت اعادة نصبها مؤلمة بسبب حرارة الرمال . وهرع زملائى مرة أخرى بعد تناول الافطار الى المقهى وعادوا واحدا اثر واحد بحكايات وتقارير تدعو للكآبة ، وانخرطوا بعد ذلك اما فى عراك لا معنى له ، أو ألقوا بأنفسهم على أبسطتهم متظاهرين بالنوم ، وهم فى جهامة وعبوس كاملين . ووبخت الست مريم ابنها العنيد بعنف لرفضه أن يملأ الشيبوك (٢) (بيبة التدخين التركية) للمرة الثانية عشرة ذلك الصباح بقولها القول المعتاد ذا الطابع الدينى « الله يهديك يابنى » ومعنى هذا أنه يسير فى طريق غير سوية ، وقولها : « يا مصيبتى ، ان أمك امرأة وحيدة (٣) فى القافلة ، يا الله » ومثل هذه العبارات تساوى تفجع الآباء والأمهات فى أوروبا لاشتعال رءوســهم شيبا وقرب هبوطهم الى مستقرهم الأخير (القبور) . وقبل الظهر وصلت قافلة صغيرة كانت تتبعنا ، وكانت تحمل جثتين ، احداهما لجندى حراسة أطلق البدو عليه النار ، وثانيتهما لألبانى مات بضربة الشمس ، أو بفعل الرياح الملتهبة .

وبعد منتصف النهار بوقت قليل غادرتنا هذه القافلة متجهة فى اتجاه معاكس ، وكانت تتكون بشكل أساسى من حجاج هنود يرتدون ملابس الاحرام ، ويسرعون صوب مكة بشوق حار . وقد سمح لهم بالمرور دون ازعاج ، وذلك لأنه قد لا يمكن جمع جنيه استرلينى من جيوب مائة منهم ، كما أن لسعد قاطع الطريق ، بعض المآثر الهينة فى أحيان . لكن جماعتنا (قافلتنا) بدت غير قادرة على استعادة رباطة جأشها بسبب هذه الحادثة رغم رغبتنا فى الوصول سريعا للأماكن المقدسة . وفى المساء ذهب جمعنا الجميع لنرى بعض الشيوخ العرب الذين كانوا ذاهبين الى (بير عباس) لاستلام رواتبهم (أعطياتهم) . وبدون هذه الرشاوى (يقصد الرواتب) (*) فان القلاع والأسوار لن تمكن الترك من الاحتفاظ بالحجاز والدفاع عنه ضد هؤلاء الجبليين ، وهو قول شائع وأعتقد أنه صحيح . وان لنا نظاما مثل هذا فى أفغانستان (٤) وهو نظام أحمق ، فهو يعلم الرعية احتقار الحكام الذين يخضعون للابتزاز . وبالاضافة لهذا ، فان هؤلاء الشيوخ الذين يتقاضون رشاو (أعطيات) كبيرة لا يقومون بعمل

---

(٢) أو الشبق ، وأشرنا له فى حاشية سابقة ـ (المترجم) .

(٣) بالعامية المصرية « امرأة وحدانية » أى لا معين لها ـ (المترجم) .

(٤) باعتبار بيرتون يتقمص فى رحلته هذه شخصية أفغانستانى ـ (المترجم) .

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم .

طيب • فعندما تنشب الحرب ، أو يقطع الطريق ، فانهم يدعون عجزهم عن كبح جماح عشائرهم • وهؤء الشيوخ أغنى من غيرهم ، وبالتالى فقد أصبحوا أكثر خطورة وقدرة على البطش • ونظرت قافلتنا جيدا ، فوجدت أن هؤلاء الشيوخ كانوا من قبيلة حرب ، وكانوا كبار السن عليهم سيماء الوقار ويلبسون الزى العربى التقليدى كأبهى ما يكون ، وكانوا منتصبين ، ذوى ملامح نحيلة وحادة ، ولحى بيضاء ، ومسـلحين تسليحا جيدا ، ويمتطون جمالا أصيلة من الشرق (٥) ، مجهزة تجهيزا جميلا ، يتبعهم رجال من عشائرهم نصف عراة ، يحملون رماحا ، يبلغ طول الرمح منها اثنى عشر قدما أو ثلاثة عشر قدما ، ومزينين بريشة نعام قصيرة سوداء أو ريشتين ، ويحملون بنادق ثقيلة ذوات فتائل ، أطلقوها عند اقترابهم من القلعة ، ولم يكن تصرفهم يخلو من طابع الخيلاء المتبربر • وبعد استقبال الشيوخ ، سرعان ما أقيم استعراض عسكرى قام به الفرسان الأرناؤوط (٦) غير النظاميين • وكان خمسمائة منهم قد ثبتوا لصوت الناقوس الذى كان صوته الواهى يتناقض تناقضا يثير الدهشة مع نظرة الحرب الحقيقية التى تقدح شررا من عيونهم • لقد كانوا حقيقة يركبون أفراسا عربية ومصرية ضعيفة ، مهلهلة المنظر كثيابهم ، وكان كل فارس قد سلح نفسه بطريقته الخاصة ، رغم أنهم جميعا كانوا يحملون السـيوف والبنادق القصيرة والبنادق ذوات الفتائل أو بعض البنادق القديمة من النوع ذى الزناد • لكنهم يمتطون جيادهم بقوة وكأنهم فحول ونظر اليهم الجميع نظرة اهتمام واعجاب بشجاعتهم وحفزنى ذلك على الاعجاب بهم بشدة • وكانت خيولهم ــ أيضا ــ جيدة التدريب رغم هزالها ، أما ثيابهم وأسلحتهم العسكرية فقد أعدت للحرب لا للاستعراض • لقد تابعت مناوراتهم باهتمام وفضول • وقد غادروا معسكرهم واحدا أثر الآخر ، وعند سماعهم الطبلة شكلوا بالتدريج طوابير منظمة ، ولا يمكن أن نقول انهم يحتشدون باهمال دون خطة • وحالما غيرت « الطبلة » نغمتها حتى أخذ العرض العسكرى تشكيلات ملائمة للنغمة ، فانتشروا وكأنهم مشاة خفاف ، وهم يواصلون ــ الآن ــ تقـدمهم ، ثم اسـتداروا عائـدين (خلفـا در) ، ثم اندفعـوا للأمـام (أسرع) ، وفى اشـارة أخـرى جعـلوا ــ كانوا خلالها يحشون بنادقهم كل على حدة أحيانا وبشكل جماعى غالبا ، خيولهم تتخذ أقصى سرعة لها ، بشكل مفاجئ ، وطوقوا مركز العرض ، ومرة أخرى تقدموا فى جماعة كثيفة • وبعد ثلاثة أرباع ساعة من العرض ــ كانوا خلالها يحشون بناءتهم كل على حدة أحيانا وبشكل جماعى غالبا ، ويستديرون لليمين (لليمين در) وللشـمال (للشمال در) ، ويسيرون

(٥) نجدية ، أى من نجد ـ (المترجم) •

(٦) أى الالبان ـ (المترجم) •

الأمام (للأمام سر) ويتوقفون عند الضرورة ، ويتراجعون وفقا للظروف وعاد الأرناؤوط بشكل جماعى الى خطوطهم (قواعدهم) بطريقة تحفر فى الذاكرة ولا تنسى · ولما اقتربوا توقف الجميع فجأة ، ثم عدوا بأفراسهم وأطلقوا نيران بنادقهم باهمال كثير على أهـداف يفترض أنها تمثل العـدو ·

وأثناء حدوث هذا كله وفى اليوم التالى لاحظت أن الرصاص كان يطلق لمجرد اللعب والترفيه فهو رصاص صوت (لاحداث صوت ، لا للقتل) وقد يظهر مثل ذلك حتى فى مدرسة مارتينت مدرسة الفروسية العريقة ، بالاضـافة الى أن شـيئا من هذا القبيل سـيكون من بين تكتيكات سلاح الفرسان ، وأعود مرة أخرى لأبدى رأيى المتواضع وهو أن سلاح الفرسـان البطىء نسبيا سيتحول الى سـلاح مرعب بعد الاتفاق التام لاستخدام البنادق والمسدسات ومدفعية الميدان ·

وأيضا اذا تبنينا الرأى الذكى للكاتب المعاصر (٧) ووضعنا فى اعتبارنا « الشجاعة الفردية والمهارة فى المعارك الفردية ، والفروسية البارعة والسيوف الحادة ، فان كل ذلك سيجعل سلاح الفرسان ، سلاحا خطيرا » فأنصـاف البرابرة هؤلاء أكثر وعيا فى تنشـئتهم من المتمدنين الذين لم يمارسوا أبدا التدرب على السلاح ، فتدريبهم على الركوب لا يخلق منهم فرسانا جيدين أبدا ، فخيولهم مثقلة وسيوفهم لا جدوى منها · ولأنصاف البرارة هؤلاء مجال آخر للتفوق علينا فهم يزرعون الفردية فى الجندى ، بينما نعمل نحن بشدة على جعله مجرد أداة ·

وفى أيام الفروسية الأوربية كانت المعارك نظاما من نظم المبارزة التى تتجلى فيها البراعة فى القتال · وأعقب ذلك عصر « النظـام » حيث استخدمنا لغة الرابيلين Rabelia » والرابيليون هم رجال يبدون أكثر نظاما

وتوافقـا فى تحريك أعضـائهم وأسـلحتهم · على نحـو ما تتحرك عجـلات السـاعة ، دقة وانضـباطا ، أكثر مما تتطلبه كتـائب المشـاة والفرسـان ، أو جيش من العسـكر · ان هدفنـا يجب أن يكون الآ هو المزاوجة بين مزايا النظامين انفى الذكر بمعنى أن تجعل الجند ممتازين كأفراد فى استخدام السلاح ، وأن نستمر فى تدريبهم ليصبح استخدمهم للسلاح طبيعيا ومعتادا مع الاتفـاق والانسجـام فى الأداء · وقد قدمت فرنسا النموذج لأوروبا فى الشاسور دى فنسـن Chasseurs de Vincennes كتشكيل قابل لتكوين مجموعة مؤتلفة تماما يمكنها

---

(٧) هو الراحل الكابتن نولان Nolan (بيرتون) ·

القتال بشكل جماعي متسق على نحو رائع ، وان كانت روعتها في القتال مجتمعة ليست أفضل من روعة مقاتليهم وهم يقاتلون فرادى » ونحن ــ كما أقترح ــ سوف نحذو حذوهم في المستقبل القريب ٠

لقد شهد يومنا الكئيب الأول في بير عباس ، سماعنا لأصوات الأسلحة النارية على البعد ، وكان هذا علامة على أن فرق الحرس ولصوص التلال يقتتلون ، كما قال رفاقي ٠ وقاموا بدور الاستخبارات لمواجهة رغبتي الملحة في الاستمرار في السفر ، لقد افترضت أن البدو بعد أن حاربوا ليلا ، فانهم سيكونون أقل رغبة في القتال في اليوم التالي ، وقد اتفق معي في هذا الرأي آخرون اتفاقا كاملا ٠ وعندما كنا في ينبع ، كان كل أفراد القافلة يتباهون بأن أهل المدينة استطاعوا اخضاع البدو للنظام وسخروا من الولد محمد لتفوقهم في هذا المضمار على أهل بلده المكيين ٠ أما الآن فان ثمة تجربة مريرة على وشك الحدوث فلم أر واحدا يتحلى بشجاعة واضحة عندما لاحت نذر الخطر ٠ وكان التغيير الذي حاق بهم هو التفضل باستحضار بعض قيمهم : فالصحاري ليس لها كبير ــ انها كالضمير تحيلهم الى جبناء ٠ لكن الشاب المكي الذي أرسل مع صندوقه من ينبع الى حدة قد أغرقته السعادة كمسافر خالي البال فلم يفوت الفرصة ليأخذ بثأره القديم ، فسخر من أهل المدينة حتى أهاجهم وأغضبهم غضبا شديدا ٠ وأخيرا فقد طوقت عنقه وظهره (من فوق عجيزته) وسحبته من ثوبه الى داخل الخيمة خوفا من حدوث اضطراب وحرصا على سلامة الفتى ٠

وعندما خف الضجيج وجلس الجميع بعد العشاء يدخنون شيشة السلام في هواء الليل البارد ، جلست معهم ووجدتهم كالعادة يتحدثون عن الشيخ سعد العجوز ٠ وكان المشهد يتناسب مع الموضوع الذي يتحدثون فيه ٠ فعلى البعد بدت قمة زرقاء مرتفعة يقال انها وكره ٠ وكان المكان يشع بمعان مرعبة ٠

ولما كان الوكر مستعصيا على الغرباء ، فقد حول المتحدثون مسار الحديث ليجعلوا منه جنة ارم Iran على أية حال ، فان نظرة خاطفة لموقعه وتكوينه تجعلني أقنع أن الينابيع الفوارة والغابات الكثيفة وبساتين التفاح والسفرجل والرمان التي تصورها رفاقي في هذا المكان (الوكر) مجرد خرافة ، اذ أن معرفة سطحية بجهل العرب بفن الدفاع قد جعلت في نفسي شكوكا قوية عن وجود تحصينات منيعة فوق قمة التل ٠ وعلى أية حال فان الجبال تبدو جميلة في ضوء القمر وتبدو على البعد شبيهة بالينابيع السرية مما يتناسب مع الموضوعات التي يستوحونها ٠

وفي ذلك الليلة نمت داخل شقدوفي فمن الحمق أن أنام في السهل المكشوف في مكان مبتلي باللصوص • وأن يتسلح المرء ، فان ذلك مجرد حذر بائس ان كان قريبا من وكر اللصوص • فاذا جرحت رجلا أثناء عملية سلبك فلابد أن تدفع مبلغا باهظا ثمنا لدمه • واذا قتلته حتى لو كان ذلك دفاعا عن النفس فقل وداعا لحياتك • ولما استيقظت ثلاث مرات أو أربع ليلا بسبب حركة الكلاب وأبناء آوى التى كانت تتسكع حول معسكرنا الصغير ، لاحظت أن رفاقى الذين كانوا قد وافقوا أن يتناوبوا الحراسة — قد استغرقوا جميعا في نوم عميق • وعلى أية حال ، فعندما استيقظنا صباحا لم تسفر مراجعتنا للبضائع والممتلكات عن ضـــياع شيء •

وفي اليوم التالى (٢٣ يوليو) توقفنا توقفا اجباريا ، فالألم يثير في المسافر حدة الطبع ، والشمس والرمل والغبار ، ورياح الســـموم البشعة ونقص بعض المؤن القليلة ضاعف من غضبنا • وكانت قدمى المتقرحة قد زاد التهابها بسبب قشر البصل الذى وضعته عليها والتى أصرت الست مريم أنه علاج لها • وقد دفعت عشرة دولارات للحصول على جمل جديد ليحملنى الى المدينة لأنى وجدت أن حل ما نحن فيه من مشاكل يكمن فى التقدم مستمرين في السفر بأية وسيلة يمكن تدبيرها — للمدينة (المنورة) • وقد أعلن الشيخ حامد أيضا أنه سيترك صندوقه أمانـة لدى صـديق ليصحبني • أما سعد العملاق فاتبع هواه وهدد الولد محمدا فيما بينه وبينه أنه سيقطع أرجل أى جمل يتجرأ (على الحركة) من المخيم • فهذا الولد — كسائر الأولاد فى العالم — لا يترك فرصة لالحاق الأذى ، وقد اتصل بى فورا وراح يجادلنى بانفعال شرير • وقد اعتذرت بقية المجموعة (القافلة) لسعد ، واستنكرت ما نحن بصدده ، وسرعان ما هدأ هو نفسه لأنه كما أعتقد لم يكن هناك جمل للايجار فى بير عباس • وقد طلب منا أحد أفراد الحامية الألبانية الذين حصـــلوا على اذن بالذهاب للمدينة (المنورة) ان كان فى امكاننا حمله معنا ، والا فانه سيضطر لقطع الطريق اليها سيرا على الأقدام وقد ناقشنا امكانية السفر بين التلال باتخاذ طريق فرعى (مدق) من الطرق الفرعية الكثيرة التى تتخلل هذه التلال • وبعد مناقشات مستفيضة رفضنا الفكرة تماما •

وقد أمضينا اليوم كالمعتاد ، فقد ازدحم الجميع تحت الخيمة لتكون لهم وقاء ، وحتى مريم التحقت بجمعنا وقالت لابنها على بصوت عال أنها لم تعد امرأة ، وانما رجل • وبينما جماعتنا — بشكل عام — يختبئون من النظرات النارية للشمس ، كان آخرون اما يأكلون ، واما يدخنون ،

أو كانوا مشغولين بشرب الماء والتبرد به . وعند غروب الشمس تقريبا وصلنا خبر بأن علينا أن نبدأ المسير هذه الليلة ، ولم يكن أحد ليتصور أن القدر قد ادخر لنا هذا النبأ الطيب ، وعلى أية حال فقبل النوم وضعنا حمولة كل جمل على حدة لنكون جاهزين لتحميله في اللحظة المناسبة ، واتخذنا حذرنا من أن يأخذ البدو المصاحبون لنا دوابنا بعيدا .

وأخيرا ، في حوالى الساعة الحادية عشرة ليلا ، عندما بدأ القمر يظهر الجوانب الشرقية للصخور ، سمعنا الصوت البهيج للطبلة داعيا الفرقة الألبانية لامتطاء جيادها لبدء المسير . وفي أقصر وقت ممكن كان الجميع مستعدين ، وبسرعة عبرنا السهل الرملي ، وسرعان ما وجدنا أنفسنا بصحبة ثلاث قوافل أو أربع ، فكونا قافلة كبيرة ، مما يهيىء لنا فرصة أفضل لمواجهة الحوامد (٨) Hawamid المرعبين . وقد كنا نحن – رغم وصول القادمين الجدد الذين انضموا الينا – الذين عملنا على تأمين مأماكن في منتصف الخط (خط القافلة) تقريبا ، بكثير من المناورة والدهاء، ونحن حاملون السلاح بأيدينا ، وقد اتخذ الشيخ حامد والعملاق أماكن بارزة . وفي مثل هذه الظروف يندفع الجميع للأمام بطيش ، كالغوغاء الانجليز الذين يتزاحمون لرؤية مشهد . ومؤخرة القافلة – لكونها بدون حراسة – كانت تعد هي المنطقة الموضحة للخطر . ولم يحاول أحد أن يحظى بشرف شغلها .

لقد سافرنا هذا الليل فوق مسيل في اتجاه شرقي وعند الفجر تقريبا ، في اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو وجدنا أنفسنا في شعب سيء السمعة يسمى شعب الحج وكلما اقتربنا منه خرست أصوات ذوى الحناجر القوية ، ونطقت وجوههم بالخوف والجبن الواضح في تكوينهم . ومن منحدر صخرى شاهق عن يسارنا ، سرعان ما ظهر خيط دخان أزرق ملتف ، جذب اليه كل العيـــون بشـــكل أو بآخر – لقد ارتفع هذا الخيط الدخانى في الهواء وسرعان ما دوت فرقعات حادة صادرة عن البنادق ذوات الفتائل لرجال التلال ، ورددت الصخور صداها عن أيماننا .

وكان شقدوفي قد كسر بسبب تعثر جملي خلال الليل ، فناديت على منصور وطلبت منه أن نجدل الحبل الذى يطوق الشجدوف بقطعة حبل أخرى ، فرفع بصره ، وضحك لما رآنى ، وقذف من فمه ما يدل على الاشمئزاز واختفى . وبدا عدد من البدو يحتشدون كالدبابير على قمم التلال أولادا ورجالا يحملون أسلحة ضخمة ويتسلقون بخفة القطط ، واتخذوا لهم مواقع مريحة على رواب صغيرة ، وبدءوا يطلقون النار علينا

(٨) انظر الفصل السابق – (المترجم) .

بارتياح كامل . لقد منعني ارتفاع التلال ووهج الشمس المرتفعة من رؤية الأشياء بوضوح ، الا أن رفاقي قد أشاروا لي الى المكان حيث كانت الصخور تنحدر بشكل شبه عمودي ، وحيث كان يوجد متراس حجري سميك (الصنجة Sangal كما تسمى في أفغانستان) وقد أعدت لتكون وسيلة للدفاع ولتبرز من ورائها الماسورة الطويلة للبندقية ذات الفتيل . ولا جدوى من هذا المتراس في حالة هبوط البدو وشروعهم في مقاتلتنا كما يتقاتل الرجال في السهول . انهم سيفعلون ذلك في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية ، لكن ذلك قلما يحدث في الحجاز . ولم يكن موائما لحرسنا أيضا أن يطلق النار على عدو كامن خلف الصخور . وبالاضافة لهذا ، فانه اذا تم قتل لص ، فان المنطقة كلها ستقوم قومة رجل واحد لتنتقم منا ، بقوة قوامها ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ ، وقد يكون لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يهزمون قافلة وفي هذه الحالة فلن ينجو من أفراها أحد . وقد وجه البدو نيرانهم ــ بشكل رئيسي ــ نحو الألبان .

وقد طلب هؤلاء مساعدة جماعة شيوخ العرب الذين اصطحبونا من بير عباس ، لكن الشيوخ الوقورين ترجلوا وجلســـوا في حلقة حول شيشهم (جمع شيشة) وذكروا أنه ربما لا يصيخ اللصوص السمع لهم، لذا فمن الأفضل عدم تجشم عناء الكلام .

ولم يكن لدينا ما نفعله سوى أن نتلمظ غضبا كلما اشتعل البارود ، وأن نحجب أنفسنا كلما أمكننا ذلك ، ولقد كان نتيجة الأمر أن فقدنا اثنى عشر رجلا ، بالاضافة لجمال وغيرها من دواب التحميل . ورغم أن اللصوص لم يبدوا علامات الشجاعة من موقعهم فوق قمة التل ، الا أن رفاقي رأوا أن يعتبروا هذا الأمر المشكوك فيه عملا فائق الجرأة .

وبعد ســـاعة أخرى أرهقنا فيها دوابنا من الجري خلال وادي السيالة Sayyalah ظهرت لنا قرية الشهدا Shuhada التي اندفعنا اليهـــا .

« كالساري بليل في طريق لا ثاني له

تطبق عليه الجن من خلفه تكاد تطأه »

وقد اتخذت « الشهدا » اسمها هذا لأن أربعين شهيدا كانوا يحاربون مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في احدى غزواته ، قد دفنوا هنا ، الا أن بعض المصادر تشير الى أنها مقبرة لأهل وادي السيالة ، وهذا

الوادى الذى كان آهلا بالسكان ، خرب الآن ، وقد يمر المرء بسهولة ببقعة موقوفة لغرض نبيل دون أن يلاحظ الجدران القليلة المخربة وسلسلة قبور البدو البدائية التى لا تتعدى أن تكون أحجارا بيضاوية بين الأشواك الى اليسار ولا تبعد عن الطريق الا قليلا • وبعد نصف ساعة أخرى وصلنا الى محطة توقف أخرى ملائمة • انها **بير الهندى** التى حملت اسمها نسبة لبعض الهنود الذين حفروا بئرا فى هذا المكان • ولكننا تركنا البئر خلفنا رغبة فى الابتعاد قدر الامكان عن وكر حميده Hamidah ومن ثم توقف المسيل واتجهنا صوب الشمال فى طريق مطروق فى أرض حجرية مرتفعة • لقد أصبحت الحرارة مسببة للمرض هنا ، فالشمس أكثر لهيبا وخطورة بعد الفترة من الثامنة الى التاسعة • ولازلنا نسرع ، ولم نصل الى مقصدنا الا فى حوالى الساعة الحادية عشرة ، وكان سهلا مغطى بالأحجار والحصى الغليظ وكثيرا من أشجار الشوك ومحاطا بصخور قاسيات على شكل بروج ، وأسفلها جرانيت ، وأعلاها حجر جيرى جميل • وكانت البئر على بعد ميلين على الأقل ، ولم نر أى مسكن (عريش) • وكان بعض أطفال البدو الذين ينتمون الى قبيلة منبوذة يرعون الماعز الهزيلة فوق التلال وهذا المكان يسمى السويقة Suwaykah وهو ـ كما قيل لى ـ مكان مشهور فى تاريخ العرب ، وليس لهذا السبب وحده كان رفاقى ينظرون لخرائبه بحب وتأثر ، فقــد كانت صناديقهــم آمنة ، وكانوا يستطيعون الآن أن يشاهدوا بعين الخيال مساكنهم • وكان علينا أن نقطع فى ذلك اليوم حوالى اثنين وعشرين ميلا ، وكان الطريق يتخذ اتجاها شرقيا مباشرا ، والملاحظة الوحيدة على مظاهر السطح أن الأرض كانت ترتفع بشكل مستمر •

لقد نصبنا خيمتنا تحت شجرة ميموزا Mimosa (٩) تلك الشجرة البغيضة التى يشبه البدو الشعراء ظلها بالصديق الزائف لذى يتخلى عنك وأنت فى ذروة الحاجة اليه • لقد ملأت هذا اليوم الكئيب بالحيوية بتصفية حسابى مع سعد العملاق • اذ كان حصل ـ بسبب خفته ـ على زوج من الدولارات كقرض ، عندما كنا فى ينبع ، وكان قد اشترى غلالا فى الحمرا ، وها نحن الآن بالقرب من المدينة المنورة ، ولم ينبس ببنت شفة عن رد الدين • ولأننى أعلم أن المدين الشرقى يسدد دينه كما لو كان يدفع أجرة ـ خصوصا وكأنه يقطع من لحمه ـ ومن ناحية أخرى فان الدائن (صاحب

---

(٩) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية : جنس نبات وجنبــات من الفصيلة القرنية وازهارها بيضاء أو صفراء أو وردية ، ويستعمل حاليا اسم أكاسيا بدلا من ميموزا ، وهو على أنواع : سنط عربى ، عرفط ـ سلم ، يقول المترجم : والمقصود غالبا شجرة السنط أو السلم ـ (المترجم) •

الدين) سيكرس جهده طوال عام لاسترداد ستة بنسات (المقصود مبلغ تافه) ، لذا فقد عزمت أن أفعل كما يفعل أهل البلاد ، فطالبته بالحاح وطلبت رهنا لا سترداد أموالى • وعند الظهر تقريبا ، اندفع سعيد العملاق عارى الرأس – فى الشمس المحرقة ، وقذف بالدولارين فوق بساطى ، وعلى أية حال ، فانه سرعـان ما استعاد اعتـدال مزاجه ، وكما أظهرت الأحداث اللاحقة ، فاننى كنت على صواب • فاذا لم يكن قد أجبر على دفع دينه ، فقد يستخف بى باعتبارى رجلا ساذجا (عبيطا) وقد يطمع فى المزيد • وان جاز التعبير ، فان الولد محمد يحمل بين جنبيه لهبا من شعور غير شـائع ، فحاجتى للتسـامح والسـخاء جعلته يلاحقنى بضميره السيىء وطبعه الخؤون ، وقد أعطى ما فى ضميره من سوء ، بعدا فلسفيا ، فهو يحسب كل دولار أنفقه ، واضعا فى اعتباره أن كل دولار أدخره (لا أنفقه) فى المدينة المنورة ، سيتم انفاقه تحت اشرافه فى مكة المكرمة لقاء تدبيره أمرى فيها •

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر فى الرابع والعشرين من شهر يوليو غادرنا (السويقة) ، وتبادلنا جميعا الفكاهات المرحة ، واتخذنا اتجاها شماليا شرقيا • وقد تعكر مزاج رفاقى لأنه عند غروب الشمس كان عمر أفندى هو الوحيد من بين المجموعة الذى أصر على تناول عشائه ، فجلس الباقون على الأرض مقطبين متذمرين ، فسمحت لهم باستهلاك ما لدى من اللاتاكيا Latakia وهى تبغ سورى • وقلما رأيت مثل هذه المباراة المعروفة بين الأطفال الأشقياء ، تمارس حتى بين الرجال الشرقيين • فالولد محمد لفت نظرى بشكل خاص أن لحى الجمالة كانت الآن فى قبضة يده ، بمعنى أنهم الآن بعيدون عن قبيلتهم • قبيلة حرب • وسرعان ما افتعل سببا ليتعارك معهم فلمجرد أنهم لم يردوا على أحد أسئلته بسرعة حتى انهال عليهم بالسـباب المقذع الذى جعلهم يمدون أيديهم فى اتجـاه سيوفهم • وعلى أية حال ، فرغم هذا المسلك التهديدى ، فان الفتى كان يعرف أنه يستطيع أن يتمادى كما يشاء دون خطر يحيق به ، فاستمر فى سبابه ، وكان وجه منصور ينم عن الغضب بشكل مضحك للغاية ، لدرجة أننى شعرت أن تدخلى سيكون أمرا مسليا جدا • وأخيرا اختفى الجمالة ، وعاقبونا بسبب الموقف الذى تعرضوا له عقابا مؤثرا • فقد كان الطريق يمتد على تل صخرى ويهبط فى واد حجرى ، وكانت الجمال تصعد وتهبط بحثا عن المرعى المعتـاد ، فكانت تزل وتتعثر ، ونتيجة هذا فقـد كنا

(★) ما بين القوسين توضيح من المترجم •

اما نترنح أو نهوى مرة كل ميل طوال الليل • وعبثا طلب الولد محمد – الذى أصبح خائفا الآن – العون من الجمالة بملء حنجرته قائلا : « أين هؤلاء البوم ، أين الثيران أولاد الثيران ، أين المتسولون ؟ أين مقطوعو الجذور ؟ أين الغرباء (الأجانب) أين أولاد حرب ؟ •• حقا لأعذبنهم عذاب الزيت •• انهم مناجم العار ، انهم أغبياء » ونظر الذين يشاركون الجمالة فى طابعهم البدوى الى الفتى بكراهية وازدراء ، وتمتموا قائلين : « بالله •• بالله وبالله ! ياولد ، اننا سوف نجلدك ككلب الصيد ، عندما نمسك بك فى الصحراء » • وطلب كل رفاقنا من الولد محمد أن يكف ، لكن انفعالاته قد طغت تماما على حذره ، فعبر عن نفسه بتعبير عربى تقليدى ، وبلهجة حجازية ، حتى اننى لم أكن راغبا فى اسكاته • وبعد وصولنا للمدينة (المنورة) ببضعة أيام حذر الشيخ حامد الولد محمد بجدية ألا يتمادى مرة أخرى هذا التمادى الخطير لأن بنى حرب مشهورون بأنهم يطلقون النار على من يتجرأ عليهم حتى ان وصفهم وصفا معتدلا بقوله « يا حمير » أو يطعنونه بالخناجر • وفى هدوء المدينة أصغى الولد محمد بقلق وندم لكلمات صديقه ، كالرجل المعتدل الذى يخاف عند الخطر ، ويجرأ عند السكر • لقد كانت النتيجة المباشرة لشتائمه أن شقدوفى المكسور ، قد تحطم تماما ، وأمضيت معه الساعات المظلمة نحط بشكل غير مريح – كطائرين ، على بقايا الشقدوف •

لقد أشرقت الشمس صبيحة الخامس والعشرين من شهر يوليو ، قبل أن أتخلص من ارهاق هذه الليلة ، تماما • وكان كل من حولى يحثون جمالهم على المسير رغم الأرض الصخرية ، ولم يكن أحد لينبس ببنت شفة مع جاره • وكان من الطبيعى أن أسأل : « أثمة لصوص ؟ » فأجاب الولد محمد : « لا ، انهم يسيرون بأعينهم ، فسوف يرون منازلهم حالا » ، وبسرعة اجتزنا وادى العقيق al-Akik الذى وصفه الشعراء العرب وصفا جميلا •

لقد كان الوادى « جافا كغبار الصيف » وكانت « أشجاره الجميلة » (١٠) كالخضروات المحنطة (مومياوات أشجار) • وبعد نصف الساعة من مغادرة هذا الوادى « المبارك » وصلنا الى مدرجات طويلة فسيحة نحتت بخشونة فى بازلت بركانى أسود ، وتسمى المدرج Mudarraj وتقع على الحرف الغربى لما يســـمى « الحرتين Al -Harratayn » • وهى أرض مقدسة لأن

---

(١٠) من الواضح أنه يسخر – (المترجم)

الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد ذكرها بخير • ولما وصلنا للقمة مررنا عبر مجاز (ممر ضيق) من الحمم البركانية (اللافا) الداكنة على جانبية منحدرات عميقة ، وبعد دقائق قليلة ظهرت لنا ـ فجأة ـ المدينة (المنورة) بكاملها •

فأوقفنا دوابنا ، وكأنما صـدر أمر حاكم بذلك ، وترجل جميعنا تأسيا بما كان يفعله الأتقياء من السلف ، وجلسنا منهكين جوعى كما كنا ، نمتع أعيننا بمنظر المدينة (المنورة) •

« يا الله ، هذا حرم نبيك ، اجعله لنا درءا من نار جهنم ، ونجنا من عذابك يوم القيامة • يا الله افتح لنا أبواب رحمتك ، وأدخلنا جنتـك » « اللهم صل على خاتم النبيين ، عدد نجوم السماوات وأمواج البحار ، ورمال الصحراء • ياذا الجلال والاكرام صل عليه ما نبتت حقول القمح وما أثمرت النخيل » • ومرة أخرى يقولون : « عش للأبد ، ياسيد الأنبياء ، عش فى ظل السعادة آناء الليل وأطراف النهار ، بينما ينوح الحمام كأم بلا ولد ، وبينما الرياح الغربية تهب كالنسائم على تلال نجد ، ويتالق الضوء فى سماء الحجاز » •

بمثل هذا الوجد الشعرى الذى أحاطنى من كل جانب يتجلى مدى اصطباغ لغة العرب بالخيال العميق ، بسبب عاطفتهم الدينية الجياشة • لقد فهمت الآن المعنى الكامل للجملة التى يرددها المسلم : « وعندما تقع عينا الحاج على نخيل المدينة (المنورة) ، دعه يرفع صوته ويصلى ويسلم على النبى (صلى الله عليه وسلم) أفضل صلاة وأزكى تسليم » • وبشكل عام ، فانه باستثناء الحقول والبساتين حول المدينة المنورة ، لم يكن هناك ما يلفت النظر بعد المناطق المقفرة التى مررنا بها • ولم يـكن ممكنـا ألا أتغلغل فى مشاعر رفاقى ، وفى حقيقة الأمر فاننى أعتقد أن حماسى وتعاطفى مع مشهد المدينة المنورة قد ارتفع بقدر حماسهم وتعاطفهم لبضع دقائق • الا اننا بعد أن ركبنا دوابنا مرة أخرى ، استعدنا رباطة جأشنا • ورسمت مخططا مبدئيا للمدينة (المنورة) (صورة على البعد) ، ووضعت أسئلة عن المبانى المهمة • وخصصت الفصول التاليـة لـما جمعته من معلومات عن المدينة (المنورة) •

لقد كانت المسافة التى قطعناها هذه الليلة حوالى اثنين وعشرين ميلا فى اتجاهات تتراوح بين الشرق والشمال الشرقى • وقد وصلنا المدينـة (المنورة) فى الخامس والعشرين من شهر يوليو ، وبذلك تكون رحلتنا قد استغرقت حوالى ثمانية أيام ، وأكثر قليلا من مائة وثلاثين ميلا • وهذه

الرحلة تنجز فى أربعة أيام بالجمال ، ويمكن لجمل قوى أن يتمها بدون صعوبة فى نصف هذا الوقت (١٢) ٠

---

(١٢) باربوسا Barbosa قدر المسافة من ينبع الى المدينة (المنورة) بثلاثة أيام ، وقدرها دربلوت D'Herbelot بثمانية وقدرها أوفنجتون Oving'on بستة ، والزمن المعتاد هو ما بين أربعة أيام وخمسة ٠ والخطأ فى تقدير المسافة بين الجغرافيين المحليين يرجع لاهمالهم الفرق ببين السفر بجمل بطىء والسفر راكبين على جمل سريع ٠ وفيما يلى موجز للمحطات التى توقفنا فيها :

١ ـ من ينبع (١٨ يوليو) الى المسهل (شمال شرق) ١٦ ميلا ٠

٢ ـ من المسهل (١٩ يوليو) الى بير سعد (شمال وشرق) ٣٤ ميلا ٠

٣ ـ من بير سعد (٢٠ يوليو) الى الحمرا (شمال شرق) ١٤ ميلا ٠

٤ ـ من الحمرا (٢١ يوليو) الى بير عباس (شرق) ٢٤ ميلا ٠

٥ ـ من بير عباس (٢٣ يوليو) الى السويقة (شرق) ٢٢ ميلا ٠

٦ ـ من السويقة (٢٤ يوليو) الى المدينة (المنورة) ، الى الشمال ، والى الشرق ٢٢ ميلا ٠

المجموع بالميل الانجليزى : ١٣٢

اقـــرأ فى هـــذه الســـلسلة

أحلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رســـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـــة مقابل نقطـــة	الدس هكســـــلى
الجغرافيا فى مائة عـــام	ت ٠ و ٠ فريمـــان
الثقـــــافة والمجتمـــــع	زايمونت وليـــامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ جـ)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغـــــامضة	ليســـترديل راى
الرواية الانجليـــزية	والتـــر الـــن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـــاس
آلهـــــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـــاشة	د ٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـــم النحـــاس
مجمـــوعات النقـــود	ديفيد وليـــام ماكدونالد
الموسيقى ــ تعبير نغمى ــ ومنطق	عزيز الشـــــوان
عصر الرواية ــ مقال فى النوع الأدبى	د ٠ محسن جاسم الموسوى
ديـــلان تومـــاس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسان ذلك الكائن الفـــريد	جـــون لويس
الرواية الحـــــديثة	بـــول لويس
المسرح المصرى المعـــاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمـــود طـــه	أنـــور المعـــداوى
القـــوة النفســـية للأهرام	بيل شـــول وأدنبيت
فـــن الترجمـــــة	د ٠ صـــفاء خـــلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلـــو
ســـتندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف . ع . أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د . نعمة رحيم العزاوى
أعلام العرب فى الكيمياء	د . فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوه
التطور الحضارى للانسان	جاكوب براونوفسكى
هل نستطيع تعليم الاخلاق للاطفال	د . روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا . سبنسر
النحل والطب	د . ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ــ ١٩١٤	د . لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د . جون شندلر
الصحافة	بيير البير
أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د . رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د . محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل . باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ــ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج · دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د · جوهان دروشنن
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د · السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د· مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	مجموعة من الكتاب اليابانيين القدماء والمحدثين
الفكر الأوربى الحديث ج٢	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف · س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر زداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س · م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د· عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د · سمبسون ونورمان د· اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د· أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فريد · هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بور كهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبر
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل ثندرا وبكراماسيخ
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك

الكمبيوتر فى مجـالات الحياة	د. محمود سرى طـه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتـر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهنــدسة الوراثيـة	ويليــام بيز
تربية أسـماك الزينـة	ديفيــد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعهـا : جون ر . بورر وميلتـون جولد ينجر
الفكر التاريخى عنـد الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د . صـالح رضـا
التغـذية فى البلدان النامية	م.هـ . كنج وآخـرون
بداية بلا نهــاية	جـورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د . السيد طه أبو سديدة
حــوار حـول النظـامين الرئيسيين	جاليليـو جاليليـه
الكـــون	أريك موريس ، آلان هـو
الارهـــاب	ســيريل الـدريد
اخنـــاتون	آرثر كيســـتلر
القبيـلة الثـالثة عشرة	توماس ا . هاريس
التـــوافق النفسى	مجمـوعة من الباحثين
الدليـل الببليوجرافى	روى أرمـــز
لغــة الصـــورة	ناجـاى متشـيو
الثورة الاصلاحية فى اليابان	بول هاريسون
العـــالم الثـالث غـدا	ميكائيل ألبى ، جيمس لفلوك
الانقـــراض الكبيــر	فيكتــور مورجان
تاريخ النقـــود	اعداد محمد كمال اسماعيل
التحليل والتوزيع الأوركسـترالى	الفردوسى الطـوسى
الشــاهنامة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
الحيــاة الكريمــة (٢ جـ)	جاك كرابس جونيـور
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩	محمد فؤاد ، كوبريلى
قيــام الدولة العثمــانية	

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د٠ فيليب عطية
السينما العربيــة	اعداد / مونى براج وأخرون
دليل تنظيم المتــاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص أخــرى	نادين جوديمر ،
جماليــات فن الاخراج	زيجموت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (ثلاثة أجزاء)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
قيام الدولة العثمانيــة	محمد فؤاد كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كولز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (جزآن	الفريد ج٠ بتلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
انهم يصنعون البشر	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د٠ رفيق الصبان
الحياة الكريمة	بيرتون بورتو
الســينما الخيالية	بيتر نيكو للذر
الســلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى ألف عام	تأليف / بينارد دوج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيــة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصــال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الأسيوية	اختيار / صبرى الفضل

الكاتب الحديث	ج٠س٠فريزر
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	اعداد/ أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوتيو تود
حديث النهر	ترجمة / سوريال عبد الملك
من هم التتــار	د٠ أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / محمد جابر الجزار

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٨٩٢/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4121 — 6

هذه صفحة مفعمة بالحياة لأحوال مصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية فى منتصف القرن التاسع عشر، يزيد من قيمتها أن كاتبها ليس بشخص عادى، وإنما رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الايرلندى ريتشارد بيرتون الذى زار مصر فى غضون سنة ١٨٥٣، أى فى أواخر عهد عباس باشا الأول (١٨٤٨ـ ١٨٥٤) وكانت مصر يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة كان لها أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية..

وفى الجزء الأول من الرحلة يصف بيرتون وصوله إلى مصر عن طريق الاسكندرية ثم إقامته فى القاهرة والاحتفال بشهر رمضان هناك ثم رحلته إلى السويس فى طريقه إلى زيارة الجزيرة العربية.....

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب